السلطة الوطنية الفلسطينية
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة

محمد

صلى اللّه عليه وسلم

(الجزء الخامس)

القدس
1433هـ- 2012 م

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

هدية

سنة 1433هـ - 2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم، وسار على نهجهم إلى يوم الدّين، وبعد؛

فإن دار الإفتاء الفلسطينية تفخر بأن تقدم الجزء الخامس من كتاب **(الرسول الأسوة محمد ﷺ)** الذي يعرض لمحات من سيرة المصطفى ﷺ القولية والعملية، بطريقة ميسرة، تميزت ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة، حتى تتيح للقارئ أن يستقي منه ما يفيده، وتساهم في نشر الوعي الإسلامي الصحيح، ليستفيد من قراءته المسلمون على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعمرية.

ويسرني في هذا المقام أن أتقدم من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتميز، بالشكر والتقدير، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله ﷻ أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منارة علم وخير وهداية وصلاح، إنه الهادي الموفق إلى سبيل الرشاد.

فإن أصبنا في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

القدس
1433هـ / 2012م

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

الفصل الأول

عقيدة

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
1.	ﷺ يوصي بكتاب الله تعالى	5
2.	ﷺ يربط بين العلم والإيمان	10
3.	ﷺ ختم الله به النبيين وبرسالته الأديان السماوية	14

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يوصي بكتاب الله تعالى

حرص الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، أن يسألوا عن كل أمر أو نهي، ليلتزموا به، أو خير حث عليه رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليفعلوا منه ما يستطيعون. فقد روى طلحة بن مصرف، قال: (سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْصَى؟ فَقَالَ: لا، فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الْوَصِيَّةُ، أَوْ أُمِرُوا بِالْوَصِيَّةِ؟ قَالَ: أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ)[1]، فهذا الحديث النبوي الشريف يبين وصية رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأمته فقد أكد الصحابي الجليل عبد الله بن أوفى، رضي الله عنهما، أن أعظم وصية لرسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأمته هي كتاب الله تعالى. وهي وصية جامعة لخير الدنيا والآخرة، وفيها هدايات الله تعالى لهذه الأمة الكريمة، كيف لا؟! وكتاب الله تعالى هو النور المبين، والقرآن الحكيم الذي ختم الله به الرسالات، وجعله المعجزة الخالدة على مر الزمان إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ففيه الهداية والصلاح والفلاح لمن اتبع هداه، وتمسك بهديه.

يقول تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.[2]

1- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا.

2- المائدة: 15-16.

ويقول تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[1]، والرسول، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: (أَلا أَيُّهَا النَّاسُ؛ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ؛ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ؛ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي؛ أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي)[2]، وعن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَطَبَ النَّاسَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا؛ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)[3].

فكل هذه النصوص الكريمة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، توجه المسلمين إلى التمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه، والعمل بمقتضى أحكامهما وأوامرهما وتوجيهاتهما. فقد أمر الله تعالى أمتنا بوجوب اتباع كتابه تعالى، واتباع سنة نبيه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يبدو ذلك واضحاً من خلال النصوص الكثيرة التي تحثنا على ذلك فقد أوجب الله تعالى علينا طاعته وطاعة رسوله، ولا تتأتى هذه الطاعة إلا بالأخذ بكتاب الله تعالى، واتباع سنة نبيه، عليه الصلاة والسلام.

فالله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ

1- الأنعام: 155.

2- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

3- سنن البيهقي، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي، ورواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[1]، قال ابن كثير في تفسيره: "قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء يتنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ...}[2]"[3]، وقد وردت آيات كثيرة تبين وجوب طاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، واتباعه فيما بيّنه في سنته الشريفة، من ذلك قول الله تعالى: {مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[4]، وقوله تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}[5]، وقد بين الله تعالى فضل الاعتصام بكتابه وسنة نبيه، عليه الصلاة والسلام، وأنه يقود إلى النجاة والهداية إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }[6]، وعن أبي شريح الخزاعي، قال: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ، صَلى الله عَلَيه وسَلم، فَقَالَ: أَبْشِرُوا، أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ

1- النساء: 59.
2- الشورى: 10.
3- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 206/2.
4- الحشر: 7.
5- النساء: 65.
6- آل عمران: 101.

تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا)[1]، وإن من مظاهر محبة الله تعالى اتباع سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[2]، قال ابن كثير:"هَذِهِ الآيَة الْكَرِيمَة حَاكِمَة عَلَى كُلّ مَنْ اِدَّعَى مَحَبَّة اللَّه، وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَة الْمُحَمَّدِيَّة، فَإِنَّهُ كَاذِب فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْس الأَمْر، حَتَّى يَتَّبِع الشَّرْع الْمُحَمَّدِيّ وَالدِّين النَّبَوِيّ فِي جَمِيع أَقْوَاله وَأَفْعَاله".[3]

وكما أن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله تقود إلى الفوز بالآخرة، كما قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[4]، فإن الإعراض عن طاعة الله وطاعة رسوله تقود إلى الخذلان والخسران في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}[5]، وقال تعالى: { وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً}[6]، قال ابن كثير: "أَيْ: وَمَنْ سَلَكَ غَيْر طَرِيق الشَّرِيعَة الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُول، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَارَ فِي شِقّ، وَالشَّرْع فِي شِقّ، وَذَلِكَ عَنْ عَمْد مِنْهُ، بَعْدَمَا ظَهَرَ

1- مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب في التمسك بالقرآن، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة، حديث رقم 713.
2- آل عمران: 31-32.
3- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مكتبة الصفا، ط1، 19/2.
4- النساء: 13.
5- طه: 124 – 126.
6- النساء: 115.

لَهُ الْحَقّ، وَتَبَيَّنَ لَهُ، وَاتَّضَحَ لَهُ"[1]، وعن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إلا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)[2]، قال ابن تيمية: "فَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ لا يَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ الدِّينِ إلا تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلا يَتَقَدَّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ بَلْ يَنْظُرُ مَا قَالَ؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَبَعًا لِقَوْلِهِ، وَعَمَلُهُ تَبَعًا لأَمْرِهِ، فَهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يُعَارِضُ النُّصُوصَ بِمَعْقُولِهِ، وَلا يُؤَسِّسُ دِينًا غَيْرَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَإِذَا أَرَادَ مَعْرِفَةَ شَيْءٍ مِنْ الدِّينِ وَالْكَلامِ فِيهِ، نَظَرَ فِيمَا قَالَهُ اللَّهُ وَالرَّسُولُ، فَمِنْهُ يَتَعَلَّمُ، وَبِهِ يَتَكَلَّمُ، وَفِيهِ يَنْظُرُ وَيَتَفَكَّرُ، وَبِهِ يَسْتَدِلُّ، فَهَذَا أَصْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ".[3]

فلنحرص إخوة الإيمان على اتباع كتاب الله تعالى وسنة رسوله، عليه الصلاة والسلام، والاعتصام بهما ففيهما النجاة في الدنيا والآخرة، وقد دعانا الله تعالى إلى ذلك بقوله: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[4]، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- تفسير القرآن العظيم، 250/2.
2- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
3- الفرقان بين الحق والباطل، ابن تيمية، 446/1.
4- آل عمران: 103.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يربط بين العلم والإيمان

عن مُعَاوِيَةَ أنه سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (مَن يُرِدْ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ...).[1]

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف أهمية العلم وفضل تعلمه، فهو من توفيق الله وحسن آلائه، فالذي يوفقه الله إلى طلب العلم إنما يريد له بذلك الخير، وأبدى الرسول، صلى الله عليه وسلم، حرصه على تشجيع التوجه إلى طلب العلم وتحصيله، فبالإضافة إلى الخير المتمثل في التوفيق إلى طلب العلم والتفقه فيه، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، اهتم بالدعاء إلى بعض خواصه وأوليائه بأن يوفقهم الله إلى طلب العلم، فعن ابن عَبَّاسٍ قال: (ضَمَّنِي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وقال: اللهم عَلِّمْهُ الْكِتَابَ)[2]، وفي حديث آخر، دعا الرسول، صلى الله عليه وسلم، لعبد الله بن عباس، فقال: (اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ، وَفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَاجْعَلْهُ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ).[3]

صحيح أن الأحاديث السالفة تتطرق إلى فضل التفقه في العلوم الشرعية والدينية، إلا أن مطلق النصوص الأخرى- التي تحث على طلب العلم، وتبين فضل تحصيله والسعي إليه- تشمل العلم الشرعي، والديني، وباقي أنواع المعارف والعلوم التي تلزم الناس في حلهم وترحالهم، ويبين الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين "أن العلوم الدينية تؤخذ بطريق التقليد من الأنبياء، صلوات الله عليهم وسلامه، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وفهم معانيهما بعد السماع. وأما العلوم العقلية، فهي تقضي بها غريزة العقل، ولا توجد بالتقليد

1- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

2- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: اللهم علمه الكتاب.

3- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، 617/3، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه.

والسماع، وهي تنقسم إلى ضرورية، لا يدري من أين حصلت؟ وكيف حصلت؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وإلى علوم مكتسبة، وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال، وكلا

القسمين قد يسمى عقلاً"، قال علي، رضي الله عنه:

رأيت العقل عقلين   فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع   إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس   وضوء العين ممنوع

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية، فالدنيوية؛ كعلم الطب، والحساب، والهندسة، والنجوم، وسائر الحرف والصناعات، والأخروية؛ كعلم أحوال القلب، وآفات الأعمال، والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله.(1)

والأصل في حكم تعلم العلوم أنه فرض كفاية، فإذا وجد من المسلمين من يسد حاجتهم من هذه العلوم، يسقط الإثم عن جميع الأمة، أما إذا حصل التقصير في تحصيلها، وحصل عجز لدى المسلمين في نوع من أنواع العلوم النافعة، فإن الذين يقصرون في تعلم تلك العلوم وسد حاجة المسلمين يصبحون آثمين، حتى تحصل لهم الكفاية منه.

وهناك علوم يلزم تعلمها كل مسلم، فحكم تعلمها فرض عين على كل مسلم، كأحكام العقائد والعبادات.

ويجدر التنويه في هذا المقام إلى الربط الوارد بين تعلم العلم والإيمان في كثير من النصوص الشرعية، فالله تعالى رفع مكانة أهل العلم، وميزهم عن الجاهلين، فقال تعالى: {...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}(2)، وفضل الله أهل العلم على غيرهم من الناس، فقال تعالى: {...يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

1- أنظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص20-25.

2- الزمر: 9.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[1]، وأمر الله المؤمنين بالتقوى ليحصلوا سعة العلم، وتيسير سبله لهم، فقال تعالى: {...وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[2]، ووجه الله تعالى عباده إلى التوجه إليه سبحانه في طلب الاستزادة من العلم، فقال سبحانه: {...وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}.[3]

فالله هو واهب العلم والموفق إليه، مصداقاً لقوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}[4]، ويظهر الربط بين العلم والإيمان جلياً في سياق قصة موسى، عليه السلام، مع الخضر، حيث تورد سورة الكهف أن الله هو الذي وهب الخضر علماً ربانياً، أهلّه لينال مقاماً تميز به على موسى، عليه السلام، فقال تعالى: {فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً}.[5]

ويذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، قصة إبراز هذا التميز لمن حباه الله بعلم من لدنه، فعن سَعِيدُ بن جُبَيْرٍ، قال: (قلت لابن عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفاً الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ ليس هو مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فقال ابن عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حدثني أُبَيُّ بن كَعْبٍ، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إِنَّ مُوسَى قام خَطِيبًا في بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ الناس أَعْلَمُ؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ الله عليه إِذْ لم يَرُدَّ الْعِلْمَ إليه، فَأَوْحَى الله إليه إِنَّ لي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هو أَعْلَمُ مِنْكَ .. إلخ).[6]

فمن أراد النجاح في تحصيل العلم عليه بالتقوى وصفاء السريرة، عسى أن يوفقه الله فيما يطلب من علم، ويزيده تبحراً فيه، وينفعه بما يتعلم، وينفع به، ودلل الإمام الشافعي على أهمية التقوى في طلب العلم، فأنشد أبياته المشهورة:

1- المجادلة: 11.

2- البقرة: 282.

3- طه: 114.

4- البقرة: 151.

5- الكهف: 65.

6- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب {وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا}.

شَكَوْتُ إلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأرْشَدَنِي إلَى تَرْكِ المَعَاصي

وَأخْبَرَنِي بأَنَّ العِـلْمَ نُـورٌ ونورُ الله لا يهدى لعاصي

وصدق من قال: تعلمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله.

فالربط بين العلم والإيمان منطقي وشرعي وضروري، حتى تتكامل حلقات الحقيقة، وحتى يتحقق الانسجام بين حركة الكون وعقل الإنسان، دون أن يعتري ذلك شكوك أو انفصام، والرسول، صلى الله عليه وسلم، وعد من يسعى إلى طلب العلم، بتسهيل مهمته، وتيسير أمره إلى الفوز بالجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: (...وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقاً إلى الْجَنَّةِ).[1]

ويأتي هذا الحديث عن حقيقة الربط بين العلم والإيمان، بمناسبة توجه فلذات أكبادنا إلى مقاعد الدراسة في مراحلها المختلفة، فمنهم من توجه إلى الصفوف المدرسية الدنيا، وبعضهم إلى العليا، وبعضهم الآخر إلى مقاعد الدراسة الجامعية، قاصدين لهم تحصيل المعارف المختلفة والمتنوعة، لتعمر بهم البلاد وتحلو.

فمن حق طلبتنا أن نذكرهم بلزوم الربط بين العلم والإيمان، فبالعلم يزيد الإيمان، وبالإيمان يتيسر العلم ويتاح، لمن طلبه بصدق وإخلاص، وسعى إليه باذلاً الجهد، فمن طلب العلا سهر الليالي، ومن جد وجد، ومن اتقى الله سدد خطاه، وعلمه ما لم يعلم، وبارك له في علمه، ونفع به الخلق الآخرين.

فما أروع السعي الجاد لتحصيل العلم، جنباً إلى جنب مع حفظ حدود الله، والتزام شرعه، وأداء شعائره، والتوجه إليه بسؤال التوفيق والنجاح.

سائلين الله العلي القدير أن يهدينا سبيل الرشاد والتقوى، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما عَلمنا، وأن ينفع بنا خلقه ودينه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد بن عبد الله، أسوة المسلمين وقدوتهم، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ختم الله به النبيين وبرسالته الأديان السماوية

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ، وَأَجْمَلَهُ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ له، وَيَقُولُونَ هَلا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ، قال: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ).[1]

بعث الله رسلاً، وأوحى إلى أنبياء اصطفاهم من خير خلقه، كان أولهم آدم، عليه السلام، وخاتمهم رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، وقد أخبر الله تعالى في قرآنه الكريم عن ختم الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، للنبيين، فقال تعالى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}.[2]

ويشبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، موضعه كنبي ورسول من مواضع النبيين والرسل، فيبين أن مثله منهم كمثل بناء شيّده رجل، فكان حسن الصورة، وفي غاية الجمال، وأثار إعجاب الناس، إلا أنهم كانوا يعجبون لموضع لبنة فيه، لم يتم وضعها في زاويته، فكانوا يتمنون لو أن هذه اللبنة وضعت في موضعها حتى تكتمل صورة البناء وجماله وحسنه، ويبين صلى الله عليه وسلم أن بنيان الأنبياء كان ينتظر الاكتمال بنبوته صلى الله عليه وسلم حيث هو اللبنة التي يكتمل بها هذا البنيان، وأنه خاتم النبيين الذين بعثهم الله بنبواته ورسالاته، عليهم السلام أجمعين.

1- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم.

2- الأحزاب: 40.

ويذكر الألوسي في تفسيره أن المراد بالنبي ما هو أعم من الرسول، فيلزم من كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خاتم النبيين، كونه خاتم المرسلين، والمراد بكونه، عليه الصلاة والسلام، خاتمهم؛ يعني انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلين بعده عليه الصلاة والسلام، ولا يقدح في ذلك ما أجمعت الأمة عليه، واشتهرت فيه الأخبار، ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوي، من نزول عيسى، عليه السلام، آخر الزمان لأنه كان نبياً قبل بعث نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالنبوة[1]، هذا بالإضافة إلى أن عيسى، عليه السلام، لن يأتي بعد مبعثه في آخر الزمان برسالة جديدة، أو دين جديد، وإنما سيأتي ليعمل بما جاءت به رسالة الإسلام عن الله سبحانه وتعالى.

هو العاقب، صلى الله عليه وسلم

وصف الرسول، صلى الله عليه وسلم، ختمه للنبيين بلفظ العاقب في حديثه الذي ذكر فيه أسماءه، فعن مُحَمَّد بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ؛ أنا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وأنا الْمَاحِي الذي يَمْحُو الله بِي الْكُفْرَ، وأنا الْحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمِي، وأنا الْعَاقِبُ).[2]

ونقل ابن حجر العسقلاني عن الزهري في حديث محمد بن جبير (وأنا العاقب) قال: يعني الخاتم، وزاد يونس بن يزيد في روايته عن الزهري، (الذي ليس بعده نبي).[3]

ويقول النووي في شرحه على صحيح مسلم: أما العاقب؛ ففسره في الحديث بأنه ليس بعده نبي، أي جاء عقبهم، ويذكر عن ابن الأعرابي أن العاقب والعقوب؛ الذي يخلف في الخير من كان قبله، ومنه عقب الرجل لولده. كما يذكر النووي تعليل العلماء للاقتصار

1- روح المعاني، الألوسي، 22/ 34، بتصرف.

2- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

3- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 6/556- 557.

على ذكر هذه الأسماء مع أن له صلى الله عليه وسلم أسماء غيرها كما سبق، وذلك لأنها موجودة في الكتب المتقدمة وموجودة للأمم السالفة.[1]

نصه الصحيح والصريح على أنه آخر الأنبياء، وأن لا نبي بعده

وردت روايات صحيحة عنه صلى الله عليه وسلم في مناسبات مختلفة، وفي سياق متعدد، تنص بصريح اللفظ وقطع الدلالة على أنه آخر الأنبياء، وأنه لا نبي بعده، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: فَإِنِّي آخِرُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ مَسْجِدِي آخِرُ الْمَسَاجِدِ).[2]

وعن أَبِي حَازِمٍ قال: (قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ، فَسَمِعْتُهُ يحدث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: كانت بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ، فَيَكْثُرُونَ، قالوا: فما تَأْمُرُنَا؟ قال: فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فإن اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ).[3]

وعن مُصْعَبِ بن سَعْدٍ، عن أبيه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ إلى تَبُوكَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فقال: أَتُخَلِّفُنِي في الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قال: أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ من مُوسَى، إلا أَنَّهُ ليس نَبِيٌّ بَعْدِي).[4]

ويقول القاضي عياض في كتابه (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى): "أخبر صلى الله عليه وسلم أنَّه خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأخبر اللَّه تعالى أنَّه خاتم النبيين، وأنَّه أرسل

1- أنظر صحيح مسلم بشرح النووي، 106/15.

2- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة.

3- صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

4- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة.

للناس كافة، وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره، وأنَّ مفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص".[1]

تأكيد الصحابة على انقطاع الوحي بالرسالات بعده صلى الله عليه وسلم

حقيقة ختم النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، للنبيين، وانقطاع الوحي عن النزول برسالات سماوية على أحد من الخلق بعده، من مسلمات دين الإسلام، ومبادئ عقيدته، التي فقهها الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، وأكدوها في مواقفهم وأقوالهم، فعن عَبْدَ اللَّهِ بن عُتْبَةَ قال: سمعت عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، يقول: (إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ في عَهْدِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَإِنَّ الْوَحْيَ قد انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لنا من أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لنا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا من سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، الله يُحَاسِبُهُ في سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لنا سُوءًا لم نَأْمَنْهُ ولم نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قال: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ).[2]

وعن أَنَسٍ قال: قال أبو بَكْرٍ، رضي الله عنه، بَعْدَ وَفَاةِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لِعُمَرَ: (انْطَلِقْ بِنَا إلى أُمِّ أيمن نَزُورُهَا كما كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَزُورُهَا، فلما انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لها: ما يُبْكِيكِ؟ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ، صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما أَبْكِي أن لا أَكُونَ أَعْلَمُ إن ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ، صلى الله عليه وسلم، وَلَكِنْ أَبْكِي أن الْوَحْيَ قد انْقَطَعَ من السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا على الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا).[3]

1- الشفاء، القاضي العياض، 271/2.

2- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب الشهداء العدول.

3- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله عنهم، باب من فضائل أم أيمن، رضي الله عنها.

كذب مدعيي النبوة بعده صلى الله عليه وسلم

إن ختم الله النبوة برسالة الإسلام التي بعث الله بها محمداً، صلى الله عليه وسلم، إلى العالمين، حقيقة إيمانية، ثبتت دلالتها القطعية بنص القرآن الكريم، وحديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصحيح، مما يعني انقطاع نزول الوحي من الله بالرسالات على خلقه بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإن من يزعم أنه موحى إليه بعد محمد، صلى الله عليه وسلم، فهو يكذب على الله، ويدعي زعماً باطلاً، ليس له من الحق أو الحقيقة نصيب، وقد أخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن أناس دجالين سيدّعون النبوة كذباً من بعده، فعن أبي هُرَيْرَةَ، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ من ثَلاثِينَ، كلهم يَزْعُمُ أَنَّهُ رسول اللَّهِ).[1]

ومعنى يبعث: يخرج ويظهر، والدجال من الدجل، وهو التمويه، وقيل غير ذلك، وقد وجد من هؤلاء خلق كثيرون عبر العصور المختلفة، وأهلكهم الله تعالى، وقلع آثارهم، وكذلك يفعل بمن بقي منهم.[2]

وصلى الله وسلم على رسولنا الأكرم؛ خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، 18/ 45-46.

الفصل الثاني

ذكرى مولد الرسول ﷺ وهجرته

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
4.	ﷺ يذكر يوم ولادته وغاية بعثته	20
5.	ﷺ يشيد بمقام المهاجرين والأنصار ودورهم الريادي في الإسلام	26

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يذكر يوم ولادته وغاية بعثته

في حديث صحيح عن أبي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، أن رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ذكر يوم ولادته وبعثته، وذلك في معرض إجابته عن استفسار خاص بصوم يوم الإثنين، فعنه (أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، سُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ الإثنين. قال: ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ، أو أُنْزِلَ عَلَيَّ فيه).[1]

فهنيئاً لك يا يوم الإثنين أن شهدت هذين الخيرين العظيمين؛ يوم ولادة الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، ويوم بعثته هادياً للعالمين، بشيراً ونذيراً، والله تعالى يقول: {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً}.[2]

فقد بعث نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، يبشر من اهتدى، وينذر من ضل وغوى واعتدى، وهو بذلك رحمة مهداة، ونعمة مزجاة، والله تعالى يخاطبه فيقول: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.[3]

ورسالته تستهدف عموم الإنس والجن، منذ بعثته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيقول سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}.[4]

والله تعالى بشر المحسن بالحسنى، والمسيء بالسوء، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}.[5]

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

2- الإسراء: 105.

3- الأنبياء: 107.

4- سبأ: 28.

5- غافر: 40.

وقد زفَّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، للناس بشائر الخير، فحدثهم عن الجنة ونعيمها، وأنها مأوى من اهتدى، وعمل بما الله ارتضى، ومما ورد في القرآن الكريم منها، قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.[1]

ومنها ما نص عليه قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.[2]

ولم يقتصر التبشير بالخير على ما ورد في القرآن الكريم، بل حدَّث الرسول، صلى الله عليه وسلم، في سنته عن ذلك، ومما ورد بشأن بشائر الأمن والنصر والتمكين للمؤمنين في الدنيا، ما روي عن خَبَّابِ بن الأَرَتِّ، قال: (شَكَوْنَا إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟ ألا تَدْعُو اللَّهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا اللَّهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).[3]

ومن أحاديث البشائر ما ورد من بشرى لصالح المؤمنين بخير الآخرة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (قال الله تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي

1- البقرة: 62.

2- النحل: 97.

3- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة.

الصَّالِحِينَ؛ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إن شِئْتُمْ {فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[1]).[2]

وفي مقابل التبشير بالخير، فقد أنذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، الخلق عاقبة الكفر والضلال، حيث ضنك العيش، وسعير النار، يقول تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}.[3]

ومن أبرز النذير الذي جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم، عن ربه في القرآن الكريم، ما ورد في النذير من هول الجحيم، المتمثل في نار جهنم؛ مآل الظالمين المستكبرين؛ الذين أعرضوا عن ذكر الله، فسوف تتلقاهم جهنم بزفيرها وشهيقها، وتتلقفهم بالتأنيب والتقريع، حيث لم يستجيبوا للنذير، مصداقاً لقوله تعالى في وصف بعض أحوالها: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}.[4]

وورد النذير من النار في سنة خاتم المرسلين، صلى الله عليه وسلم، ففي الحديث الصحيح يقول صلى الله عليه وسلم: (وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ من النَّارِ مَرَّتَيْنِ أو ثَلاثًا).[5]

وحذر صلى الله عليه وسلم العرب من الخَبَث، ومن شر يأجوج ومأجوج، فعن زَيْنَبَ بنت جَحْشٍ، رضي الله عَنْهَا: (أَنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فَزِعًا يقول: لا إِلَهَ إلا الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ من شَرٍّ قد اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ من رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

1- السجدة: 17.

2- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

3- طه: 124.

4- الملك: 8.

5- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم.

مِثْلُ هذه؛ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قالت زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قال: نعم، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ).[1]

فهكذا جاء صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً، داعياً إلى الله على بصيرة، فمن اهتدى فلنفسه، ومن أساء فعليها، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ}.[2]

وهو الشاهد البشير النذير، في ضوء ما كلفه رب العالمين، حيث قال سبحانه: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً}[3]، ونحن معه وعلى دربه من الشاهدين، عملاً بقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...}.[4]

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.[5]

وعلى الرغم من تبليغ الرسول، صلى الله عليه وسلم، الإنذارات والبشائر الغيبية للخلق، فإنه لم يتعد حدوده، ولم يتجاوز مقام النبوة إلى مقام الألوهية بحال من الأحوال، وإنما بلغ العالمين أنه ليس إلا بشراً رسولاً، مصداقاً لما ورد في القرآن الكريم: {...قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً}.[6]

1- صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج.
2- فصلت: 46.
3- الفتح: 8.
4- البقرة: 143.
5- النحل: 89.
6- الإسراء: 93.

ويوم أحد حين تخضب وجهه بالدم، قال: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟! فأنزل الله قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}[1])[2].

كيف لا؟ وهو الذي يبلغ عن الله قوله تعالى: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[3].

ويبلغ غير ذلك من آيات الله القرآنية الكثيرة التي تفصح عن حدودٍ ينبغي أن يستوعبها الأتباع من بعده، فيقول تعالى: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً}[4].

فالرسول يبلغ، وعلى الناس الطاعة والاستجابة، والأمر أولاً وأخيراً يبقى لله الواحد القهار، وهو القائل سبحانه: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً}[5].

ويقول تعالى: {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ}[6].

فإذا كانت هذه حدود للنبي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، فمن باب أولى أن لا يتجاوزها الخلق، وهم يتعاملون مع عظماء البشر، وينعتون رموزهم وقادتهم، فهم وإياهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، والكل سيأتي الرحمن للحساب فرداً، مصداقاً لوعيد

1- آل عمران:128.

2- أنظر: سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، وصححه الألباني.

3- الأعراف: 188.

4- النساء: 79.

5- النساء: 80.

6- الأحقاف: 9.

الله الوارد في قوله تعالى: {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً}[1]، وقوله تعالى: {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً}.[2]

فأمر الضلال والهدى بيد علام الغيوب، ولن يجد الضالون مناصاً من العذاب العظيم، والله تعالى يقول: {وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ}.[3]

جعلنا الله ممن ربحوا البيع، وفازوا بالبشرى والرحمة والهدى، وعلى درب محمد، صلى الله عليه وسلم، نسير، عملاً بقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}.[4]

ونحن سنبقى - بإذن الله - مع من قال الله فيهم: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}.[5]

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، يوم مولده، ويوم بعثته، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، وعلى آله الطاهرين، وزوجاته أمهات المؤمنين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- مريم: 95.

2- مريم: 80.

3- الشورى: 44.

4- الأحزاب: 21.

5- الحج: 78.

ورد في صحيح البخاري، بَاب هِجْرَةِ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَأَصْحَابِهِ إلى الْمَدِينَةِ، وقال عبد اللَّهُ بن زَيْدٍ وأبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم: (لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً من الأَنْصَارِ).[1]

يشير الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف إلى عمق تقديره للأنصار، الذين أخذوا على عواتقهم مسؤولية حمل الدعوة الإسلامية والدفاع عن حياضها، والذود عن حاملها، منذ أن عاهدوه، صلى الله عليه وسلم، في بيعة العقبة على أن يحموه مما يحمون به نساءهم وأبناءهم، ففي الحديث أنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تَكَلَّمَ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ؛ إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا، حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَإِنَّا قَدْ مَنَعْنَاهُ مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ مَمْنُوعٌ، فَتَكَلَّمَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَقَالَ: بَايِعْنَا، قَالَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، قَالَ: نَعَمْ؛ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ أَهْلُ الْحَرْبِ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ).[2]

وانبثق عن هذه البيعة الشروع بالهجرة إلى معقل الأنصار، الذين فرحوا أشد الفرح بقدوم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحبه المهاجرين إليهم، فصدقوهم العهد، وقاسموهم العيش، وتضافرت جهودهم على حمل الإسلام دعوة نور وهداية للعالمين، حتى حقق الله له الانتشار الواسع والخالد في ربوع الدنيا.

1- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار).

2- صحيح ابن حبان، كتاب إخباره، صلى الله عليه وسلم، عن مناقب الصحابة.

الثناء القرآني على المهاجرين والأنصار

لقد نزل في المهاجرين والأنصار الثناء تلو الثناء في القرآن الكريم، الموحى به من لدن رب العالمين، الذي أنعم عليهم برضوانه، فقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.[1]

وتفضل سبحانه على المهاجرين والأنصار بالتوبة والمغفرة، وتلكم - ورب العزة - أسمى المنى، وأربح البيع، فقال تعالى: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}.[2]

وبشر سبحانه الأنصار بالفلاح، على ما قدموه لإخوانهم المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.[3]

فهذا مقام الأنصار عند ربهم، مقام يعتزون به، ويفتح لهم أفاق الخير والفخار في دنياهم وآخرتهم، ومثلهم المهاجرون الذين آثروا حب ربهم ودينهم ورسولهم على المال والعشيرة والولد، فربحوا البيع، ورب الكعبة، حيث وصفهم الله تعالى بالصدق، على ما بذلوا من تضحيات في سبيل رفع راية إسلامهم، والصبر على تشريدهم من ديارهم، وما وجدوا من أذى وابتلاء بسبب إصرارهم على حملة دعوة لا إله إلا الله، ونصرتهم حاملها،

1- التوبة: 100.

2- التوبة: 117.

3- الحشر: 9.

صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى:{لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}.[1]

تعبير الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن مكانة المهاجرين والأنصار لديه

من الصور المعبرة عن مكانة المهاجرين والأنصار لدى الرسول، صلى الله عليه وسلم، حرصه الشديد على مصالحهم بدعائه لهم بالمغفرة والرضوان، فعن حُمَيْدٍ قال: سمعت أَنَسًا، رضي الله عنه، يقول: (خَرَجَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى الْخَنْدَقِ، فإذا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ في غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فلم يَكُنْ لهم عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذلك لهم، فلما رَأَى ما بِهِمْ من النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قال: اللهم إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخرة، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمهاجرة، فَقَالُوا مُجِيبِينَ له: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا على الْجِهَادِ ما بَقِينَا أَبَداً).[2]

ومن الحوادث الدالة على العلاقة الوطيدة التي كانت بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، وجماعة الأنصار، تلك الحادثة التي وقعت في أعقاب توزيع الرسول، صلى الله عليه وسلم، لغنائم هوازن، فقد كشف النقاش الذي دار بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، وبين الأنصار في ختام تلك الحادثة عن عمق تقدير الرسول، صلى الله عليه وسلم، للأنصار من جانب، ومدى حبه لهم، وبدا من الجانب الآخر شدة ودهم له، وتقديرهم لأهمية حظوتهم عنده، حيث بدأ، صلى الله عليه وسلم، بإعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم، وأعطى قبائل العرب ما أعطاهم دون الأنصار، فَدَخَلَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي

1- الحشر: 8.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال.

أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟ قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ، فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؛ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الْمَنُّ وَالفضلُ. قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقنا).(1)

1- مسند أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

المكانة الريادية للمهاجرين والأنصار في الإسلام

بالمزيج المجتمعي الذي تكوّن من طيفي المهاجرين وإخوانهم الأنصار، تشكّل المجتمع الإسلامي الأول، الذي تبنى الإيمان بمبادئ الإسلام، والعمل بمنهجه، وفق ما أوردت الآيات القرآنية التي كانت تتنزل على قلب رسولهم وقائد مسيرتهم، صلى الله عليه وسلم، حيث شكلت أقواله وأعماله نبراساً لهم، كانوا يحرصون أشد الحرص على اقتفائها والأخذ بها، فصلوا كما رأوه يصلي، عليه الصلاة والسلام، وحجوا كما حج، وصاموا كما صام، فكانت أعمالهم خير ترجمة لما جاء به، صلى الله عليه وسلم، حيث بلّغوا ما سمعوا من أقواله، وما علموا من تعاليمه، وما شهدوا من أعماله، صلى الله عليه وسلم، مستجيبين لأمره صلى الله عليه وسلم، الخاص بالحث على تبليغ مقاله وأفعاله، ففي الحديث عن زَيْدِ ابن ثابِتٍ، قال: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: نَضَّرَ الله امْرَأً سمع مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حتى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى من هو أَفْقَهُ منه، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ ليس بِفَقِيهٍ).[1]

والله تعالى يتوعد الذين لا ينهجون درب تضحية المهاجرين، وإيثار الأنصار لدينهم على أهوائهم، فيقول تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.[2]

أعاذنا الله تعالى من أن نؤثر الدنيا وزينتها على حبه تعالى، وحب رسوله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- سنن أبي داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، وصححه الألباني.

2- التوبة: 24.

الفصل الثالث

عبادات

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
6.	ﷺ يشترط إخلاص النية لله للقبول والمثوبة	32
7.	ﷺ يبين أن أحب الأعمال إلى الله أدومها ولو كان قليلاً	36
8.	ﷺ يبين فضل الصيام ومستلزماته	41
9.	ﷺ يؤدي نوافل العبادات في رمضان ويبين فضلها	49
10.	ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ في رمضان من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ	56
11.	ﷺ هديه في العشر الأواخر وليلة القدر وصدقة الفطر وعيده	63
12.	ﷺ يوصي بأمور تساعد في تحقيق الحج المبرور	70
13.	ﷺ ييسر للحج	75
14.	ﷺ يحثنا على اغتنام مواسم الخير	81
15.	ﷺ في يوم عيد الأضحى	85

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يشترط إخلاص النية لله للقبول والمثوبة

عن عَلْقَمَةَ بن وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ، أنه سمع عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، على الْمِنْبَرِ، قال: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه).[1]

يدور فحوى هذا الحديث الشريف حول النوايا وبواعث الأعمال والأقوال، وفي فتح الباري أن النية تتنوع كما تتنوع الأعمال؛ كمن قصد بعمله وجه الله، أو تحصيل موعوده، أو الاتقاء لوعيده، ووقع في معظم الروايات بإفراد النية، ووجهه أن محل النية القلب، وهو متحد، فناسب إفرادها، بخلاف الأعمال، فإنها متعلقة بالظواهر، وهي متعددة، فناسب جمعها، ولأن النية ترجع إلى الإخلاص، وهو واحد للواحد الذي لا شريك له. وفيه أيضاً: أن هذا التركيب يفيد الحصر عند المحققين.[2]

أهمية حديث إنما الأعمال بالنيات

يحظى هذا الحديث الشريف بأهمية بالغة، ومكانة رفيعة في الإسلام ولدى علماء الأمة، فهو من الأحاديث التي يدور حولها مدار الإسلام، وينسب إلى الإمام أحمد بن حنبل اعتباره هذا الحديث من بين ثلاثة أحاديث تقوم عليها أصول الإسلام، وقدره الشافعي بثلث الإسلام، وقال: إنه يدخل في سبعين باباً من أبواب الفقه[3]. واستشعاراً لأهمية هذا الحديث الشريف، فقد عمد بعض علماء الأمة إلى تصدير بدايات كتبهم ومؤلفاتهم به،

1- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

2- فتح الباري، ج1، ص12.

3- المجموع، 373/1.

كما صنع إمام المحدثين وصاحب أصح كتب الحديث، الإمام البخاري في كتابه الصحيح.

ومن جوانب أهمية هذا الحديث أنه يحدد شرط قبول الأعمال عند الله، فالأعمال مرهونة بالنوايا والمقاصد أولاً.

وقد عنيت الآيات القرآنية الكريمة بالتنبيه على أهمية النوايا في الأعمال والمقاصد في الأقوال، ومما ورد بهذا الشأن في قضية المقاصد العليا للإنسان، قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}.[1]

فهذه الآية الكريمة تشير إلى ما وقع من قبل بعض المسلمين وبين صفوفهم في غزوة أحد، حين واجهتهم المحنة الصعبة، بسبب ما انبثق عن نوايا، الذين خالفوا أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، منطلقين من مقاصدهم الدنيوية، التي طغت على تطلعاتهم للآخرة، فكان ما كان من درس عظيم لهم ومن تبعهم من المسلمين، عسى أن ينتفعوا به، ويستخلصوا منه الدروس والعبر، بتنقية مقاصدهم ونواياهم لله، حتى لا تشوب جهادهم شوائب النكوص على الأعقاب بفعل اختلاف النوايا، والخلل في صدقها.

مفهوم النية

النية تعني في اللغة مطلق القصد، وفي لسان العرب ضمن مادة نوي، أن النِّيَة، مخففة، تعني القصد، والنَّوى الوجهُ الذي تقصده.[2]

وهي في الاصطلاح: الإرادة المتوجهة نحو الفعل، ابتغاء رضا الله عز وجل، وامتثال حكمه، وهي عمل قلبي محض، لا دخل للسان فيه، والتلفظ بها غير مشروع.[3]

1- آل عمران: 152.

2- لسان العرب، ابن منظور، 14/ 394.

3- فقه السنة، السيد سابق، 50/1.

تطبيقات على ربط المثوبة والتوفيق بالنية

ويمثل الحديث الذي بين أيدينا بالهجرة على تحديد المقبول منها للمثوبة، والمحروم، فحين ينطلق المسلم مهاجراً لله وفي سبيل الله، ونصرة للدين، واستجابة لأمر الله ومتطلبات الشرع، فإنه يكون من شريحة المهاجرين الذين وعدهم الله بالدرجات الرفيعة والثواب الجزيل، وأما حين يكون الباعث على الهجرة دوافع ومقاصد خاصة، غير سبيل الله، فتكون وقتها هجرة خداعة، لأنها ترتدي ثوباً ظاهره يوحي بأن صاحبها استجاب لله، ولبى نداء الهجرة إليه سبحانه، لكن الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم البواعث الحقيقية التي دفعت هذا المرء ليهاجر، سواء تعلق هذا الباعث بالرغبة في اللحاق بامرأة يقصد خطبتها، أم بأي شأن آخر من شؤون الدنيا، وبناء على هذا الانحراف في المقصد والنية، فإن أجر الهجرة وثوابها يحرم منه مهاجر المرأة والدنيا.

ومن التطبيقات الأخرى؛ مبدأ اشتراط إخلاص النية لله عند أداء الأعمال أو قول الكلام، في ضوء ما ورد في الأحاديث النبوية الصحيحة، ما ورد بشأن نية القتال في سبيل الله، فعن أبي مُوسَى قال: (جاء رَجُلٌ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ ما الْقِتَالُ في سَبِيلِ اللَّهِ؟ فإن أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إليه رَأْسَهُ – قال: وما رَفَعَ إليه رَأْسَهُ إلا أَنَّهُ كان قَائِمًا – فقال: من قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل).[1]

وفي رواية صحيحة أخرى عنه رضي الله عنه، قال: (جاء رَجُلٌ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ في سَبِيلِ اللَّهِ؟ قال: من قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّهِ).[2]

1- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

وبال التظاهر الكاذب بالنوايا الصالحة

وتعرّض حديث صحيح آخر لوصف مصير الذي يقدم أعمالاً ظاهرها الصلاح والحسن والخير، غير أن الله تعالى لم يقبلها، بل عاقب أصحابها، لتلبسهم بثياب التدليس والخداع، فهم تظاهروا بالصلاح، وتقديم أعمال بدت في ظاهرها حسنة، لكنها لم تنطلق من نوايا مخلصة لله، حيث يفضح الله أصحابها حين يواجههم بحقيقة خداعهم وكذبهم، وهو لا تخفى عليه سبحانه خافية، ويعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال له ناتل أَهْلِ الشَّامِ: (أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: نعم؛ سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إن أَوَّلُ الناس يُقْضَى يوم الْقِيَامَةِ عليه، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قَاتَلْتُ فِيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّك قَاتَلْتَ لِيُقَال: فُلانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِي بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وقَرَأْتُ فِيك الْقُرْآنَ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّك تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَال عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَال قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عليه، وَأَعْطَاهُ من أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا، فقال: ما عَمِلْتَ فيها، قال: ما تَرَكْتُ من سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إلا أَنْفَقْتُ فيها لك، قال كَذَبْتَ، وَلَكِنَّك فَعَلْتَ لِيُقَال هو جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثم أُلْقِيَ في النَّارِ).[1]

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأكرم؛ خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين أن أحب الأعمال إلى الله أدومها ولو كان قليلاً

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (سُئِلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ؟ قال: أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ، وقال: اكْلَفُوا من الأَعْمَالِ ما تُطِيقُونَ)[1]، وتروي رضي الله عنها: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، دخل عليها وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قال: من هذه؟ قالت: فُلانَةُ تَذْكُرُ من صَلاتِهَا، قال: مَهْ عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا، قالت: وكان أَحَبَّ الدِّينِ إليه ما داوم عليه صَاحِبُهُ)[2]، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يرشد المسلمين إلى أحب الأعمال إلى الله، مبيناً أن العمل الدائم، ولو كان قليلاً، أحب إلى الله من الأعمال الأخرى، ولو كانت كثيرة دون مداومة.

حب العمل الدائم دون أن يكلف المرء نفسه بما لا تطيق

يوجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلم إلى أن يختار ما يطيق من الأعمال، من غير أن يرهق نفسه بما لا تطيق، أو تعجز عن القيام به، أو تتراخى عن مواصلة الالتزام بأدائه، ويستنتج الإمام النووي من حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، للعمل الدائم، أنه يدل على الحث على القصد في العبادة، وأنه ينبغي للإنسان أن لا يحتمل من العبادة ما لا يطيق الدوام عليه، ثم لا يحافظ عليه.[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه.

3- صحيح مسلم بشرح النووي، ج6، ص 23.

ووضع الخيار للعابد لتحديد حجم أعماله التي يطيقها بنفسه، إنما يتعلق ذلك بالنوافل والتطوع، وإلا؛ فالفروض مطلوبة من المسلمين بمقاديرها وكيفياتها المحدودة في الشرع، على وجه العموم، ويستثنى من ذلك حالات الضرورة التي تستدعي التخفيف، أو الرخص التي لها دليل يشرعها.

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يلتزم بأداء الفرائض، إلى جانب مواظبته على أداء أعماله التعبدية التطوعية، ولم يكن يأتي كثيراً منها في بعض الأيام، ثم يتراخى عن الأداء فيما عداها، فعن عَلْقَمَةَ، قال: (سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، قال: قلت: يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ كان عَمَلُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟ هل كان يَخُصُّ شيئاً من الأَيَّامِ؟ قالت: لا؛ كان عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ ما كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَسْتَطِيعُ).[1]

وعن مَسْرُوق، قال: (سَأَلْتُ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَيُّ الْعَمَلِ كان أَحَبَّ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم؟ قالت: الدَّائِمُ، قال: قلت: فَأَيَّ حِينٍ كان يَقُومُ؟ قالت: كان يَقُومُ إذا سمع الصَّارِخَ).[2]

والمقصود بقيامه إذا سمع الصارخ، أنه كان يقوم للصلاة عندما يسمع صوت الديك، الذي سمي صارخاً؛ لكثرة صياحه[3]، وإنما كان يصرخ الديك في حدود الثلث الأخير من الليل، ووقت السحر فيه، وهذا يدل على أن قيامه صلى الله عليه وسلم، كان في الثلث الأخير من الليل؛ لأن الديك ما يكثر الصياح إلا في ذلك الوقت، وإنما اختار هذا

1- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.

2- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.

3- صحيح مسلم بشرح النووي، ج6، ص 23.

الوقت؛ لأنه وقت نزول الرحمة، ووقت السكون، وهدوء الأصوات.[1]

من هنا؛ أخذت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، منهجها في الالتزام بالمحافظة على العمل الذي تؤديه، ففي الصحيح (أنها كَانَتْ إذا عَمِلَتْ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ).[2]

فالروايات الصحيحة سالفة الذكر تظهر أن رسولنا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، كان يحب من الأعمال أدومها، ولو كان قليلاً، واقتفى أثره في ذلك أزواجه وصحابته، فكانت عائشة، رضي الله عنها، إذا عَمِلَتْ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ، فقليل دائم خير من كثير منقطع، ومن الاستنتاجات التي خلص إليها ابن حجر العسقلاني في فتح الباري خلال وقوفه عند بعض هذه الروايات، ضرورة الوقوف عند حدود الشرع في مجال العزيمة والرخص، واعتقاد أن الأخذ بالأرفق الموافق للشرع، أولى من الأشق المخالف له، وأن الأولى في العبادة لدى الرسول، صلى الله عليه وسلم، القصد والملازمة، لا المبالغة المفضية إلى الترك.[3]

مواصلة العبادة بعد رمضان

يلاحظ المتابع أن المساجد - والحمد لله - تعج بالمصلين في أيام رمضان ولياليه، حرصاً منهم على أداء الصلاة جماعة، وبخاصة صلاة التراويح، ثم بعد رمضان، تبكي المساجد حالها من قلة مرتاديها، مما يدعو إلى التذكير بأنه إلى جانب الفضل الكبير لقيام رمضان، فإن فضلاً لقيام ليالي العمر الأخرى، وقد بيّن الرسول، صلى الله عليه وسلم، منزلة قيام

1- عمدة القاري، العيني، ج7، ص181-182.

2- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

3- فتح الباري، ابن حجر، ج1، ص71.

الليل بالدعاء والصلاة والذكر، ففي ثلث الليل الأخير من كل ليلة، وليس من ليالي رمضان فحسب، ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ليجيب دعاء السائلين، واستغفار المنيبين، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حين يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يقول: من يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ له، من يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، من يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ له).[1]

وفي سياق الحث على مداومة قيام الليل لمن اعتاده، يروي عبد اللَّهِ بن عَمْرِو ابن الْعَاصِ، رضي الله عنهما، فيقول: (قال لي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: يا عَبْدَ اللَّهِ؛ لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ، كان يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ).[2]

فالقرآن الكريم والرسول، صلى الله عليه وسلم، يظهران مما سبق اهتمامهما بدوام المحافظة على أداء الأعمال الصالحة، حتى يدوم خيرها ونفعها للعامل العابد، وفي هذا درس كبير للذين يعبدون الله صلاة، وصياماً، وقياماً، وذكراً، ودعاء، وتلاوة للقرآن الكريم، ودفعاً للصدقات خلال أيام شهر رمضان ولياليه، فإذا ما انتهى شهر الصيام بالعيد، عادوا إلى الكسل والخمول، والإهمال في أداء العبادة، وفتر حرصهم على الصلاة جماعة، وعلى ارتياد المساجد، بل إن بعضهم ينقطع عن أداء الصلاة، ولا يعود بعضهم يحمل المصحف طيلة الأيام والأسابيع والشهور، مشابهين الذين نعى الرسول، صلى الله عليه وسلم، حالهم إلى

1- صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل.

2- صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه.

ربه، بسبب موقفهم السلبي من الإيمان بالقرآن والعمل به، فيقول تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً}.[1]

فكم كان جميلاً بالذي حرص على عبادة الله في رمضان، أن ينطلق من هذا التوجه الإيجابي إلى مواصلة مشوار الطاعة والعبادة لله في الأيام التالية، حتى يقضي عمره المتبقي في ظلال طاعة الله وعبادته، عملاً بمقتضى الأمر الإلهي للمؤمنين أن لا يموتوا إلا مسلمين، فقال تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[2]، ولا تتحقق هذه الوصية إلا إذا حرص الشخص على عبادة الله وطاعته في كل أحواله وأزمانه، حتى يتوافق موته حين تكون نهاية أجله مع حاله المرضي لله سبحانه، والذي ينبثق من التقيد بتعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه وأحكامه، وهذا يعني المداومة على الطاعة والعبادة، ويتنافى مع الانقطاع عنها، وبتر الصلة بها، إلا في بعض الأيام والأوقات، وفي هذا دعوة للذين يسلكون هذا السبيل المعوج إلى أن يراجعوا حساباتهم، وأن يُقوّموا مسارهم، فيلتزموا بطاعة الله في كل أحوالهم وظروفهم، في سرائهم وضرائهم، في عسرهم ويسرهم، في رمضان وشوال وغيرهما من شهور العام وأيامه ولياليه.

وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وصحبه الكرام، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الفرقان: 30.

2- البقرة: 132.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبين فضل الصيام ومستلزماته

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما من عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا في سَبِيلِ اللَّهِ، إلا بَاعَدَ الله بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عن النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا)[1]، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يبين في هذا الحديث الشريف بعض فضل الصيام على الصائم، فهو من دواعي النجاة من النار، التي أعدها الله لمن انحرف عن جادة الحق، وزاغ إلى الضلال، وهي تميزت بخصائص تجعل من ينقذه الله منها قد نال جائزة عظيمة، ومقاماً كريماً، وجعل الله الصيام مسبباً مهماً للنجاة منها، إلى جانب خيرات أخرى خص الله بها شهر الصيام، ففيه تفتح أبواب الجنة والسماء، وتغلق أبواب جهنم، وتصفد الشياطين، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا جاء رَمَضَانُ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ)[2]، وعنه، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل شَهْرُ رَمَضَانَ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ).[3]

أهلاً ومرحباً بشهر الخيرات

يستقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قدوم شهر رمضان عليهم بعد يوم أو اثنين من الآن، ذاك الشهر الذي أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، أعاذنا الله وكل المؤمنين من سعيرها، وشر دخولها، وشهر رمضان فيه من نفحات الخير ما لا تخفى على أحد، ولا تعد ولا تحصى، فحري بالمؤمنين التعرض لتلك النفحات، وبذل جهودهم

1- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام لمن يطيقه بلا ضرر ولا تفويت حق.
2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان.
3- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان.

في تحصيل أكبر قدر ممكن منها، قدوتهم في ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي كان يحرص على فعل الخير في كل أوقاته، غير أنه كان أشد حرصاً على تقديم المزيد منه في رمضان، فعن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد اللَّهِ بن عُتْبَةَ، أَنَّ ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدَ الناس بِالْخَيْرِ، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان جِبْرِيلُ، عليه السَّلام، يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ في رَمَضَانَ حتى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، الْقُرْآنَ، فإذا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، عليه السَّلام، كان أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).[1]

عتق رقاب الصائمين من النار

لشهر رمضان خصوصية تميزه عن بقية شهور العام، يمسك المسلم في نهاره عن المفطرات، طاعة لله، فلا يأكل، ولا يشرب، من بزوغ الفجر حتى مغيب الشمس، فإذا ما غابت، يتناول إفطاره، ومن ثم ينطلق لأداء صلواته المفروضة، ثم يتبعها بصلاة القيام التي حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أدائها في ليالي رمضان، فإذا ما أخلص المسلم فيها، فإن الله يعتق رقبته من النار، فعن أبي هُرَيْرَةَ، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[2]

وما أكثر ذنوب الناس وأخطائهم، فهم بطبيعتهم أهل لذلك، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول، اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لو لم تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لهم).[3]

غير أن الله سبحانه بشرهم برحمته وتوبته عليهم، فقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يكون في رمضان.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.

3- صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[1]، فالله سبحانه وتعالى يفتح الآفاق واسعة لمن يخطئ من خلقه؛ كي يعود إلى صوابه ورشده، بعد أن تلبس بالذنوب والمعاصي، مهما بلغ حجمها، ففي الحديث القدسي، عن أبي ذرٍّ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيمَا رَوَى عن اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَال: (...يا عِبَادِي؛ إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً، فاستغفروني، أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي؛ إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي، إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي؛ إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك، فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ).[2]

لا يأس ولا قنوط من رحمة الله

لا يأس ولا قنوط أمام رحمة الله الواسعة بعباده، وقبوله المفتوح لتوبتهم وإنابتهم إليه سبحانه، ويشكل شهر رمضان فرصة ذهبية للتوجه بالتوبة النصوح إلى الله، على أمل أن يتجاوز الله عن الخطايا، ويكفر الذنوب، ويرفع الدرجات، ويدخل عبده التائب المنيب جنة تجري من تحتها الأنهار، مصداقاً لوعده سبحانه، حيث قال تعالى في محكم التنزيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[3]،

1- الزمر: 53.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

3- التحريم: 8

وإلى جانب هذا الوعد الرباني لعموم التائبين، فإن للصائمين الصادقين المحتسبين وعوداً تحفيزية أخرى، تشجعهم على انتهاز حلول شهر الصيام؛ ليتقربوا إلى الله فيه بخالص الإنابة، وحسن العبادة، المتمثلة في صيام نهاره، وقيام ليله، وتلاوة القرآن، وتقديم الصدقات والعون إلى المحتاجين، تماشياً مع ما حفَّ الله به هذا الشهر المبارك من خصائص، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إذا كانَ أوَّلُ ليلَةٍ مِنْ شهر رَمَضَانَ، صُفِّدَتِ الشَّيَاطِيْنُ ومَرَدَةُ الجنِّ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النَّار، فلم يُفْتَحْ منها بَابٌ، وفُتِحَتْ أبْوابُ الجِنَان، فلم يُغْلَقْ منها باب، ونادَى مُنَادٍ: يا باغِيَ الخَيرِ أقبل، ويا باغِيَ الشرِّ أقْصِرْ، ولله عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ).[1]

إكرام الصائمين بباب الريان

إن مما خص الله به الصائمين، أنه سبحانه جعل لهم باباً في الجنة يدخلونها منه، فعن سَهْلٍ، رضي الله عنه، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: إنَّ في الْجَنَّةِ بَابًا، يُقَالُ له الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يوم الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيقُومُونَ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فإذا دَخَلُوا، أُغْلِقَ، فلم يَدْخُلْ منه أَحَدٌ)[2]، وهذا التميز من أروع المقامات التي ينزلها عباد الله الصائمين، وهو تميز في الجوهر والمظهر، في الشكل والمضمون، وكم من الناس من يبتهج في الدنيا حين يكرم بحسن المقام، وتخصيص المكانة والمسار، فتراه يشعر بالنشوة والسرور؛ لأن الناس حفظوا له مكانته ومنزلته، وقدروا مقامه، وفي كثير من الأحيان ما تنتهي مثل تلك النشوة في مهدها؛ لأنها تتعلق بشيء آني، لا يلبث أن تزول آثاره بزوال المناسبة والظرف، بخلاف اختصاص المتنعم بمنازل الآخرة، فهي تتعلق بحقيقة وبقاء واستمرار، وبآثار ملموسة، ومع أن لكل صنف من أصحاب الطاعات والقرب ما يميزهم ويخصهم من أبواب الجنة، لكن باب الصائمين سمي باسم

1- سنن الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، وصححه الألباني.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.

خاص، تميزوا به عن الآخرين في المسمى والمضمون، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: من أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ من أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يا عَبْدَ اللَّهِ؛ هذا خَيْرٌ، فَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ من بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ من بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ من بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ من بَابِ الصَّدَقَةِ، فقال أبو بَكْرٍ، رضي الله عنه: بِأَبِي وَأُمِّي يا رَسُولَ اللَّهِ، ما على من دُعِيَ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ من ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قال: نعم؛ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ منهم).[1]

من مستلزمات المحافظة على أجر الصيام

إن الصيام الذي له هذه المنزلة والمكانة، ويتمتع بهذا الفضل العظيم، له مستلزمات ينبغي أن يراعيها الصائم، ويأخذها بعين الاعتبار، فالصيام وقاية من النار وموجباتها، وحتى يحظى الصائم بثماره، وينال فضله وثوابه، ينبغي أن لا يغفل عن مستلزماته واستحقاقاته، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: الصِّيَامُ جُنَّةٌ؛ فلا يَرْفُثْ، ولا يَجْهَلْ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ، أو شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إني صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ من أَجْلِي، الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثالها).[2]

ويحذرنا الرسول، صلى الله عليه وسلم، أشد التحذير من الانزلاق في مسببات ضياع أجر الصيام وثوابه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[3]، فليس الإمساك عن الطعام والشراب هدفاً لذاته، وإنما هو من صور الطاعة التي يتقرب

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.

2- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.

3- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.

بها العبد إلى ربه خشية لله، وابتغاء مرضاته سبحانه، والمهم في هذا الإمساك أن يقصد به الاحتساب المطلق عند الله سبحانه، حتى يكون وقاية حقيقية من النار ومسببات استحقاقها، فإذا أدى الصائم حق الله في صيامه وقيامه، استحق الجنة، والنجاة من النار، مصداقاً لوعده، صلى الله عليه وسلم، المتضمن في رواية أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[1]

الصبر على شدة الحر والعطش في رمضان

حري بالمسلم أن يتهيأ لاستقبال هذا الشهر المبارك بهمة عالية، ونفس راضية، دون أن يسمح لشيء من متعلقات الدنيا بالتشويش على وتيرة شوقه إليه، واستعداده للمضي في عبادته فيه، فقد يحسب بعض الناس لحالة الطقس الحارة المنتظرة في فصل الصيف الذي يحل في أجوائه شهر الصيام هذا العام، فتجدهم يتأففون ويتضجرون قبل حلول الشهر، وقبل معاركة الصعاب والمشاق، بخلاف المؤمن المحتسب الذي يروض نفسه على أداء الطاعة حباً بها، ورغبة واحتساباً لله سبحانه، طالباً عونه تعالى، فحاله ومقاله يقولان: اللهم أعنا على شكرك، وذكرك، وحسن عبادتك، وفي فاتحة القرآن الكريم آية نرددها في كل ركعة من صلاتنا، نتبع التوجه إلى الله بالعبادة بطلب عونه سبحانه، فقال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[2]، وذلك على خلاف حال المنافقين الذين يتخلقون الأعذار، أو يتذرعون بالظروف للتخلف عن أداء الواجب والطاعة المطلوبة لله سبحانه، ومما ذكره القرآن الكريم عن مواقفهم بهذا الصدد، قوله تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.

2- الفاتحة: 5.

الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}[1]، وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَاراً}.[2]

غير أن حال المؤمن ومواقفه يختلفان عن حال المنافق ومواقفه، فإذا كان المنافق يتحرى سبيل الأعذار للهروب من أداء الواجب، فإن المؤمن يحول دون أن تخطف الظروف والصعاب منه الابتهاج بمواسم الطاعة، وهو يرجو الله، ويسأله العون والتوفيق والتيسير، وإذا وجد الأيسر من السبل، قدمه على الأشق والأصعب، قدوته الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (ما خُيِّرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بين أَمْرَيْنِ، إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، ما لم يَكُنْ إِثْماً، فَإِنْ كان إِثْماً، كان أَبْعَدَ الناس منه ...)[3]، بل كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يأمر بالتيسير، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا).[4]

غير أنه إذا وجدت المشقة، ولم يكن أمام المسلم مفر من ولوج غمارها لأداء طاعة، أو القيام بواجب، فهنا يكون الإقدام في إطار المقدور والمستطاع، فما جعل الله علينا في الدين من حرج، فإن واجهتنا الصعاب التي يمكن أن نخوض غمارها خلال أدائنا الواجب، فلنا بإذن الله الثواب المضاعف، فالأجر على قدر المشقة، وجاء صحيح البخاري، تحت بَاب (أَجْرِ الْعُمْرَةِ على قَدْرِ النَّصَبِ)، أن عَائِشَةُ، رضي الله عنها، قالت: (يا رَسُولَ اللَّهِ؛ يَصْدُرُ الناس بِنُسُكَيْنِ، وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ، فَقِيلَ لها: انْتَظِرِي، فإذا طَهُرْتِ، فَاخْرُجِي إلى التَّنْعِيمِ فَأَهِلِّي، ثُمَّ ائْتِينَا بِمَكَانِ كَذَا، وَلَكِنَّهَا على قَدْرِ نَفَقَتِكِ أو نَصَبِكِ)[5]، فليستبشر الذين

1- التوبة: 81.

2- الأحزاب: 13.

3- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم.

4- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

5- صحيح البخاري، كتاب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب.

يتأهبون لصيام شهر رمضان الوافد علينا؛ لأن الله سيجزيهم عن معاناة قسوة الحر، والعطش إلى الماء، خير الجزاء، إن صبروا، ولم يتأففوا، ولم يتضجروا، فهم بذلك من الصابرين، الذين قال الله تعالى فيهم: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}.[1]

وإذا ما أضيف إلى العلم بأجر الصابرين، العلم الآخر الخاص بمنزلة حر الدنيا من حر جهنم، حيث يقول تعالى: {...قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}[2]، فإن المؤمن الذي يتيسر له الاعتقاد بهذين العِلْمَيْنِ، مع اليقين بجزاء الصائمين في الجنة، والمباعدة بينهم وبين النار، فإنه يستسهل الصعاب على قسوتها، ويقدم على طاعة الله فيه، حباً وقناعةً وحرصاً، وكثير من المؤمنين من يكون هذا حالهم، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، أعاننا الله لنكون من فئتهم، وممن يطيعون الله على دربهم ومنوالهم، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين، وقدوة الخلق الصالحين، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- الزمر: 10.

2- التوبة: 81.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يؤدي نوافل العبادات في رمضان ويبين فضلها

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إليّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).[1]

يشير هذا الحديث الشريف إلى منزلة التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، فالفرائض تحتل مكانة الصدارة في القربات التي يؤديها العبد طاعة لله، فصوم رمضان فرض، وأداء الصلوات الخمس في أوقاتها اليومية فرض، وأداء المقدار المحدد من المال في الزكاة فرض، والحج مرة في العمر فرض، فتلك طاعات فرضها الله على عباده، في إطار أركان محدودة، وشروط معينة، وهي في أصلها من أركان الإسلام الخمسة، ولها أهميتها في الإسلام، ووعد الله الذين يؤدونها بخير الجزاء يوم القيامة.

مفهوم نوافل العبادة وفضلها والحث عليها

إن ما زاد على الفرائض من الأعمال التعبدية المشروعة، يندرج ضمن باب التطوع، الذي أثنى الله على أصحابه، فقال سبحانه في متطوعي الصلاة الليلية: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ* كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ

1- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ* وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ* وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}[1]، فالمتقون هم المحسنون، الذين قليلاً من الليل ما يهجعون، ويكثرون من الاستغفار وقت السحر، ويقدمون الصدقات الواجبة والتطوعية للسائل والمحروم، لهم جنات وعيون ومقام عند ربهم كريم.

وحث الله على التطوع بأداء صلاة الليل، فقال سبحانه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً}[2]. فقوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ} يشمل صلاتي المغرب والعشاء، وقوله: {وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً} يشمل صلاة التطوع في الليل، التي وردت الإشارة إلى بعضها في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[3]، فالخطاب في هذه الآية الكريمة للرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، ويشمل مضمونه المتعبدين من المؤمنين الذين يعتنون بقيام الليل صلاةً وتعبداً، وذكراً لله، وتلاوةً للقرآن الكريم.

فالقائمون الذاكرون في ليالي شهر رمضان المبارك خاصة، يعدهم الله بخير الثواب وأجزله، ويشمل هذا تكفير ذنوبهم السابقة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: من قام رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ لَه ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[4]

1- الذاريات: 15-19.

2- الإنسان: 26.

3- المزمل: 20.

4- صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان.

أداء النوافل في البيوت

الأصل في صلاة النافلة أن تؤدى في البيوت، لما رواه نافع عن ابن عُمَرَ، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: اجْعَلُوا في بُيُوتِكُمْ من صَلاتِكُمْ، ولا تَتَّخِذُوهَا قُبُوراً).[1]

وعن زَيْدِ بن ثَابِتٍ، رضي الله عنه، قال: (احتجر رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حُجَيْرَةً مُخَصَّفَةً أو حَصِيرًا، فَخَرَجَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يُصَلِّي فيها، فَتَتَبَّعَ إليه رِجَالٌ، وجاؤوا يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، ثُمَّ جاؤوا لَيْلَةً، فَحَضَرُوا، وَأَبْطَأَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عَنْهُمْ، فلم يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ، وَحَصَبُوا الْبَابَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مُغْضَبًا، فقال لهم رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ما زَالَ بِكُمْ صَنِيعُكُمْ، حتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُكْتَبُ عَلَيْكُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ في بُيُوتِكُمْ، فإن خَيْرَ صَلَاةِ الْمَرْءِ في بَيْتِهِ، إلا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ).[2]

ويحث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أداء صلاة النافلة في البيوت، فعن جَابِرٍ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: إذا قَضَى أحدكم الصَّلَاةَ في مَسْجِدِهِ، فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيباً من صَلَاتِهِ، فإن اللَّهَ جَاعِلٌ في بَيْتِهِ من صَلَاتِهِ خَيْرًا).[3]

وتؤدى صلاة النافلة فردية، إلا في حالات معينة، فيفضل أن تؤدى جماعة في المساجد، مثل صلاة التراويح، التي يؤديها المسلم في ليالي شهر رمضان المبارك، يبدأ بها بعد أداء صلاة العشاء في الليلة التي يثبت فيها رؤية هلال شهر رمضان، ويكف عن أدائها بعد ثبوت هلال شهر شوال.

1- صحيح البخاري، كتاب التطوع، باب التطوع في البيت.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله.

3- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد.

وصلاة التطوع، يصلى بعضها جماعة، كصلاة الكسوف، والاستسقاء، وقيام رمضان، ومنها ما يصلى فردياً دون جماعة، مثل السنن الراتبة، التي تصلى قبل الصلوات المفروضة أو بعدها، وصلاة الضحى، وتحية المسجد، وذلك في ضوء ما ورد في السنة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وما فعله الصحابة الكرام من بعده، رضي الله عنهم.

كيفية أداء قيام رمضان وفضله

ثبت في الروايات الصحيحة أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أدّى صلاة القيام في المسجد، لكنه بعد ثلاث ليالٍ لم يخرج إلى المسجد لأدائها، بعد أن كثر الخارجون من المسلمين لأدائها معه فيه، وعلل سبب تركه الخروج بخوفه من أن تفرض على المسلمين، وهي في حقيقتها نافلة، تؤدى على سبيل التطوع، وليس الإلزام، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَخْبَرَتْ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ لَيْلَةً من جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى في المَسْجِدِ، وَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلاتِهِ، فَأَصْبَحَ الناس، فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ منهم فَصَلَّى، فَصَلَّوْا معه، فَأَصْبَحَ الناس، فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ المَسْجِدِ من اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَصَلَّى، فَصَلَّوْا بِصَلاتِهِ، فلما كانت اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ، عَجَزَ المَسْجِدُ عن أَهْلِهِ، حتى خَرَجَ لِصَلاةِ الصُّبْحِ، فلما قَضَى الْفَجْرَ، أَقْبَلَ على الناس فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قال، أَمَّا بَعْدُ؛ فإنه لم يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تفرض عَلَيْكُمْ، فَتَعْجِزُوا عنها، فَتُوُفِّيَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَالأَمْرُ على ذلك).[1]

وقد سار الصحابة وأئمتهم على نهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الاهتمام بصلاة قيام ليالي رمضان، فعن عبد الرحمن بن عَبْدٍ القاريّ أَنَّهُ قال: (خَرَجْتُ مع عُمَرَ ابن

1- صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان.

الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ إلى المَسْجِدِ، فإذا النـاس أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُـونَ، يُـصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ، فَيُصَلِّي بِصَلاتِهِ الرَّهْطُ، فقال: عُمَرُ؛ إني أَرَى لـو جَمَعْـتُ هَؤُلاءِ على قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ، ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ على أُبَيِّ بن كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ معه لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاةِ قَارِئِهِمْ، قال عُمَرُ: نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه، وَالَّتِي يَنَامُونَ عنها أَفْضَلُ من التي يَقُومُونَ، يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وكان الناس يَقُومُونَ أَوَّلَهُ).[1]

وورد في رواية صحيح مسلم تحديد زمن هذا الأداء، فهو في شهر رمضان، فعن عَائِـشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، صلى في المَسْجِدِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَـصَلَّى بِصَلاتِهِ نَاسٌ، ثُمَّ صلى من القَابِلَـةِ، فَكَثُـرَ النـاس، ثُـمَّ اجْتَمَعُـوا مـن اللَّيْلَـةِ الثَّالِثَـةِ أو الرَّابِعَةِ، فلم يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فلما أَصْبَحَ قـال: قـد رأيـت الذي صَنَعْتُمْ، فلم يَمْنَعْنِي من الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ، إلا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْـرَضَ عَلَـيْكُمْ، قـال: وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ)[2]، ووضحت السنة النبوية الصحيحة طريقة الرسول، صـلى الله عليـه وسلم، في أداء صلاة القيام في رمضان، فعن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن، أَنَّهُ سَـأَلَ عَائِـشَةَ، رضي الله عنها: (كَيْفَ كانت صَلاةُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فِي رَمَضَانَ؟ فقالت: ما كان يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ ولا فِي غَيْرِهِ على إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبعاً، فـلا تَـسَلْ عـن حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعاً، فلا تَسَلْ عن حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلاثـاً، فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَتَنَامُ قبل أَنْ تُوتِرَ؟ قال: يا عَائِشَةُ؛ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، ولا يَنَامُ قَلْبِي).[3]

1- صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان.

2- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح.

3- صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان.

ويستنبط من هذا الحديث الشريف، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يصلي القيام في رمضان وغيره، ثماني ركعات، أربعاً أربعاً، يتميزن بالطول والحسن، ثم يصلي الوتر ثلاثاً، وكان لا يزيد على إحدى عَشْرَةَ رَكْعَةً، تشمل ركعات القيام والوتر، مع التنبيه إلى ورود روايات أخرى تذكر أعداداً تزيد على هذه، مما يدل على مشروعية ذلك كله، والله تعالى أعلم.

الاعتدال في أداء النوافل

يجدر التنبيه في هذا المقام إلى ضرورة الاعتدال في أداء النوافل، فالإفراط فيها عن الحدود التي فعلها الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد يصل إلى مستوى الرفض النبوي، الذي ظهر جليّاً في رده صلى الله عليه وسلم، على المبالغين في الطاعة، كما ورد في حديث أَنَسَ ابن مَالِكٍ، رضي الله عنه: (أنه جاء ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي، صلى الله عليه وسلم؟ قد غُفِرَ الله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا؛ فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً. وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ. وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أَتَزَوَّجُ أَبَداً. فَجَاءَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا والله؛ إني لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي).[1]

ومن الإساءة المذمومة في أداء النوافل أن تشغل صاحبها عن أداء واجباته، كترك السعي في طلب رزق نفسه ومن يعول، وينبغي أن لا يشغلنا الاهتمام بأداء النوافل عن أداء

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

الواجبات الأخرى المطلوبة منا على صعيد المعاش، والأعمال الشرعية الأخرى، التي تتطلب بذل الجهد في سبيلها، ومن خير الشواهد على هذا التوازن ما روي عن عَوْنِ بن أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه، قال: (آخَى النبي، صلى الله عليه وسلم، بين سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شَأْنُكِ؟ قالت: أَخُوكَ أبو الدَّرْدَاءِ، ليس له حَاجَةٌ في الدُّنْيَا، فَجَاءَ أبو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ له طَعَاماً، فقال: كُلْ، قال: فَإِنِّي صَائِمٌ، قال: ما أنا بِآكِلٍ حتى تَأْكُلَ، قال: فَأَكَلَ، فلما كان اللَّيْلُ، ذَهَبَ أبو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قال: نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فقال: نَمْ، فلما كان من آخِرِ اللَّيْلِ، قال سَلْمَانُ: قُمْ الآنَ فَصَلَّيَا، فقال له سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: صَدَقَ سَلْمَانُ).[1]

ومما سبق؛ يظهر فضل أداء نوافل العبادات، وفي الوقت نفسه؛ يظهر أن الإفراط في أدائها عن حد الاعتدال المشروع، يخرجها من حالة الطلب والثناء، إلى حالة النهي والذم، فالتوازن من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية، ويظهر جليّاً في الموقف من أداء نوافل العبادة.

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين، وقدوة الخلق الصالحين، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له.

أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ في رمضان من الرِّيحِ الْمُرْسَلَة

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنه، قال: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدَ الناس، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان يَلْقَاهُ في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).[1]

يصف هذا الحديث الشريف سخاء النبي، صلى الله عليه وسلم، العام، وفي شهر رمضان على وجه الخصوص، فهو الكريم المعطاء، الذي يجود بالخير، ويقدم العون للمحتاج، وإلى جانب دلالة هذا الحديث الشريف على هذا الخُلق الكريم لمن بُعِث متمماً لمكارم الأخلاق، فإنه يدل على أهمية الجود في رمضان، فهو شهر الخير والبركات، ومضاعفة أجر الحسنات، ويشجع هذا الحديث كثيراً من المسلمين على البذل والسخاء في شهر رمضان، وهذا ما يحصل فعلاً؛ فالأسئلة تزداد عن الزكاة ومستحقاتها ومصارفها فيه، والأيدي المعطاءة تُكثر من مد يد العون للفقير والمحتاج طيلة أيامه، فهنيئاً لمن تأسى بأَجْوَدَ الناس صلى الله عليه وسلم، فسارع للجود بِالْخَيْرِ في رمضان، ولم ينقطع عن الجود في غيره من شهور العام وأيامه.

المسارعة المستمرة إلى الجود بالخير

رسولنا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، لم يقتصر كرمه على ما يجود في رمضان، بل كان عليه الصلاة والسلام، يحرص أشد الحرص على البذل والعطاء فيما يتاح له من الظروف

1- صحيح البخاري، كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

والأوقات، فكان من سلوكه صلى الله عليه وسلم، الاهتمام الجاد بالإنفاق، فيقدم ما يجوز من مال للمستحقين، دون تردد ولا تأخير، فعن ابن أبي مُلَيْكَة، أَنَّ عُقْبَةَ بن الْحَارِثِ، رضي الله عنه، حدثه فقال: (صلى بِنَا النبي، صلى الله عليه وسلم، الْعَصْرَ فَأَسْرَعَ، ثُمَّ دخل الْبَيْتَ، فلم يَلْبَثْ أَنْ خرَجَ، فقلت: أو قِيلَ له، فقال: كنت خَلَّفْتُ في الْبَيْتِ تِبْرًا من الصَّدَقَةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَه، فَقَسَمْتُهُ).[1]

منزلة الزكاة والصدقات في الإسلام

ينسجم سلوك الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الجود والسخاء مع توجيهاته الكريمة، التي ذكر فيها أن الزكاة من دعائم الإسلام وأركانه، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: بُنِيَ الإسْلَامُ على خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)[2]، والزكاة ما يدفعه صاحب المال إلى مستحقين حددهم القرآن الكريم، من مال مخصوص وفق شروط مخصوصة، وهي الصدقة المعلومة التي عنيت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة بذكرها وبيان أحكامها، ومما ورد في فضلها وأهميتها قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا... }[3]، فالزكاة طهرة لمال المزكي ونماء، والصدقة تشمل الزكاة، وكل إنفاق في سبيل الله.

ويبين صلى الله عليه وسلم، منزلة الإنفاق في الإسلام، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النبي، صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الإسْلَامِ خَيْرٌ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ على من عَرَفْتَ، وَمَنْ لم تَعْرِفْ).[4]

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب من أحب تعجيل الصدقة من يومها.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.

3- التوبة: 103.

4- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام.

تشبيه المنفق والبخيل

يشبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، كلاً من المنفق والبخيل بشبه يناسب صاحبه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ من حَدِيدٍ من ثُدِيِّهِمَا إلى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ؛ فَلا يُنْفِقُ إلا سَبَغَتْ أو وَفَرَتْ على جِلْدِهِ حتى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ؛ فَلا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شيئاً، إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا، وَلا تَتَّسِعُ)[1]، والله سبحانه شبه النفقة في سبيل الله بمثل الحبة التي ينمو خيرها، ويعم عطاؤها، فتنبت السنابل، التي تثمر، لتحمل مئات الحب، فيقول تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.[2]

ويشبهها كذلك ببستان في مكان مستوٍ ومرتفع، نزل عليه مطر غزير من السماء، فنبت فيه الثمر مضاعفاً عن غيره من البساتين التي لم ينفق أصحابها في سبيل الله، فيقول تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[3]، بخلاف الذين يبخلون، فإذا ما أنفقوا، فإنهم يبطلون أجر نفقاتهم بالمن والأذى، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل.

2- البقرة: 261.

3- البقرة: 265.

صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[1]، فالله تعالى يحذر المؤمنين من ضياع ثواب نفقاتهم، إن سلكوا هذا الدرب المبطل لأجر النفقة، التي شبهها الله تعالى بحجر أملس عليه تراب، فنزل عليه مطر شديد، فأبقاه صلباً أملس لا شيء عليه، فلا ينبت ثمراً، ولا يقدر أصحابه تحصيل شيء من ثواب ما أنفقوا، بسبب المن والأذى اللذين رافقا النفقة، واللذين كانا بمثابة المطر الذي أزال التراب عن الحجر الأملس، فأبقاه أملسَ لا ينبت ولا يثمر.

والله سبحانه قابل بين المعطي والبخيل في الجزاء المختلف، فوعد المعطي باليسرى، وتوعد البخيل بالعسرى، مع التأكيد على أن مال البخيل المكذب لن ينفعه يوم القيامة حيث النار التي تلظّى، التي سيتجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى، فقال تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى* فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى* وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى* إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى* وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى* فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى* لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى* وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى* وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى* إِلا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى* وَلَسَوْفَ يَرْضَى}.[2]

1- البقرة: 264.

2- الليل: 4-21.

المال ينمو بالصدقات والملائكة تدعو لمخرجيها

يشجع الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الإنفاق في سبل الخير، ويبين أن الله يقابل عطاء المنفق بمدد الله وعونه وإنفاقه عليه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (قال الله: أَنْفِقْ يا ابن آدَمَ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ)[1]، ويوافق هذا الوعد النبوي وعد الله لعباده الشاكرين، فيقول تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[2]، وكلّف الله الملائكة بالدعاء للمنفق بالخير، وعلى البخيل الممسك عن الإنفاق في سبيل الله بالشر والهلاك، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ما من يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فيه، إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فيقول أَحَدُهُمَا: اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفاً).[3]

والمال ينمو بالصدقة، فيزيد كماً وبركة، وهذا ما تدل عليه الشواهد والأدلة القرآنية والنبوية، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مَالٍ، وما زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزّاً، وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلا رَفَعَهُ الله).[4]

فالصدقة تخرج كماً ومقداراً من المال، لكنها تبقي فيه بركة وتوفيقاً لصاحبه، وقد تعوض لصاحبها من حيث لا يحتسب ولا يقدر، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يبين أن صاحب المال يستفيد في حياته مما ينفقه على معاشه من طعام ولباس وما شابه، وكل ذلك

1- صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل.

2- إبراهيم: 7.

3- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.

4- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.

إلى فناء وزوال، غير أن صاحب المال يستفيد مما ينفقه في سبيل الله، فهذا الإنفاق يقتنى ويدخر عند الله، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: يقول الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إنما له من مَالِهِ ثَلاثٌ؛ ما أَكَلَ فَأَفْنَى، أو لَبِسَ فَأَبْلَى، أو أَعْطَى فَاقْتَنَى، وما سِوَى ذلك، فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ)[1]، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[2]، فأجر النفقة يبقى دائماً عند الله، ولا يشك مؤمن أن الحسنة تتضاعف عند الله إلى أضعاف كثيرة، مصداقاً لوعده صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (إذا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلامُهُ، يُكَفِّرُ الله عنه كُلَّ سَيِّئَةٍ كان زَلَفَهَا، وكان بَعْدَ ذلك الْقِصَاصُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى سبعمائة ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا، إلا أَنْ يَتَجَاوَزَ الله عنها)[3]، فالصدقة في سبيل الله تنمو وتزداد.

إنفاق الصحابة مما يحبون

لقد امتثل الصحابة، رضي الله عنهم، العمل بهدي الله، واقتفاء أثر رسولهم الأسوة، صلى الله عليه وسلم، فجادوا بالمال الذي يحبون في سبيل الله، ومن أخبارهم بهذا الصدد، ما ورد عن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قوله: (كان أبو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً، وكان أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إليه بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وكان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ من مَاءٍ فيها طَيِّبٍ، فلما نَزَلَتْ {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حتى

1- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق.

2- النحل: 96.

3- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء.

تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قام أبو طَلْحَةَ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يقول في كِتَابِهِ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إلي بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ، فقال: بَخٍ؛ ذلك مَالٌ رَائِحٌ، ذلك مَالٌ رَائِحٌ، قد سمعت ما قُلْتَ فيها، وَأَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبِينَ، قال: أَفْعَلُ يا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أبو طَلْحَةَ في أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ).[1]

فهنيئاً لمن وفقه الله للإنفاق من ماله في سبيل الخير في هذا الشهر المبارك، فأعطى الفقير والمسكين، ولم يبخل، ولم يقتر، وجاد بالصدقات المعلومة وغيرها ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، عسى الله أن يوفق أغنياء المسلمين؛ ليواصلوا البذل والعطاء؛ نفعاً لمجتمعهم وجيرانهم وأقاربهم وإخوانهم من أصحاب الحاجة، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والصدقات اليسيرة من ذوي الإمكانات القليلة قد تقي صاحبها من النار، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)[2]، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين، وقدوة الخلق الصالحين، وعلى آله وصحبه وأزواجه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا قال الرجل لوكيله: ضعه حيث أراك الله وقال الوكيل: قد سمعت ما قلت.

2- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة.

هديه في العشر الأواخر وليلة القدر وصدقة الفطر والعيد

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[1]

تتوجه اهتمامات المسلمين في أنحاء الدنيا في ليلة 26 من رمضان، إلى قيام ليلة القدر، تلك الليلة التي وعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي يقومها بمغفرة ما تقدم من ذنوبه وسيئاته، فهنيئاً لمن يوفقه الله لقيام هذه الليلة المباركة، ونيل جائزتها، وقد بيّن الله في السورة القرآنية التي تحمل اسم القدر، أن ليلة القدر تعدل ألف شهر في الفضل والخير، فقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}.[2]

ولا يشترط لمن يقوم هذه الليلة أن يرى علامات معينة تدل عليها، وإن كان هذا ممكناً لمن ييسر الله له ذلك، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ، تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي).[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.

2- القدر: 1-5.

3- سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب 85، وصححه الألباني.

وفضل هذه الليلة، وثواب إقامتها، لا يتوقف تحصيلهما على رؤية علاماتها، فليجتهد الذين يقومون ليلة القدر والعشر الأواخر من رمضان في الدعاء، والاستغفار، والصلاة، وقراءة القرآن، وذكر الرحمن لا إله إلا هو سبحانه، فليلة القدر واحدة من ليالي رمضان المبارك، وهي على الأغلب واحدة من العشر الأواخر، التي بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، فضل قيامها، وثواب الاجتهاد بطاعة الله فيها، تقول عَائِشَةُ، رضي الله عنها: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَجْتَهِدُ في الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مالا يَجْتَهِدُ في غَيْرِهِ)[1]، وفي رواية أخرى عنها: (أنه كان إذا دخل العَشْرُ، أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ).[2]

صدقة الفطر

عن نَافِعٍ، عن ابن عُمَرَ، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: فَرَضَ زَكَاةَ الفِطْرِ من رَمَضَانَ على الناس صَاعاً من تَمْرٍ، أو صَاعاً من شَعِيرٍ، على كل حُرٍّ أو عَبْدٍ، ذَكَرٍ أو أُنْثَى من الْمُسْلِمِينَ)[3]، وفي رواية عنه زيادة قوله: (فَعَدَلَ الناس بِهِ نِصْفَ صاعٍ من بُرٍّ).[4]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحدد مقدار صدقة الفطر، وأنواع الأغذية التي تخرج بها، والأشخاص الذين تجب عليهم، فهي قدرت بالصاع، وكثير من الروايات تذكر أنها صاع من تمر أو شعير أو زبيب أو أقط، وبعض الروايات ذكرت أنها نصف صاع من بر-قمح-، ويقدر الصاع حسب الكيل المتعارف عليه في أوساطنا اليوم بـ (2176غم)، أي: 2 كيلو و176غم، وحيث إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أتاح للمسلم اختيار

1- صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان.

2- صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان.

3- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير.

4- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير.

أحد البدائل التي حددها في أحاديثه الشريفة، صلى الله عليه وسلم، فقد اعتمد مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين صاع البر نوعاً لصدقة الفطر ومقداراً؛ كون البر أكثر الأنواع استخداماً في أوساط معظم المسلمين في بلادنا، وهو متيسر للفقراء والأغنياء، وأخذاً بالرأي الذي يجيز إخراج القيمة المادية بدلاً عن عين صاع البر، فقدّرها مجلس الإفتاء الأعلى لهذا العام بثمانية شواقل، تدفع من قبل ولي أمر الأسرة عن نفسه وعياله وأبنائه وأزواجه، ومن الروايات الصحيحة التي فصلت البيان في بعض متعلقات صدقة الفطر، ما ورد عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: (كنا نُخْرِجُ إِذْ كان فِينَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، زَكَاةَ الْفِطْرِ عن كل صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، حُرٍّ أو مَمْلُوكٍ، صَاعاً من طَعَامٍ، أو صَاعاً من أَقِطٍ، أو صَاعاً من شَعِيرٍ، أو صَاعاً من تَمْرٍ، أو صَاعاً من زَبِيبٍ، فلم نَزَلْ نُخْرِجُهُ، حتى قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاوِيَةُ بن أبي سُفْيَانَ حَاجّاً أو مُعْتَمِراً، فَكَلَّمَ الناس على الْمِنْبَرِ، فَكَانَ فِيمَا كَلَّمَ بِهِ الناس أَنْ قال: إني أَرَى أَنَّ مُدَّيْنِ من سَمْرَاءِ الشَّامِ، تَعْدِلُ صَاعاً من تَمْرٍ، فَأَخَذَ الناس بِذَلِكَ، قال أبو سَعِيدٍ: فَأَمَّا أنا؛ فلا أَزَالُ أُخْرِجُهُ كما كنت أُخْرِجُهُ أَبَداً ما عِشْتُ).(1)

وقت إخراج صدقة الفطر وحكمتها

عن نَافِعٍ، عن ابن عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَمَرَ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤَدَّى قبل خُرُوجِ الناس إلى الصَّلاةِ).(2)

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (فرض رَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، زَكَاةُ الْفِطْرِ، طُهْرَةٌ لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةٌ لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلاَةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلاَةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ).(3)

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير.

2- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير.

3- سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، وحسنة الألباني.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، بيّن بشكل واضح أن صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد، فإن أُخرت إلى ما بعدها، فلا تعد صدقة فطر، ولا ينال مؤخرها فضلها وثوابها، وإنما تعد صدقة من الصدقات الأخرى.

وبالنسبة إلى بداية وقت إخراجها، فالأصل أن وقت وجوبها يكون بعد غروب شمس اليوم الأخير من رمضان، وأجاز بعض العلماء تقديمها عن ذلك؛ مراعاة لمصلحة الفقير، وتسهيلاً على مخرجها، ويشير الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى بعض حِكَم صدقة الفطر وفوائدها، فيبين أن المحتاج ينتفع من أخذها في سد حاجاته، وقضاء مصالحه، وبخاصة تلك التي تتعلق بمتطلبات العيد، وهي من ناحية أخرى تطهر الصيام من اللغو والرفث، فهي تنفع منفقها وآخذها في آن واحد.

الصدقة التي تجب على أعيان الأشخاص

الأصل في الصدقة أن تخرج عن المال، وليس عن ذوات الأشخاص وأعيانهم غير أن صدقة الفطر تخرج عن الأشخاص، لما روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، يحدث عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ليس فِي الْعَبْدِ صَدَقَةٌ إلا صَدَقَةُ الْفِطْرِ)[1]، فهي تعد استثناءً من نفي الصدقة عن الأشخاص.

هديه صلى الله عليه وسلم في العيد

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْرُجُ يوم الْفِطْرِ وَالأَضْحَى إلى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ الناس، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كان يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أو يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ).[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يؤدي صلاة العيد في المصلى، ويؤكد هذا أنه صلى

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

الله عليه وسلم، كان (تُرْكَزُ الْحَرْبَةُ قُدَّامَهُ يوم الْفِطْرِ وَالنَّحْرِ ثُمَّ يُصَلِّي).[1]

والفرق بين المصلى والمسجد؛ أن المسجد هو المكان المخصص لإقامة الصلاة، ويتميز عن غيره بذلك، أما المصلى، فهو مكان في الفضاء الواسع غير مخصص للصلاة اليومية، وهو في الغالب غير محاط بجدران خاصة أو سقف، فعن ابن عمر: (الْمُصَلَّى كَانَ فَضَاءً، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتَتِرُ بِهِ).[2]

ولم يسن لصلاة العيد أذان ولا إقامة، فعن ابن عَبَّاسٍ: (أنه أَرْسَلَ إلى ابن الزُّبَيْرِ في أَوَّلِ ما بُويِعَ له، أنه لم يَكُنْ يُؤَذَّنُ بِالصَّلَاةِ يوم الْفِطْرِ، إنما الْخُطْبَةُ بَعْدَ الصَّلَاةِ).[3]

وكان صلى الله عليه وسلم يؤدي صلاة العيد قبل الخطبة، عن ابن عَبَّاسٍ، قال: (شَهِدْتُ الْعِيدَ مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، رضي الله عَنْهُمْ، فَكُلُّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ قبل الْخُطْبَةِ)[4]، وصلاة العيد ركعتان، لم يُصَلِّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قَبْلَهَا ولا بَعْدَهَا، وكان صلى الله عليه وسلم يخص النساء بوعظ يوم العيد، فعن ابن عَبَّاسٍ، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: صلى يوم الْفِطْرِ رَكْعَتَيْنِ، لم يُصَلِّ قَبْلَهَا ولا بَعْدَهَا، ثُمَّ أتى النِّسَاءَ، وَمَعَهُ بِلَالٌ، فَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ؛ تُلْقِي الْمَرْأَةُ خُرْصَهَا وَسِخَابَهَا).[5]

وبالنسبة إلى سماع خطبة العيد، فقد أتاح الرسول، صلى الله عليه وسلم، للمسلم حرية الاختيار بين المكث لسماع الخطبة بعد الصلاة، أو الانصراف، فعن عبد الله بن السائب، قال: (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْعِيدَ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: إِنَّا

1- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة إلى الحربة يوم العيد.

2- سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الحربة يوم العيد، وصححه الألباني.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب المشي والركوب إلى العيد والصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة.

4- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

5- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

نَخْطُبُ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَجْلِسَ لِلْخُطْبَةِ فَلْيَجْلِسْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ فَلْيَذْهَبْ)[1]، مع التأكيد على فضل سماع الخطبة، لما فيها من مواعظ وتذكير بالخير والصلاح.

الترفيه على النفس والعيال يوم العيد

يسن للمسلمين أن يتعاملوا مع العيد على أنه يوم بهجة وسرور، فللعيد خصوصية ترفيهية، ينبغي أن يحس بها المسلمون، ويظهروها في أوساطهم الاجتماعية والأسرية، بشرط الانضباط بالحدود المشروعة، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (دخل أبو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ من جَوَارِي الْأَنْصَارِ، تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ الْأَنْصَارُ يوم بُعَاثَ، قالت: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ، فقال أبو بَكْرٍ: أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ في بَيْتِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟ وَذَلِكَ في يَوْمِ عِيدٍ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: يا أَبَا بَكْرٍ؛ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً، وَهَذَا عِيدُنَا).[2]

ومما يتماشى مع معنى التوسعة والترفيه على النفس في العيد، ما جاء عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، من نهي عن صوم يومي الفطر والأضحى وأيام التشريق، فقال: (... ولا صَوْمَ في يَوْمَيْنِ؛ الفِطْرِ وَالأَضْحَى...).[3]

فعبادة الصيام طلبت من المسلم طيلة أيام شهر رمضان المبارك، ويوم العيد تصبح العبادة على شكل مغاير، بحيث يطلب من المسلم أن يتعبد إلى الله بالفطر، حتى إنه يسن للمسلم الأَكْلِ يوم الْفِطْرِ قبل الْخُرُوجِ إلى المصلى، فعن أَنَسٍ، قال: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لا يَغْدُو يوم الْفِطْرِ حتى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ، وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا).[4]

1- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الجلوس للخطبة، وصححه الألباني.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

3- صحيح البخاري، كتاب التطوع، باب مسجد بيت المقدس.

4- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج.

وفي انصياع المسلم لأمر الله بالإمساك عن المفطرات نهار رمضان، دليل على طاعته المطلقة لله، التي تظهر أيضاً بجلاء في الامتثال لشرع الله، والعمل بهدي الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الكف عن الإمساك والصيام يوم العيد، وهذا يشبه كثيراً بعض جوانب العبادات الأخرى، التي منها حلق الشعر أو تقصيره حال الإحرام للحج أو العمرة، فإذا انتهى الحاج أو المعتمر من أداء بعض شعائرهما، يصبحان مطالبين بفعل الحلق أو التقصير، على سبيل الإلزام، ليعلنا - بهذا وذاك - أنهما ملتزمان بطاعة الله، ومنصاعان لأمر الله على الوجه الذي يريده الله سبحانه.

فهذا تذكير ببعض هديه صلى الله عليه وسلم، في العشر الأواخر، وليلة القدر، وصدقة الفطر وعيده، أعاننا الله ووفقنا إلى حسن الاقتداء به، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يوصي بأمور تساعد في تحقيق الحج المبرور

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: حَجٌّ مَبْرُورٌ).[1]

يرشد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف إلى أفضل العمل، الذي منه الحج المبرور، أي المقبول، وقيل المبرور الذي لا يخالطه إثم، وقيل الذي لا رياء فيه.[2]

وعن جَابِرٍ قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ، وَالْعُمْرَتَانِ تُكَفِّرَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الذُّنُوبِ).[3]

ومع قرب انطلاق قوافل حجاج بيت الله الحرام من ديارهم قاصدين البيت العتيق، لأداء مناسك الحج، وقد بذلوا الجهد والمال، وبعض منهم انتظر سنين حتى أتيحت له هذه الفرصة التي يتمناها كثير من المسلمين، فهي ولا شك فرصة ثمينة، ورحلة عظيمة، تستدعي الحرص كل الحرص على أداء الحج وفق هيئة البر، التي ينال بموجبها الحاج جائزة ربه، بأن يغفر ذنوبه، ويرجع من حجه كيوم ولدته أمه، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: من حَجَّ لِلَّهِ، فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)[4]، ومن الأمور التي يوصي بها ديننا الحنيف، ورسولنا الكريم، صلى الله عليه

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل.

2- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج1، ص78 -79.

3- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، رضي الله عنه، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

4- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.

وسلم، وتفيد الحاج في أداء الحج على الوجه المبرور، ما يأتي:

إخلاص النية لله بالحج

عن عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ قال: (سَمِعْتُ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، على الْمِنْبَرِ، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه).[1]

وعن الفضل بن زياد، قال: سألت أبا عبد الله – يعني الإمام أحمد – عن النية في العمل، قلت: "كيف النية؟ قال: يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به الناس".[2]

وفي الحديث القدسي، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ).[3]

فالله سبحانه وتعالى يشترط للعبادة حتى يقبلها أن تؤدى خالصة لوجهه الكريم سبحانه، وأمر الله عباده المؤمنين بأن يتوجهوا إليه سبحانه في أداء مناسك الحج، مع اقتران هذا الأداء بتقوى الله، والخشية من عقابه سبحانه، فقال تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ... وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.[4]

واشترط الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، الإخلاص في أداء مختلف أنواع العبادات، التي

1- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

2- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص11.

3- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.

4- البقرة: 196.

منها الإنفاق في سبيل الله، ومنه تأمين متطلبات الحج المادية.

فعن عامر بن سعد، عن سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، أَنَّهُ أخبره (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها وَجْهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ عليها، حتى ما تَجْعَلُ في فِي امْرَأَتِكَ).[1]

فأخلصوا معشر قاصدي الحج النية لله في حجكم، وطوافكم، وسعيكم، وإنفاقكم؛ حتى تنالوا مغفرة ربكم، وحسن ثوابه.

الحج من مال طيب حلال

ينبغي على الحاج أن يتوخى الإنفاق على حجه من مال حلال طيب، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، والمسلم يحرص دائماً على الحلال في كسبه، وإنفاقه، والرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على الكسب الطيب، وحذر من الحرام، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَيُّها الناس؛ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فقال: {يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا من الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إني بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[2]، وقال: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ}[3]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ، يا رَبِّ؛ يا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟).[4]

ونعى الرسول، صلى الله عليه وسلم، على من يأكل مال الناس بالباطل، ووصفه

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرئ ما نوى.

2- المؤمنون: 51.

3- البقرة: 172.

4- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

بالمفلس، حتى إن صلى وصام وحج وقام، فعن أبي هريرة، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ).[1]

فإياكم معشر حجاج بيت الله الحرام من أن تضيعوا أجر حجكم بسبب دراهم جمعتموها بالباطل والحرام.

البعد عن الرفث والفسوق والجدال

لقد اشترط الله سبحانه وتعالى، ورسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، للحج حتى يكون مبروراً، خلوه من الرفث والفسوق، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، وعد في الحديث المثبت أعلاه من يحج دون رفث ولا فسوق بأن يعود من حجه كما ولدته أمه، والله ينهى في كتابه العزيز عن اقتراف الرفث والفسوق والجدال في الحج، حيث يقول سبحانه وتعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ}.[2]

فينبغي للحاج أن يتجنب السباب، والإثم فيما ينطق به لسانه، وتعمله جوارحه؛ حتى

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم

2- البقرة: 197.

يكون حجه مبروراً، وقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من التعدي على الآخرين بالقول أو العمل، فعن عبد اللَّهِ بن مسعود، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ).[1]

والله تعالى ينهى عن جملة من السلوكات التي تسيء للآخرين، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.[2]

وإذا كانت هذه التوجيهات الربانية والنبوية موجهة لعموم المسلمين، إلا أن الحاج من أولى الناس، وأحوجهم للأخذ بها، والعمل بمقتضاها، لأنه يقصد الحج المبرور، والعودة من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

فهذه بعض الوصايا والتوجيهات القرآنية والنبوية الرئيسة، التي تساعد الحاج في أن يكون حجه مبروراً، وسعيه مشكوراً، وذنبه مغفوراً، بإذن الله تعالى وحوله وقوته سبحانه، عسى أن يهتدي حجاجنا إليها، وأن يوفقوا للعمل بمقتضاها، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي سباب المسلم فسوق وقتاله كفر.

2- الحجرات: 11.

ييسر للحج

عن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَقَفَ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فقال: لم أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قبل أَنْ أَذْبَحَ؟ فقال: اذْبَحْ ولا حَرَجَ، فَجَاءَ آخَرُ فقال: لم أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قبل أَنْ أَرْمِيَ؟ قال: ارْمِ ولا حَرَجَ، فما سُئِلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن شَيْءٍ قُدِّمَ ولا أُخِّرَ إلا قال: افْعَلْ ولا حَرَجَ).[1]

وبدلاً من قول السائل: "لم أَشْعُرْ" ورد في رواية أخرى قوله: (كنت أَحْسِبُ أَنَّ كَذَا قبل كَذَا...).[2]

فتكرار الرسول، صلى الله عليه وسلم، لقول: "افعل ولا حرج" في إجابته لمن سأله عن تقديم بعض أعمال الحج يوم النحر في منى، يدل دون ريب على الأخذ بمبدأ التيسير على الحجاج، ورفع العسر والحرج عنهم.

مفهوم اليسر والعسر والصلة بينهما

الناظر في معنى اليسر في اللغة يجد أنه يعني التسهيل والتمكين، ويسر الشيء يسراً ويسارة يسر وخف وقل، فهو يسير، وتيسر الشيء تسهل وتهيأ.[3]

أما العسر في اللغة فهو ضد اليسر، ويعني: الضيق والشدة والصعوبة.[4]

ويقرر الله سبحانه وتعالى ملازمة اليسر للعسر، ويؤكد ذلك في آيتين وردتا في سورة من أقصر السور القرآنية، ففي سورة الشرح يقول تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً}.[5]

1- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها.

2- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الفتيا على الدابة عند الجمرة.

3- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ج2، ص1064.

4- لسان العرب، ابن منظور، ج4، ص 563.

5- الشرح: 5-6.

وينفي الكرماني في كتابه أسرار التكرار في القرآن أن يكون هنا تكرار، معللاً أن المعنى إن مع العسر الذي أنت فيه من مقاساة الكفار يسراً في العاجل، وإن مع العسر الذي أنت فيه من الكفار يسراً في الآجل، فالعسر واحد، واليسر اثنان، وعن عمر، رضي الله عنه، قال "لن يغلب عسر يسرين".[1]

وقيل: إن العسر المذكور في هذه السورة واحد؛ لأن الألف واللام للعهد، كقولك: جاءني رجل، فأكرمت الرجل، واليسر اثنان لتنكيره، وقيل: إن اليسر الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة.[2]

وجوه من تيسير أعمال الحج

يفتح الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الحج باب التيسير على أوسع نطاق من خلال إباحة التقديم والتأخير في أعمال الحج التي يؤديها الحاج أيام منى، وفي القرآن الكريم بيان من هذا القبيل، ففي إحدى الآيات الكريمة التي تعرضت لبيان بعض أحكام الحج، جعل الله تعالى مخرجاً لمن قصد الحج، وشرع به، ثم أحصر عن أدائه، فجعل الله له مخرجاً بأن أمره بالهدي، دون أن يشدد عليه، بل نصت الآية الكريمة على ذبح ما استيسر من الهدي، وتكرر فيها النص عليه للمتمتع بالعمرة إلى الحج، فقال تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[3]، وتتضمن الآية الكريمة أيضاً

1- أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، ج1، ص221.

2- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزّي، ج4، ص206.

3- البقرة: 196.

شكلاً آخر من أشكال التيسير، يتمثل في تشريع بدائل لبعض الأعمال بسبب المرض أو العجز عن أداء الواجب، كجعل فدية حلق المحرم رأسه بسبب المرض صياماً أو نسك، وجعل صيام عشرة أيام بدلاً من الهدي للمتمتع الذي يعجز عن تقديم الهدي، وكان من التيسير في هذا أيضاً، أن وزع الصوم البديل عن الهدي هنا بين أيام الحج، وبعد العودة إلى الأهل، بواقع ثلاثة أيام في الحج، وسبعة بعد الرجوع إلى الأهل، ومن التيسير في هذا التوزيع أن أكثر من ثلثي الأيام العشرة أجلت إلى ما بعد الرجوع إلى الأهل، وذلك بالنسبة إلى من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، حيث الراحة والاستقرار يكونان عند الأهل أكثر، ويكون الصوم بالتالي أسهل وأيسر من أدائه خلال أيام الحج والسفر إليه، فهذا مثال يدل بجلاء ووضوح على منهج التيسير في الإسلام.

ومن التيسير في الحج تخيير الحاج بين التعجل والتأخر أيام منى، فقال تعالى: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}.[1]

الحج لمن استطاع إليه سبيلاً

من وجوه التيسير في الحج، أنه لم يفرض على غير المستطيع، فقال تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[2]، وهذا يعني أن من منعه العجز عن أداء الحج لا يكلف به، ولا يحمل وزر تركه، وفي هذا من التيسير ما لا يخفى، إذ إن بعض الناس قد يذهب عمرهم كله دون أن يعتبروا مقصرين في التخلف عن أداء فريضة الحج، وذلك بسبب العذر الشرعي الذي حال دون تأديتهم لهذا الركن المهم من أركان الإسلام.

1- البقرة: 203.

2- آل عمران: 97.

ويؤكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، ربط فرض الحج بالاستطاعة، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ قال: (نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عن شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ من أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ من أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فقال: يا محمد؛ أَتَانَا رَسُولُكَ، فَزَعَمَ لنا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ، قال: صَدَقَ، قال: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قال: الله، قال: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قال: الله، قال: فَمَنْ نَصَبَ هذه الْجِبَالَ وَجَعَلَ فيها ما جَعَلَ؟ قال: الله، قال: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هذه الْجِبَالَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قال: نعم، قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ في يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، قال: صَدَقَ، قال: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بهذا؟ قال: نعم، قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً في أَمْوَالِنَا، قال: صَدَقَ، قال: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بهذا؟ قال: نعم، قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ في سَنَتِنَا، قال: صَدَقَ، قال: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بهذا؟ قال: نعم، قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ من اسْتَطَاعَ إليه سَبِيلاً، قال: صَدَقَ، قال: ثُمَّ وَلَّى، قال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، ولا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ).[1]

عذر من كان له سبب في ترك بعض سنن الحج وأعماله

من الفضل للمرء المسلم والخير له أن يتتبع سنن النبي، صلى الله عليه وسلم، فيعمل وفقها، فالله حث على ذلك، فقال سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}[2]، وفي الحج حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين على أخذ مناسكه عنه، فعن جَابِر قال: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يرمي على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه).[3]

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام.

2- الأحزاب: 21.

3- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم: لتأخذوا مناسككم.

ورغم الحرص على اقتفاء أثر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في أداء مناسك الحج وأعماله، فإن الحاج يواجه بعض المصاعب في التقيد التام بأداء المناسك على الوجه المسنون الوارد عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ودفعاً للحرج عنه في مثل هكذا ظروف وأحوال، فقد أذن له باللجوء إلى بدائل أخرى، ضمن نطاق منهج التيسير الذي يقره الإسلام، فقد أبيح الطواف للراكب عند عجزه عن المشي، ومن وجوه التيسير في الحج الترخيص للمريض بالطواف راكباً، عن أُمِّ سَلَمَةَ قالت: (شَكَوْتُ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنِّي أَشْتَكِي، قال: طُوفِي من وَرَاءِ الناس وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ، فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يُصَلِّي إلى جَنْبِ الْبَيْتِ، يَقْرَأُ بالطور وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ).[1]

بل أجيز للحاج أن يطوف ويسعى محمولاً عند اللزوم، وشرع للحاج أن يصلي ركعتين بعد الطواف في أي مكان من المسجد الحرام، حين يتعذر عليه أداؤهما عند مقام إبراهيم، على الرغم من أن القرآن الكريم حث على اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، فقال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}.[2]

قصر الخطبة في عرفة والجمع بين الصلاتين فيها وفي المزدلفة

ومن وجوه التيسير في الحج؛ الجمع بين الصلاتين بعرفة: (فعن سَالِمٍ أَنَّ الْحَجَّاجَ ابن يُوسُفَ عَامَ نَزَلَ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، رضي الله عنهما، سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ، رضي الله عنه: كَيْفَ تَصْنَعُ في الْمَوْقِفِ يوم عَرَفَةَ؟ فقال سَالِمٌ: إن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ، فَهَجِّرْ بِالصَّلَاةِ[3] يوم عَرَفَةَ، فقال عبد اللَّهِ بن عُمَرَ: صَدَقَ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَ بين الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ في السُّنَّةِ، فقلت

1- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إدخال البعير في المسجد للعلة.

2- البقرة: 125.

3- هجر: صلى وقت الهاجرة، أي وقت الحر الشديد.

لِسَالِمٍ: أَفَعَلَ ذلك رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟ فقال سَالِمٌ: وَهَلْ تَتَّبِعُونَ في ذلك إلا سُنَّتَهُ؟).[1]

ومن التيسير على الحجاج قصر الخطبة بعرفة: عن سَالِمٍ قال: (كَتَبَ عبد الْمَلِكِ إلى الْحَجَّاجِ أَنْ لا يُخَالِفَ ابن عُمَرَ في الْحَجِّ، فَجَاءَ ابن عُمَرَ، رضي الله عنه، وأنا معه يوم عَرَفَةَ، حين زَالَتْ الشَّمْسُ، فَصَاحَ عِنْدَ سُرَادِقِ الْحَجَّاجِ[2]، فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ مِلْحَفَةٌ مُعَصْفَرَةٌ[3]، فقال: ما لك يا أَبَا عبد الرحمن؟! فقال: الرَّوَاحَ[4] إن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ، قال: هذه السَّاعَةَ؟ قال: نعم، قال: فَأَنْظِرْنِي حتى أُفِيضَ على رَأْسِي ثُمَّ أَخْرُجُ، فَنَزَلَ حتى خَرَجَ الْحَجَّاجُ، فَسَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ أبي، فقلت: إن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ، فَاقْصُرْ الْخُطْبَةَ وَعَجِّلْ الْوُقُوفَ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلى عبد اللَّهِ، فلما رَأَى ذلك عبد اللَّهِ، قال: صَدَقَ).[5]

ويمكن لمن أراد الاستزادة في الإطلاع على رخص الحج والتيسير فيه، أن يجد ضالته فيما كتب عن هذا الموضوع من أبحاث وكتابات، مع ضرورة الانتباه إلى دليل الترخيص والتيسير وسببه المشروع، حتى لا يقع الحجاج في حبال التهاون في أداء المناسك والتفريط في قضائها عند القدرة على الأخذ بها.

وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وصحبه الكرام، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الجمع بين الصلاتين.

2- سرادق: كل ما أحاط بالشيء.

3- المِلْحفة المعصفرة: اللِّباس الذي فوق سائر اللباس من دِثار البرد ونحوه؛ وكل شيء تغطَّيت به. فقد التَحَفْت به، وقد صبغت باللون الأصفر.

4- الرواح: الخروج آخر النهار.

5- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التهجير بالرواح يوم عرفة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحثنا على اغتنام مواسم الخير

أنعم الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة الكريمة بأن اختصها بمواسم الخير والفضل، حيث الأجور المضاعفة والثواب العظيم من الله عز وجل لمن التزم، الطاعة في هـذه المواسـم، الـتي منها الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة، فقد بيّن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأمته فضل العمل في هذه الأيام حاثاً إياهم على اغتنامها، وعدم تفويتها لما لها من نفع يعـود علـى العامل فيها بالخير والثواب، والجزاء الوفير، فقد أشار الرسـول، صـلى الله عليـه وسـلم، إلى فضل هذه الأيام في أحاديثه الشريفة، ومنها قوله، عليه الصلاة والسلام: (مَا مِنْ أَيَّـامٍ العَمَـلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلاَ الجِهَادُ فِي سَـبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلاَّ رَجُـلٌ خَـرَجَ بِنَفْـسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ).[1]

فما أعظم هذا البيان النبوي لفضيلة العمل في الأيام العشرة من شهر ذي الحجة، وفي هذا الحديث دلالة على أن العمل في هذه الأيام العشرة أحب إلى الله تعـالى مـن العمـل في أيـام الدنيا كلها من غير استثناء شيء منها.

فحري بالحريص على تحصيل ثواب العمل فيها أن يتحراها، ويقبل على الله بتوبة نصوح، وبنفس وثابة إلى عمل الخير، راغبة فيما أعده الله تعالى من ثواب وفـضل لعبـاده الطـائعين.

ولا أدل على فضل هذه الأيام ولياليها من قسم الله تعالى بها في قوله تعالى: {وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}.[2]

1- سنن الترمذي، كتاب الصوم عن رسول اللَّهِ، صلى اللَّهُ عليه وسلم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، وصححه الألباني.

2- الفجر: 1-3.

وقد ذهب كثير من علماء التفسير إلى أن المقصود بالليالي العشر؛ ليالي الأيام العشر من ذي الحجة، والوتر يوم عرفة؛ لأنه اليوم التاسع، والشفع يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذي الحجة.

وما أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأوقات؛ فجرها وليلها، وشفعها ووترها، إلا لتأكيد أهميتها، وبيان فضيلة العاملين فيها.

وقد كان من هدي النبي، صلى الله عليه وسلم، في هذه الأيام أنه كان يصومها، فقد روت حفصة أم المؤمنين، رضي الله عنها، (أن رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يَصُومُ تِسْعَ ذِي الْحِجَّةِ...).[1]

ومن الأيام العشر يوم عرفة، أفضل أيام السنة، والعمل فيه له أجر عظيم، وفي هذا اليوم العظيم يقف حجاج بيت الله الحرام على جبل عرفات، استجابة لأمر الله تعالى لهم بأداء فريضة الحج، إذ الوقوف بعرفة ركن من أركان هذه الفريضة لا تتم بدونه.

وقد حث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على صوم عرفة، فقال، صلى الله عليه وسلم: (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ).[2]

ويوم عرفة هو يوم الحج الأكبر، يجتمع فيه حجيج المسلمين في صعيد عرفات الطاهر، خاشعين، ضارعين إلى الله تعالى أن يتقبل حجهم، ويغفر ذنوبهم، وأن يبعد الشيطان عنهم، الذي يقف مدحوراً محسوراً، لما يرى من سعة رحمة الله بالعباد، وتجاوزه عن ذنوبهم، فعن عبيد ابن كريز قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ، وَلَا أَدْحَرُ، وَلَا أَحْقَرُ، وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلا لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ، وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنْ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِلا مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ، قِيلَ: وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ).[3]

1- سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب في صوم العشر.

2- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

3- موطأ مالك، كتاب الحج، باب جامع الحج.

وفي فضل هذه الأيام ورد قوله تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}[1]، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: (الأيام المعلومات: أيام العشر)[2]. وفي فضل العمل ومضاعفة ثوابه ما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ؛ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا).[3]

وفي القرآن الكريم شاهد بذلك، {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[4]، قال أنس بن مالك: كان يقال في أيام العشر: بكل يوم ألف يوم، ويوم عرفة عشرة آلاف يوم"[5]، قال الحافظ ابن حجر في الفتح:" والذي يظهر أن السبب في امتياز العشر من ذي الحجة لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك في غيره".[6]

ويوم عرفة من هذه الأيام المباركة، أقسم الله عز وجل به في كتابه الكريم، فقال:{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}[7]، وهو المشهود، لقوله، صلى الله عليه وسلم: (الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْيَوْمُ الْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ).[8]

1- الحج: 28.

2- شعب الإيمان، البيهقي، 359/3.

3- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء.

4- البقرة: 261.

5- تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله 239/54.

6- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 460/2.

7- الفجر: 3.

8- سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البروج، وحسنه الألباني.

كما أن يوم عرفة هو يوم المغفرة والتجاوز عن الذنوب، والعتق من النار ، لقوله عليه الصلاة والسلام: (مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلاءِ).[1]

إذا علم هذا الفضل لهذه الأيام العشر؛ فعلى كل عاقل حريص على الفوز في دنياه وآخرته أن يتاجر مع ربه بالتجارة الرابحة من الأعمال الصالحة، وأن يستغل شرف وخصوصية الزمان بمضاعفة أجوره قبل فوات الأوان، ولات ساعة مندم.

فهذه الأيام المباركة ولياليها هي أحد مواسم الخير والفضل، التي ينبغي على كل عاقل أن ينهل منها بعمل الخير والطاعات، ويبادر إلى التوبة إلى الله عز وجل، عسى أن يغفر ذنبه، ويدخله في رحمته الواسعة.

فانظروا، يا أولي الألباب، إلى فضل الله الواسع في هذه الأيام المباركة من شهر ذي الحجة التي جعلها الله ميقاتاً زمانياً لأداء فريضة الحج، وأداء سائر الطاعات؛ كصيام أيامها، وقيام لياليها، والإكثار من عمل الخير فيها، فعلينا أن نجتهد في هذه الأيام في عمل الطاعات من صلاة وصيام وقيام، ونفارق المعاصي والآثام، ونتقرب إلى الله تعالى بما أمرنا به، ونتجنب ما نهانا عنه، وأن نجتهد أيضاً بالدعاء في هذه الأيام، وبخاصة يوم عرفة، راجين أن يتقبل الله تعالى منا صالح الأعمال، ويتجاوز عن الخطايا والآثام.

فلنأخذ جميعاً بهدي الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، الذي حثنا على العمل الصالح في هذه الأيام المباركة.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يمن علينا في هذه الأيام المباركة بتوبة نصوح، وأن يغفر ذنوبنا، ويتجاوز عن سيئاتنا، إنه هو التواب الرحيم.
وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وصحبه الكرام، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

في يوم عيد الأضحى

تحتفل الأمم كافة في أعيادها مبدية البهجة والفرح في أيام هذه الأعياد، إذ تمارس كل أمة أو جماعة من البشر طقوساً معينة في هذه الأعياد، هذه الطقوس التي نظمتها الشرائع السماوية، أو الأعراف والعادات والتقاليد التي اصطلحت عليها تلك الجماعة أو الأمة من الناس.

ولّما كانت أمتنا الإسلامية خير الأمم، ورسولنا الأكرم محمد، صلى الله عليه وسلم، آخر الأنبياء والمرسلين، الذي اكتملت به الرسالات، وختمت به النبوات، وكانت رسالته وشريعته كافة للناس، ورحمة للعالمين، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }[1]، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[2]، فقد اشتملت هذه الرسالة على ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، ويسعدهم في عاجلهم وآجلهم، ويبيّن لهم أحكام حياتهم، ومن ضمنها أحكام الأعياد، وهي أيام لفرحهم وبهجتهم، وإظهار نعم الله عليهم من غير بطر أو أشر أو إفراط، أو تفريط، {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[3]، {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً}[4].

وقد عين نبينا الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أيام أعياد المسلمين، إذ لما (قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمَدِينَةَ، وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ

1- سبأ: 28.

2- الأنبياء: 107.

3- الأعراف: 31.

4- الإسراء: 29.

اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا؛ يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ).[1]

وبهذا البيان تعينت أعياد الأمة الإسلامية، وهما عيدان عظيمان، ويومان مشهودان من أيام الله الغراء، إذ يتوج عيد الفطر عبادة الصيام؛ وهو ركن من أركان الإسلام، وفريضة محكمة على كل الأمم، لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[2]

ويأتي عيد الأضحى في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، وقد وقف حجاج بيت الله الحرام على صعيد عرفات الطاهر، ليؤدوا فريضة الحج، وهي ركن من أركان الإسلام، يتجاوز الله لمن أداها عن الذنوب الكبار، كما أن صيام يوم عرفة يكفر الذنوب، لما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في فضله (أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ).[3]

من شعائر العيد

إن أول شعائر العيد الصلاة، فقد روى أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالأَضْحَى إِلَى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ وَيُوصِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ).[4]

فهذا الحديث الشريف يبين أعمال النبي، صلى الله عليه وسلم، في يوم العيد من خلال

1- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين، وصححه الألباني.

2- البقرة: 183.

3- صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

4- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

سنته العملية، فيبدأ بالصلاة، وصلاة العيد كما صلاها النبي، صلى الله عليه وسلم، ركعتان يجهر فيهما بالقراءة، وكان يقرأ فيهما سورتي الأعلى والغاشية، أو يقرأ بقاف والقمر، كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يكبر في الركعة الأولى سبع تكبيرات، وفي الثانية خمس، وذلك قبل القراءة في الركعتين، لما روي عن عائشة، رضي الله عنها، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُكَبِّرُ فِي الْفِطْرِ وَالأَضْحَى فِي الأُولَى سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ خَمْسًا).[1]

وفي هيئة أخرى للصلاة؛ كان يكبر ثلاثاً في الركعة الأولى قبل القراءة، وثلاثاً في الركعة الثانية بعد القراءة، إذ صلاة العيد لا تزيد عن ركعتين، وهي سنة مؤكدة، واظب عليها النبي، صلى الله عليه وسلم، ولم يتركها.

يقول عمر، رضي الله عنه: (صَلاةُ الأَضْحَى رَكْعَتَانِ، وَصَلاةُ الْفِطْرُ رَكْعَتَانِ، وَصَلاةُ السَّفَرِ رَكْعَتَانِ، وَصَلاةُ الْجُمُعَةُ رَكْعَتَانِ، تَمَامٌ لَيْسَ بِقَصْرٍ، عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).[2]

وبعد إتمام الصلاة؛ يقبل الإمام بوجهه على الناس، ويخطب خطبتين، يبدأهما بالحمد أو التكبير، لما روي عن البراء قال: (خَرَجَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ الأَضْحَى إِلَى الْبَقِيعِ، فَبَدَأَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، وَقَالَ: إِنَّ أَوَّلَ نُسُكِنَا فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نَبْدَأَ بِالصَّلاةِ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ وَافَقَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ عَجَّلَهُ لأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ).[3]

1- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التكبير في العيدين، وصححه الألباني.

2- سنن النسائي، كتاب صلاة العيدين، باب عدد صلاة العيدين، وصححه الألباني.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب استقبال الإمام الناس في خطبة العيد.

وأما استماع الخطبة، فقد ورد هديه، عليه الصلاة والسلام، فيما رواه عبد الله ابن السائب، قال: (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْعِيدَ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ، قَالَ: إِنَّا نَخْطُبُ؛ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَجْلِسَ لِلْخُطْبَةِ فَلْيَجْلِسْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ فَلْيَذْهَبْ).[1]

ومن السنة أن يخطب الإمام في العيد خطبتين يفصل بينهما بجلوس، يعلم الناس فيهما أحكام العيد وشعائره؛ من نحر الأضاحي، والتكبير، وصلة الأرحام، والتواصل بين الأهل والأقارب والجيران، خاصة أن صلاة العيد تجمع المسلمين في مصلى العيد خارج المسجد، فتحضر النساء والصبيان والأطفال، فقد ورد عن أم عطية قالت: (كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يَوْمَ الْعِيدِ، حَتَّى نُخْرِجَ الْبِكْرَ مِنْ خِدْرِهَا، حَتَّى نُخْرِجَ الْحُيَّضَ، فَيَكُنَّ خَلْفَ النَّاسِ، فَيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ، يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَطُهْرَتَهُ).[2]

وكان صلى الله عليه وسلم يعظ النساء ويحثهن على فعل الخير، لما روي عن جابر ابن عبد الله قال: (سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَامَ فَبَدَأَ بِالصَّلاَةِ، ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ بَعْدُ، فَلَمَّا فَرَغَ نَبِيُّ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَزَلَ، فَأَتَى النِّسَاءَ، فَذَكَّرَهُنَّ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى يَدِ بِلالٍ، وَبِلالٌ بَاسِطٌ ثَوْبَهُ يُلْقِي فِيهِ النِّسَاءُ صَدَقَةً، قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَتَرَى حَقًّا عَلَى الإِمَامِ الآنَ أَنْ يَأْتِيَ النِّسَاءَ، فَيُذَكِّرُهُنَّ حِينَ يَفْرُغُ، قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ عَلَيْهِمْ، وَمَا لَهُمْ أَنْ لا يَفْعَلُوا!).[3]

ويجب على المرأة أن تراعي في خروجها إلى المصلى الاحتشام، بعيداً عن التبرج والتزين، لقوله، عليه الصلاة والسلام: (صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ

1- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الجلوس للخطبة، وصححه الألباني.

2- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب المشي والركوب إلى العيد والصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة.

الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَمْثَالِ أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا).[1]

ومن السنة الخروج إلى صلاة العيد ماشياً، والرجوع ماشياً، ويخالف الطريق، لما في ذلك من حكمة السلام وتهنئة المسلمين بالعيد، يقول ابن عمر، رضي الله عنهما: (كَانَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْرُجُ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا، وَيَرْجِعِ مَاشِيًا).[2]

وقت الأضحية

يبدأ وقت الأضحية بعد صلاة يوم النحر، لما روي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَلَّى يَوْمَ النَّحْرِ، ثُمَّ خَطَبَ، فَأَمَرَ مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلاَةِ أَنْ يُعِيدَ ذَبْحَهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ جِيرَانٌ لِي، إِمَّا قَالَ: بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَإِمَّا قَالَ: بِهِمْ فَقْرٌ، وَإِنِّي ذَبَحْتُ قَبْلَ الصَّلاَةِ، وَعِنْدِي عَنَاقٌ لِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شَاتَيْ لَحْمٍ، فَرَخَّصَ لَهُ فِيهَا).[3]

وعن البراء بن عازب قال: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ النَّحْرِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَقَالَ: مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَنَسَكَ نُسُكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلاَةِ، فَتِلْكَ شَاةُ لَحْمٍ).[4]

ويمتد وقت الذبح إلى آخر أيام التشريق، وهو اليوم الرابع بعد يوم الأضحى، ولا فرق بين من ذبح في ليل أو نهار.

1- صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات.

2- سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الخروج إلى العيد ماشياً، وحسنه الألباني.

3- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب.

4- صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب.

والأضحية تنحصر في الأنعام من الإبل والبقر والغنم، فالشاة تكفي عن أهل بيت واحد، والبقر والإبل يكفي عن سبعة بيوت، ويشترط في الأضحية السلامة من العيوب؛ كالعرج، والمرض، والعور، والهزال، وكذلك السن الشرعية، فإذا تعذر ذلك؛ فيجوز التضحية بالجذع، بحيث إذا خلط مع الكبار خفي، وينطبق هذا على الأنعام المسمنة من الغنم والبقر، إذ فيها وفرة اللحم، وهو من الحكم المشروعة في الأضحية التي هي شعيرة من شعائر الله،{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}[1]، {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}[2].

نسأله تعالى أن يوفق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، وأن يجعل عيد الأضحى المبارك نعمة وبركة على المسلمين، وأن يوفق حجاج بيته الحرام إلى أداء مناسكهم، وعودتهم سالمين غانمين إلى أهلهم وديارهم بحج مبرور، وذنب مغفور، وتجارة رابحة لن تبور، وأن يمن على شعبنا الفلسطيني المرابط بالعزة والكرامة والحرية والاستقلال، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- الحج: 32.

2- الحج: 37.

الفصل الرابع

مساجد

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
.16	ﷺ ينبه إلى فضل العناية بالمساجد	92
.17	ﷺ يوثق العلاقة بين المسلمين ومساجدهم	97
.18	ﷺ يحث على اعمار المساجد ويحذر من السعي في خرابها	102
.19	ﷺ يبين مسؤولية المسلمين تجاه القدس والمسجد الأقصى	110
.20	ﷺ يحث على شد الرحال إلى مسراه	116

ينبه إلى فضل العناية بالمساجد

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كانت تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أو شَابًّا، فَفَقَدَهَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلَ عنها، أو عنه، فَقَالُوا: مَاتَ، قال: أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟! قال: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا أو أَمْرَهُ، فقال: دُلُّونِي على قَبْرِهِ، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عليها، ثُمَّ قال: إِنَّ هذه الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً على أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يُنَوِّرُهَا لهم بِصَلاتِي عليهم).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ينبه في هذا الموقف النبوي إلى شكل من أشكال فضل العناية بالمساجد وصيانتها والمحافظة على نظافتها، حيث فقد الرسول، صلى الله عليه وسلم، امرأة سوداء، عرفت بحرصها على تنظيف المسجد، فكانت تَقُمْ المسجد بقاف مضمومة، أي تجمع القمامة وهي الكناسة، وفي بعض طرق الحديث أن تلك المرأة كانت تلتقط الخرق والعيدان من المسجد، فلما فقدها صلى الله عليه وسلم سأل عنها، فقيل له إنها ماتت، فأبدى عتبه ولومه؛ لأنهم لم يخبروه بموتها؛ حتى يصلي عليها، ويشيعها، ويدعو لها، ويبدو أنه سمع رداً لم يرق له سماعه، حيث عبروا عن رأيهم في مقام تلك المرأة البسيطة، ولم يكونوا يرون في موتها أهمية لإخبار الرسول، صلى الله عليه وسلم، عنه، لمقامها البسيط في نظرهم، وحسب تصورهم، غير أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أكد رفعة مكانها ومنزلتها؛ لما كانت تقوم به من عناية لبيت الله وخدمته، فسأل عن قبرها، فدلوه عليه، فذهب وصلى عليها، وبيّن للصحابة والمسلمين من بعدهم أهمية صلاته على أي

1- صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر.

من المسلمين أو دعوته له، في إشارة واضحة للوسام الرفيع الذي أصر صلى الله عليه وسلم على منحه لتلك المرأة خادمة المسجد، ويذكر ابن حجر العسقلاني أن هذا الحديث يبين فضل تنظيف المسجد والترغيب فيه، والسؤال عن الخادم والصديق إذا غاب، وفيه المكافأة بالدعاء، والترغيب في شهود جنائز أهل الخير، وندب الصلاة على الميت الحاضر عند قبره لمن لم يصل عليه، والإعلام بالموت.[1]

خزي الذين يسعون في خراب المساجد وإثمهم العظيم

في مقابل ارتقاء عمّار المساجد أرفع المنازل عند ربهم، فإن الذين يسعون في خراب المساجد ينتظرهم وبال عظيم جزاء إثمهم الكبير الذي اقترفوه بسعيهم في حرق المساجد وخرابها، كما يحدث لبيوت الله ومساجده، ودور عبادته في فلسطين، حيث تتعرض المساجد فيها إلى حملة مسعورة من محاولات حرقها وهدمها واقتلاعها من جذورها والمس بقدسيتها، فلم تقف تلك المحاولات العابثة بأمن بيوت الله على ما حصل للمسجد الأقصى عام 1969م، حين أشعل الحاقدون النار فيه، فأحرقوا جزءاً كبيراً منه، شمل منبره ومحرابه، وبعض جدرانه وموجوداته، بل استمر مسلسل الاعتداء الآثم على المساجد، وتسارعت وتيرته في الأيام الأخيرة، فداهم متطرفون من أعداء الله مساجد عديدة في غسق الليل وظلمته، ولم يغادروا أماكن اعتداءاتهم إلا تركوا فيها بصماتهم وتوقيعهم الدال عليهم، متخذين من مقولة "فاتورة تدفيع الثمن" شعاراً لحملتهم المسعورة والآثمة، والله تعالى يتوعد هؤلاء وأمثالهم من العابثين في أمن المساجد، ومحاولي تدنيس قداستها، فيقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[2]، وهم

1- فتح الباري، ج1، ص553.
2- البقرة: 114.

حقاً لم يدخلوها إلا خلسة في دلس الليل دلالة على خوفهم وجبنهم، فخسئوا وخابوا، والخزي والعار لهم في الدنيا والآخرة.

إذا المساجد سئلت بأي ذنب أحرقت؟!!

إن من خزي المعتدين على المساجد أن يوبخهم الله، حين يسأل المساجد عن شنيع إجرامهم فيها؟! يوم تشخص القلوب والأبصار بين يدي العزيز الجبار القهار، والله تعالى يتوعد الظالمين الذين يحرقون المساجد منهم، فيقول تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ}.[1]

فالذين يسمحون لأيديهم أن تمتد بالأذى لبيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يخطئون حين يظنون أنهم يحاربون أشخاص المسلمين الذين يعبدون الله في المساجد، لأنهم بشنيع إجرامهم إنما يحاربون الله ويعادونه بمحاربة أوليائه، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يخبر عن ولاية الله لعباده في المساجد، فيقول: (من صلى صَلاةَ الصُّبْحِ، فَهُوَ في ذِمَّةِ اللَّهِ، فلا يَطْلُبَنَّكُمْ الله من ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فإنه من يَطْلُبْهُ من ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبَّهُ على وَجْهِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ)[2]، ويتوعد الله من يعادي أولياءه، ففي الحديث القدسي الصحيح عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، (إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ).[3]

ومن يعلن الحرب على الله، فالويل له، من حساب عسير فتحه على نفسه، حيث الهلاك الوخيم، والخزي في الدنيا والآخرة، والله تعالى يتوعد محاربيه، فيقول سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ

1- إبراهيم: 42.

2- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة.

3- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.[1]

والذين يستبيحون حرمة المساجد، ويعتدون عليها، هم مجرمون حقاً، والله يتوعد المجرمين بنار جهنم وبئس المصير، فيقول تعالى:{وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً}[2]،{وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}[3]،{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ}[4]، فلينتظر العابثون بأمن المساجد يوماً أسود، حين ينتقم الله ممن انتهك حرمة بيوته، ودنس طهرها، وإنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً، ولكن أكثر الظالمين لا يعلمون، فليضحكوا قليلاً، وسيبكون كثيراً، إن شاء الله.

جذور الحرب المسعورة على المساجد

تأتي الحرب المعاصرة على المساجد امتداداً للحرب التي شنها أرباب الجهل والطاغوت على بيت الله العتيق، بصدهم أهل الذكر والتوحيد عنه، فقال تعالى: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}[5]، فالقرآن الكريم يذكر الصد عن المساجد والاعتداء عليها وعلى روادها، منبهاً إلى عقوبة هذا الإجرام بحق بيوت الله التي أقيمت في الأرض لعبادته سبحانه، وجاء هذا التنبيه في مواضع قرآنية عديدة، منها قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ

1- المائدة: 33.
2- الكهف:53.
3- يس: 59.
4- الرحمن:41.
5- الأنفال: 34.

يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1]، ومنها قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}.[2]

فهي حرب بين طرفين، أحدهما الظالمون، وثانيهما الله وأولياؤه، وهي بلا شك حرب غير متكافئة، فأين قوة الخلق من قدرة الله؟!

حماية الكنائس والصوامع

يجدر التذكير في هذا المقام إلى موقف الإسلام من حماية دور عبادة غير المسلمين، حيث قرن الله تعالى حمايتها بحماية المساجد، وأوجب الإسلام حماية دور العبادة ومنع الاعتداء عليها، وجعل تلك الحماية من أبرز غايات الجهاد في الإسلام وأسماها، فقال تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[3]، فهل يعقل أناس القرن الحادي والعشرين قيم الإسلام، ويقدرون درجات السمو الحضاري التي بلغها في احترام المغايرين والمخالفين، وحفظ حقوقهم، واحترام حرياتهم، وحماية دور عبادتهم.

أعاذنا الله من شر المجرمين؛ ما ظهر منه وما بطن، وحمى الله مساجدنا من كيدهم وعبثهم، وصلى الله وسلم على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- البقرة: 217.

2- الحج: 25.

3- الحج: 40.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يوثق العلاقة بين المسلمين ومساجدهم

عن أبي هُرَيْرَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: أَحَبُّ الْبِلادِ إلى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إلى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا).[1]

يشير الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف إلى مكانة المساجد عند الله تعالى، فهي أحب البلاد إليه، وهي بيوته في الأرض، التي أذن بها أن ترفع ويذكر فيها اسمه، مصداقاً لقوله تعالى في محكم التنزيل: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}.[2]

والمساجد تبنى لعبادة الله وحده، فينبغي الحرص على ذكره سبحانه فيها دون سواه، استجابة لقوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً}.[3]

ومعلوم أن أول المساجد التي أقيمت في ربوع الدنيا هو المسجد الحرام في مكة المكرمة، ثم تلاه المسجد الأقصى المبارك في القدس، فعن أَبِي ذَرٍّ، رضي الله عنه، قال: (قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرض أَوَّلَ؟! قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قال: قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى؟ قلت: كَمْ كان بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ بَعْدُ، فَصَلِّهْ، فإن الْفَضْلَ فيه)[4]، ثم كانت مساجد الله في الأرض منارات للذكر والعبادة، وهي من

1- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد.

2- النور: 36-37.

3- الجن: 18.

4- صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب {يزفون} النسلان في المشي.

أبرز الدلالات على إسلامية الأرض ووجود المسلمين، وفي ظل الهجمة الشرسة التي تشن على المساجد من قبل زمرة من الحاقدين الطاغين، يجدر استذكار ما يمكن عمله من قبل المسلمين لحماية مساجدهم ورعايتها، والإعلان عن توثيق الصلة بها، ويشمل ذلك الحث على عمارتها عمرانياً وتعبدياً، وتعلقاً بها، ومدارسة العلم والقرآن فيها، وتكثيف الوجود فيها، وإطالة المكث، وشد الرحال إلى أمهاتها.

فضل العمارة المادية للمساجد

لقد خص الله المؤمنين بإعمار المساجد، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ}.[1]

وجاء هذا التخصيص والإفراد للمؤمنين بعمارة المساجد، تبعاً لحجبها ومنعها عن الحاقدين الكافرين، فليس لهم نصيب من عمارة المساجد لأنهم خسروا أعمالهم، وأوردوا أنفسهم الهلاك، فقال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}.[2]

ومن أنواع العمارة التي يؤديها المؤمنون للمساجد، العمارة المادية والعمرانية، وفي فضل هذه العمارة المادية يروي عُثْمَان بن عَفَّانَ، أنه سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من بَنَى مَسْجِدًا، قال بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قال: يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى الله له مثله في الْجَنَّةِ).[3]

1- التوبة: 18.

2- التوبة: 17.

3- صحيح البخاري، كتاب المساجد، باب من بنى مسجداً.

فضل عمارة المساجد بالعبادة والعلم

إن من أبرز أنواع الإعمار التي يؤديها المؤمنون للمساجد، قيامهم بعبادة الله فيها؛ صلاةً وقياماً، واعتكافاً، وتدارساً للعلم والقرآن، وفي فضل ذلك، يروي أبو هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من غَدَا إلى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ الله له نُزُلَهُ من الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أو رَاحَ).[1]

وورد التشجيع على أداء صلاة الجماعة في المساجد، في أحاديث عديدة وأحوال كثيرة ، منها ما جاء في بيان فضل صلاة الجماعة، فعن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً).[2]

وفي رواية أخرى يقول أبو هُرَيْرَةَ: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: صَلَاةُ الرَّجُلِ في الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ على صَلاتِهِ في بَيْتِهِ وفي سُوقِهِ خمسة وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إذا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إلى الْمَسْجِدِ لا يُخْرِجُهُ إلا الصَّلَاةُ، لم يَخْطُ خَطْوَةً إلا رُفِعَتْ له بها دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عنه بها خَطِيئَةٌ، فإذا صلى؛ لم تَزَلْ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عليه ما دَامَ في مُصَلَّاهُ، اللهم صَلِّ عليه، اللهم ارْحَمْهُ، ولا يَزَالُ أحدكم في صَلَاةٍ ما انْتَظَرَ الصَّلَاةَ).[3]

وفي التشجيع على المسارعة لأداء الصلاة جماعة، والسبق إلى الصف الأول فيها، يروى عن أبي هُرَيْرَةَ، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: لو يَعْلَمُ الناس ما في النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لم يَجِدُوا إلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عليه لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما في التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إليه، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما في الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا).[4]

1- صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل من غدا إلى المسجد وراح.

2- صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة.

3- صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة.

4- صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان.

وعن عبد اللَّهِ، قال: (من سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ على هَـؤُلَاءِ الـصَّلَوَاتِ، حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فإن اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ، صلى الله عليه وسلم، سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ من سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ في بُيُوتِكُمْ كما يُصَلِّي هذا الْمُتَخَلِّفُ في بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِـيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وما من رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِـدُ إلى مَـسْجِدٍ من هذه الْمَسَاجِدِ، إلا كَتَبَ الله له بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بها دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عنـه بها سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا، وما يَتَخَلَّفُ عنها إلا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كان الرَّجُـلُ يـؤْتَي بِـهِ يُهَادَى بين الرَّجُلَيْنِ حتى يُقَامَ في الصَّفِّ).[1]

وفي فضل عمارة المساجد بالذكر وتدارس العلم؛ يقول الرسـول، صـلى الله عليـه وسـلم: (... وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْـنَهُمْ، إلا نَزَلَـتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ).[2]

ويوجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين إلى الحـرص علـى أن تتعلـق قلـوبهم في المساجد ليكونوا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبـي هُرَيْـرَةَ، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يـوم لا ظِـلَّ إلا ظِلُّـهُ؛ الإِمَـامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُـهُ مُعَلَّـقٌ في الْمَـسَاجِدِ، وَرَجُـلَانِ تَحَابَّـا في اللَّـهِ، اجْتَمَعَا عليه، وَتَفَرَّقَا عليه، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقـال: إنـي أَخَـافُ اللَّـهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى، حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُـلٌ ذَكَـرَ اللَّـهَ خَالِيًـا، فَفَاضَـتْ عَيْنَاهُ).[3]

1- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى.

2- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

3- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين.

شد الرحال إلى أمهات المساجد

وإذا كان فضل عمارة مطلق المساجد عظيم، فإنها للمساجد التي تشد إليها الرحال أعظم، وتلك المساجد محددة في الحديث الذي يرويه أبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى).[1]

وفي تمييز المساجد التي تشد إليها الرحال بالفضل ومزيد الأجر والثواب لمن يأتيها ويصلي فيها، ما روي عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: صَلاةٌ في مَسْجِدِي هذا خَيْرٌ من أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ).[2]

وقد ربط الله تعالى مسجده الأقصى بمسجده الحرام في رباط عقائدي تمثل في كون الأقصى قبلة المسلمين الأولى، والمسجد الحرام مستقر القبلة، وأنه سبحانه أسرى بعبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، في رحلة الإسراء العظيمة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وثبت خبر هذه الآية العظيمة في القرآن الكريم الذي يتعبد المسلمون بتلاوته، والإيمان به، والعمل بمقتضاه، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.[3]

حمى الله مساجدنا من كيد أعداء الدين وعبثهم، وهدانا الله لنكون من حماة مساجده وعُمّارها، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

2- صحيح البخاري، كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

3- الإسراء:1.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على إعمار المساجد ويحذر من السعي في خرابها

عن عُثْمَانَ بن عَفَّانَ، رضي الله عنه، أنه سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ؛ بَنَى الله له في الْجَنَّةِ مثله).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يبين في هذا الحديث الشريف فضل الذي يحمل لواء بناء المساجد، سواء أقام بذلك منفرداً، أم ساهم في البناء بشيء من جهده أو ماله، حيث ينتظره بيت في الجنة مثل المسجد الذي بناه في الدنيا، وهي – وربي- منزلة رفيعة، وجائزة مجزية، أن يحجز المرء لنفسه مكاناً يأويه في جنة عرضها السماوات والأرض، تجري من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كيف لا يكون لبناة المساجد هذه المنزلة، وهم يشيّدون خير الأماكن على وجه الأرض، لما روى أبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: أَحَبُّ الْبِلادِ إلى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إلى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا).[2]

وقد بين الله في محكم التنزيل خصائص عمّار المساجد، فهم أهل الإيمان والتقوى والصلاح، مصداقاً لقوله تعالى:{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ}.[3]

وعمارة المساجد، تنقسم إلى نوعين رئيسين، أحدهما العمارة المادية والعمرانية، وتشمل بناءها، وصيانتها، وإنارتها، وفرشها، وتقديم كل خدمة تلزمها وروادها، والتي يجود أهل

1- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها.

2- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد صلاة الفجر وفضل المساجد.

3- التوبة: 18.

الخير من المؤمنين في بذل الغالي والنفيس فيها، فمعظم المساجد اليوم تشيّد من قبل أهل الخير، وبتضافر جهود جماهير المسلمين، وتتنوع الجهود على هذا الصعيد، فمن مقدم وقته وجهده وسعيه وخبرته وحرفته في سبيل خدمة إعمار المساجد، ومن مقدم ماله بسخاء في هذا السبيل، وتلتقي تلك الجهود على صعيد إنجاز بناء المساجد، والقيام على رعايتها، ومتابعة ما يلزمها من صيانة وتنظيف، وتوسعات، وتهيئة مرافقها تسهيلاً لارتيادها، وإقامة شعائر الله فيها.

أما النوع الثاني لعمارة المساجد؛ فهي غاية العمارة المادية، التي وجدت لتحقيقها، وتتمثل في إقامة الصلاة والشعائر الدينية في المساجد، ورفع الأذان للصلوات، وبث الوعي الديني من خلال الخطب والدروس، وتعليم العلوم الدينية، ومعالجة قضايا الناس وفق التوجيهات الشرعية المستقاة من المصادر المقررة في دين الله.

التحذير من انتهاك حرمة المساجد والسعي في خرابها

لقد جاءت الأدلة الشرعية المتمثلة بالتوجيهات الربانية والنبوية، تحث على حفظ مكانة المساجد، وتحذر من انتهاك حرمتها، والتعدي عليها بأي صورة من الصور، فبينت فضل إعمار المساجد، بالاقتران مع بيان إثم السعي في خرابها، فالآية السالفة من سورة التوبة التي حصرت إعمار المساجد بالمؤمنين الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ولا يخشون إلا الله، تقابلها آية من سورة البقرة، تبين فظاعة التلبس بجريمة انتهاك حرمة المساجد، وبشاعة التعدي عليها، فيقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.[1]

1- البقرة: 114.

فأي شيء أفظع من تأكيد النص الرباني على أن الذين يسعون في خراب المساجد، هم أظلم الظَلَمة، ومما يستدعي التأمل والتدبر، أن الله بيّن في هذه الآية الكريمة، أن هذه الفئة الظالمة، لا تجد سبيلها إلى المساجد إلا خِلسة، وهي ترتعش خوفاً، وهذا ما يشاهده الناس بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم، حيث ينتهز الظَلَمة دلس الليل، فيسرقون أنفسهم إلى بعض المساجد، فيعيثون فيها خراباً، ويشعلون فيها النار، ويعتدون على مصاحفها، ويتركون بصمات تدل عليهم، من أبرزها الشعارات العنصرية التي يكتبونها على جدران تلك المساجد، ثم يفرون هاربين والناس نيام، وإن دل هذا السلوك على شيء، فإنما يدل على جبن هذه الفئات الضالة، ويدل على بالغ حقدها، وعلى أنهم يخافون الناس أكثر مما يخافون العزيز المقتدر، الذي إن أخذ؛ فسيكون أخذه أليماً، وما ذلك من الظالمين ببعيد، ولا هو على الله بعزيز.

وقد عد الله الاعتداء على المساجد، ومنع أهلها من أداء شعائرهم فيها، فتنة كبيرة، تفوق فتنة انتهاك حرمة الأشهر الحرم بالقتال فيها، على ما في هذا الانتهاك من اعتداء على حدود الله، وتجاوز لحكمه وشرعه، فيقول تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1]، والله لا يغفل عما يعمل رموز الفتنة وعصاباتها، وسيسوق من ينتقم لبيوته ومساجده وعباده، بإذن الله ومدده وعونه.

1- البقرة: 217.

انتصار الإسلام للصوامع والبيع والمساجد

لا يكيل الإسلام بمكاييل متباينة في نظرته إلى حماية المعابد من الاعتداءات الآثمة، بل جعل الإسلام من غايات جهاده، أن تحفظ السلامة للصوامع والبيع والصلوات والمساجد، فقال تعالى:{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[1]، ومعلوم من مسميات هذه المعابد التي ذكرتها الآية الكريمة، أنها تشمل معابد تخص غير المسلمين، فالصوامع للرهبان، والبيع كنائس للنصارى، والصلوات كنائس لليهود بالعبرانية، والمساجد للمسلمين، وحين يجعل الإسلام بنص واضح من نصوص مصدره التشريعي الأول هذا الحفظ، وتلك الحماية لهذه المعابد، فإنه يعبر بوضوح عن تسامحه مع الأديان الأخرى، ويقدر لهذه المعابد غايتها لذكر الله، وإن اختلفت في طريقتها ومبادئها مع ما جاء به الإسلام، وهو بهذا يبرهن بشكل قاطع على أنه يحترم حرية الآخرين في اختيار طريقة عبادتهم، واختيار أديانهم ومعتقداتهم، وأنه يسطر منهجاً قويماً في الصفح والتسامح، بخلاف الذين ينتهجون مسالك البغض والكراهية والعنصرية البغيضة، ويحتقرون مخالفيهم من أصحاب الأديان الأخرى، ويعتدون على مقدساتهم، ويضطهدونهم، ويحولون دون أدائهم شعائرهم الدينية في معابدهم التي أمروا بشد الرحال إليها، فشتان بين من يبرر لمنهجه الظلامي والاستبدادي والعنصري، بحجة أنه لا سبيل عليه نحوهم، ولا إثم في انتهاك حرماتهم، لأنهم أميّون حسب اعتقاده وتصوره، بينما هو من الأخيار المختارين، حسب زعمه، فشتان بين من كان هذا نهجه، وبين الإسلام الذي تذهب مبادؤه وقيمه ونصوصه الواضحة إلى

1- الحج: 40.

أبعد من منع التعدي على معابد الآخرين وحريتهم في اختيار أديانهم، حيث يأمر الإسلام بالجهاد لتأمين السلامة للمعابد والكنس والصوامع والحماية لها، وهو ينطلق في – هذا – كذلك من مبدأه الذي نص عليه القرآن الكريم في مجال احترام حرية الآخرين في اختيار معتقداتهم، فيقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.(1)

مواجهة المتربصين بالمساجد بالصلاة فيها وإقامة الشعائر

إن من أهم الردود على جرائم المعتدين على المساجد، ما يكون من مواقف المؤمنين الصادقين، الذين يعبرون بشكل لا لبس فيه عن إصرارهم على إعمار مساجدهم، وتكثيف الحضور فيها، وذاك – لعمري – يغيظ الأعداء المتربصين، ويبرهن لهم أن كيدهم ومكرهم لا يزيد المؤمنين إلا تمسكاً بعقيدتهم ومبادئهم ومقدساتهم، وتنقلب جرائم الظالمين وقوداً يحرك مشاعر المؤمنين نحو الالتفاف حول حقوقهم بأرضهم ومقدساتهم، وبهذا ينقلب السحر على الساحر بإذن الله، وقد عبر القرآن الكريم عن مثل هذا الحال، فقال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.(2)

فالمؤمن على يقين أن الله حسبه وكافيه، وسيتولى نصره على من عاداه، وتعدى على حرماته وحقوقه، وإلى جانب هذا الباعث الإيماني، الذي يعزز في المؤمن الإصرار على إيمانه، واعتماده على عون الله، الذي سينتصر له ولو بعد حين، فإن المؤمن يتوجه إلى القيام

1- البقرة: 256.

2- آل عمران: 173.

بدوره في إعمار المساجد، وهو على يقين بما سينال من فوز ونعيم، حين يكون من أصحاب اليمين، وفي وعد الله الصادق لعمار المساجد، يروي الصحابي الجليل أبو هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من غَدَا إلى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ؛ أَعَدَّ الله لـه نُزُلَـهُ من الْجَنَّةِ، كُلَّمَا غَدَا أو رَاحَ).[1]

وعن أبي الأَحْوَصِ، عن عبد اللَّهِ، قال: (من سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ على هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ، حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فإن اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ، صلى الله عليه وسلم، سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ من سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ في بُيُوتِكُمْ كما يُصَلِّي هذا الْمُتَخَلِّفُ في بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وما من رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إلى مَسْجِدٍ من هذه الْمَسَاجِدِ، إلا كَتَبَ الله لـه بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بها دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عنه بها سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وما يَتَخَلَّفُ عنها إلا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كان الرَّجُلُ يؤتى بِهِ، يُهَادَى بين الرَّجُلَيْنِ، حتى يُقَامَ في الصَّفِّ).[2]

فكيف لا تكون هذه المكانة المرموقة للذين يعمرون المساجد بالصلوات والمكوث فيها، وقد بيّن الرسول، صلى الله عليه وسلم، فضل الصلاة جماعة في المسجد على صلاته فرداً، فصلاة الجماعة في المسجد تفوق الصلاة خارجها بدرجات كثيرة، كما ورد في حديث أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: صَلَاةُ الْجَمِيعِ تَزِيدُ على صَلَاتِهِ في بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ في سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، فإن أَحَدَكُمْ إذا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ، وَأَتَى الْمَسْجِدَ لا يُرِيدُ إلا الصَّلَاةَ، لم يَخْطُ خَطْوَةً إلا رَفَعَهُ الله بها دَرَجَةً، وَحَطَّ عنه خَطِيئَةً، حتى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، وإذا دخل الْمَسْجِدَ؛ كان في صَلَاةٍ ما كانت تَحْبِسُهُ، وَتُصَلِّي -

1- صحيح البخاري، كتاب صلاة الجماعة، باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح.

2- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى.

يَعْنِي- عليه الْمَلائِكَةُ ما دَامَ في مَجْلِسِهِ الذي يُصَلِّي فيه، اللهم اغْفِرْ له، اللهم ارْحَمْهُ، ما لم يُحْدِثْ فيه).[1]

وفي فضل المشي إلى المساجد لأداء الصلاة فيها، ورد في صحيح مسلم، بَاب الْمَشْيِ إلى الصَّلاةِ تُمْحَى بِهِ الْخَطَايَا، وَتُرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتُ، وفيه عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: من تَطَهَّرَ في بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً من فَرَائِضِ اللَّهِ، كانت خَطْوَتَاهُ؛ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً)[2]، ومن هذه الوعود النبوية يجد المؤمن ما يحفزّه إلى الحرص على التردد اليومي على المساجد للصلاة فيها، حيث تزداد درجات الرفعة، ويتعاظم الثواب.

منزلة صاحب القلب المتعلق بالمساجد

تعلق المؤمن بالمسجد ينبع من وجدانه وإيمانه، من هنا يكون الحرص على هذا التعلق شديداً، يغيظ الأعداء، ويعبر بوضوح عن هوية المؤمن، وحسن توجهه لله رب العالمين، دون خوف أو وجل من الظَلَمة وآلات قهرهم، وهو في نهاية المطاف على يقين بحسن المقام الذي سيجده عند ربه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، ويوم يظل الله بظله شرائح من عباده، يكون صاحب القلب المتعلق بالمساجد منهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ؛ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللَّهِ، اجْتَمَعَا عليه، وَتَفَرَّقَا عليه، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إني أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى، حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ).[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مسجد السوق.

2- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات.

3- صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد.

منزلة الذين يتدارسون كتاب الله في المساجد

وفي سياق بيان فضل الصلاة جماعة في المساجد، وتعلق القلب بها، فإن المكوث فيها لتدارس العلم، والانتفاع من المواعظ، له فضل عظيم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: من نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ الله عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ الله في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كان الْعَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا؛ سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ). [1]

سائلين الله العلي القدير أن يحفظ مساجدنا من كيد العابثين، وأن يجعلنا من أصحاب القلوب المتعلقة بها، وأن ييسر لنا ولها الفرج القريب، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه، ومن تبعه وولاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

يبين مسؤولية المسلمين تجاه القدس والمسجد الأقصى

عن أَبي ذَرٍّ، رضي الله عنه، قال: (قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرض أَوَّلَ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قال: قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى، قلت: كَمْ كان بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فإن الْفَضْلَ فيه).[1]

يشير الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف إلى أهمية القدس في عقيدة الإسلام وشريعته، فمسجدها الأقصى ثاني مسجد وضعه الله لعبادته في الأرض، ويدل هذا الاهتمام على ضرورة العناية بهذا المسجد، وأكنافه؛ حيث بارك الله فيهما، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.[2]

ففي فاتحة سورة الإسراء، المتضمنة قوله تعالى المذكور أعلاه، وفي الحديث الشريف سالف الذكر، الذي تحدث عن السبق الزمني لوجود المساجد على وجه الأرض، دلالتان مهمتان على مكانة القدس ومسجدها الأقصى في عقيدة الإسلام وشريعته وعباداته، فذكر المسجد الأقصى في نصوص الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة، يدل على المكانة التي يحتلها في اعتبارات الدين الإسلامي وقيمه وعقيدته، وفي ربط ذكره بذكر المسجد الحرام، وهو قبلة المسلمين التي يتوجهون إليها في صلواتهم اليومية والليلية مرات عدة في اليوم الواحد وليلته، وهذا يدل على الصلة الوثيقة التي تربط المسلمين به، وبما ارتبط به من أمور، ومنها المسجد الأقصى، الذي كان أصلاً قبلة المسلمين الأولى، قبل تحولهم بأمر الله

1- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب {يزفون} النسلان في المشي.

2- الإسراء: 1.

إلى الكعبة المشرفة في المسجد الحرام، وهو المكان الذي انتهى إليه خط سير الإسراء الذي انطلق من المسجد الحرام، ثم كان منه الصعود إلى السماء في رحلة المعراج، ثم كانت العودة منها إليه، ثم الانطلاق في رحلة العودة من الإسراء منه على البراق إلى المسجد الحرام، ولولا أن هذا الربط مقصود لدى الله جل في علاه، لما كانت ضرورة أو حاجة إلى أن يكون المسجد الأقصى طرفاً رئيساً في رحلتي الإسراء والمعراج، غير أن الذي كان بأمر الله وفعله تمثل في اعتماد المسجد الأقصى مكاناً مركزياً في هاتين الرحلتين المباركتين، ثم إن الله سبحانه وتعالى خص المسجد الأقصى في فاتحة سورة الإسراء بالنص على مباركة الله عز وجل لما حول المسجد الأقصى، وفي هذا من الدلالة ما لا يخفى على الأهمية التي يوليها الله تعالى للمناطق الجغرافية والمكانية المحيطة بالمسجد الأقصى، فهي مباركة بأمر الله وكلامه، والمسلم يأخذ ما يتلقاه عن ربه عقيدة يحملها في قلبه ومشاعره وأحاسيسه، وتنطلق من هذه العقيدة أعمال المسلم وأقواله، وتظهر بصماتها في كل شؤونه وسلوكه وحياته.

وبعد هذا البيان الموجز لوجوه العلاقة العقائدية والدينية التي تربط المسلم بالمسجد الأقصى وبيت المقدس وما حولهما من بقاع الأرض المباركة، فلا يبقى مجال لأي شك حول تجذر علاقة المسلم، أينما وجد، وكيفما تكلم، وبغض النظر عن لونه وجنسه وعمره بالمسجد الأقصى، والأرض المباركة من حوله، فهي علاقة دائمة ما دامت السماء والأرض، وما بقي الدين الذي رضيه الله للخلق، وتكفل بحفظه، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[1]، فالله حفظ الذكر الذي تضمن ذكر المسجد الأقصى ومباركة الله لما حوله، وسيبقى هذا الحفظ قائماً دائماً بإذن الله، متوازياً مع حفظ الذكر

1- الحجر: 9.

الحكيم، الذي نزل به الروح الأمين، عليه السلام، على قلب محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي اختاره الله رحمة للعالمين، وخاتماً للنبيين والمرسلين.

والمسلم الذي يحمل هذه العقيدة الإيمانية، لا يتزعزع عن شيء منها، فلا يقيل ولا يستقيل، فيبقى المسجد الأقصى مسرى النبي المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وقبلة المسلمين الأولى في وجدانه، ويسري حبه في قلبه سريان الدم في عروقه، رغم أنف الكارهين المتربصين، الذين يظنون أنه بإجراءاتهم القمعية، وقراراتهم التسلطية الظالمة، وبطش جبروتهم، سيستطيعون محو وجود المسجد الأقصى والقدس من ذاكرة المسلمين الصادقين، فهم واهمون، يخدعون أنفسهم بأضاليل باطلة، وظنون لا تغني من الحق شيئاً، فالقدس في عقيدة المسلم إسلامية الوجود والقداسة، باركها الله في قرآنه الكريم، الذي يتعبد المسلم بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وإن وقوعها ومسجدها في أسر الظَلَمة ما هو إلا مرحلة عابرة، يبتلي فيها الله عقيدة المؤمنين، ويختبر صبرهم، فمن زاغ عن يقينه؛ فقد خاب وخسر، ومن ازداد ثقة بعقيدته ودينه، وبقي مصراً على حمل العقيدة التي تربطه بالمسجد الأقصى وبيت المقدس وما حولهما؛ فقد ربح البيع بإذن الله.

نعم؛ طال زمن القهر الذي أصاب المسجد الأقصى والقدس وما حولهما من الأرض المباركة وأهلها، وتمادى الظالمون في غيهم، فقد مضى أربعة وأربعون عاماً على حرب 1967م، التي انتكس فيها العرب والمسلمون، بسقوط القدس ومسجدها الأقصى وما جاورهما من الأرض المباركة، سبايا في يد عدو قتله الجشع والطمع الأعمى في قلب الحقائق، وتزييف الأمور والوثائق، زاعماً حقه الأبدي في القدس وما جاورها من الأرض الفلسطينية، وما فيها من مقدسات، وعلى رأسها المسجد الأقصى، الذي يكيدون له كيداً، ويمكرون له السوء، مبتغين هدمه، وإقامة الهيكل المزعوم على أنقاضه، وابتلي المؤمنون في

ذلك بلاءً عظيماً، {...وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[1]، لكن إيمان من صدقوا الله العهد لم يلتبس بالشوائب، وبقوا وسيبقون - بإذن الله - لربهم عابدين، على ابتلائهم صابرين، يغالبون خصومهم وأعداءهم بيقينهم، وعظيم إيمانهم، وبالغ صبرهم، نبراسهم قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.[2]

ويستدعي هذا الحال من المسلمين قادة وشعوباً، أفراداً وجماعات، أحزاباً ومستقلين، عرباً وعجماً ليهبوا لنجدة قدسهم ومسرى نبيهم، منافحين بذلك عن عقيدتهم، وحيث إن الحال على ما هو عليه الآن، من استفراد المحتل بأسر أرض المسلمين ومسجدهم الأقصى، وجزء من جماعاتهم، فهم مطالبون بأن يقوموا بواجبهم الذي يمليه عليهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وإلا فالويل لهم، من يوم تشخص فيه الأبصار لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، حين سيحاسبهم على ما قصروا تجاه عقيدتهم التي ربطتهم بمسجدهم الأقصى، وما حوله من الأرض التي باركها الله، فالواجب عظيم، والخطب جلل، وسؤال المحاسبة سيكون صعباً، حين يقف المسلمون بين يدي العزيز الجبار، والله تعالى أعلم بحقيقة ما سيكون يوم الحساب.

ومن صور ذكر العناية النبوية المطهرة بالقدس، وارتباط هذا الذكر بعقيدة الإسلام؛ ما روي عن جَابِر بن عبد اللَّهِ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ[3]، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ[4] أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ).[5]

1- الأنفال: 17.

2- آل عمران: 200.

3- الحِجر: بكسر الحاء، وهو ما تحت ميزاب الرحمة، وهو من جهة الشام.

4- طفِقْتُ: من أفعال المقاربة، بمعنى شرعت وأخذت.

5- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يخبر عن حادثة الإسراء، حيث كذبت قريش خبرها، فقام عليه الصلاة والسلام في الحجر، فكشف الله تعالى الحجب بينه وبين المسجد الأقصى، حتى رآه، فأخذ يخبرهم عن علاماته، فوصفه لهم، فمن مصفق، ومن واضع يده على رأسه متعجباً، "وكان في القوم من سافر إلى بيت المقدس، ورأى المسجد، فقيل له: هل تستطيع أن تنعت لنا بيت المقدس؟ فقال صلى الله عليه وسلم: فذهبت أنعت لهم، فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت، فجيء بالمسجد حتى وضع، قال: فنعته، وأنا أنظر إليه، فقال القوم: أما النعت فقد أصاب".[1]

فالمعركة على القدس قديمة جديدة، حيث كان الاهتمام بها على أشده، وتعددت صورها وأشكالها، وقد دخلت القدس على خط الصراع بين الإيمان والكفر، وكان من عون الله لنبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، أن ساق له المسجد الأقصى؛ ليتمكن من وصفه على الوجه المطلوب، خلال محاجة منكري حدث الإسراء الخارق للعادة والمألوف، وستبقى المعركة قائمة في مجالات أخرى، من أبرزها تلك التي يتنطع فيها من ينكر حق المسلمين في مسجدهم وقدسهم التي أكرمهم الله بهما.

ومن دلالات العناية النبوية في تعميق الصلة بين المسلمين ومسجدهم الأقصى؛ أن الله جعله أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، فورد عن سَعِيدٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ مَسْجِدِي هذا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى)[2]، ومن الشواهد النبوية الكريمة على العناية الإسلامية بالمسجد الأقصى؛ أنه كان قبلة المسلمين الأولى، حتى جاء الأمر الإلهي بتحويلها إلى الكعبة المشرفة. فعن الْبَرَاءِ، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صلى

1- عمدة القاري، ج19، ص23.

2- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.

أَوَّلَ صَلاةٍ صَلاهَا صَلاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى معه قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صلى معه، فَمَرَّ على أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فقال: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لقد صَلَّيْتُ مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كما هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ قد أَعْجَبَهُمْ، إِذْ كان يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فلما وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، أَنْكَرُوا ذلك).[1]

ويحدث الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن بعض الحيثيات ذات الصلة الوثيقة بالقدس والمسجد الأقصى، ما روي عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وهو دَابَّةٌ أَبْيَضُ، طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، قال: فَرَكِبْتُهُ حتى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قال: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ التي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ، قال: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السَّلام، بِإِنَاءٍ من خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ من لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فقال جِبْرِيلُ، صلى الله عليه وسلم: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ).[2]

سائلين الله العلي القدير أن يمن على المسلمين بتحرير مسجدهم الأقصى من نير الاحتلال البغيض، وأن ييسر لهم سبل إعماره وشد الرحال إليه، وإقامة العدل في أكنافه، وصلى الله على رسولنا الأكرم، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان.

2- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى السماوات وفرض الصلوات.

يحث على شد الرحال إلى مسراه

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحصر المساجد التي تشد إليها الرحال، بثلاثة مساجد، فلا يشرع السفر إلى مسجد بعينه لزيارته والصلاة فيه، سوى إلى هذه المساجد الثلاثة التي ذكرها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهي المساجد التي تجتمع مع المساجد الأخرى في كونها ملتقى للمؤمنين العابدين، الذين يفدون إليها لأداء شعائر الصلاة، ومدارسة القرآن والسنة، وما يتفرع عنهما من علوم، غير أنها تتميز عن سائر المساجد بأمور عظيمة، فالمسجد الحرام، فيه الكعبة المشرفة، قبلة المسلمين في أنحاء الدنيا، يتوجهون إليها في صلاتهم، وإليها حجهم. والمسجد النبوي الشريف، هو المسجد الذي أقام فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، وانطلق منه داعياً وقائداً للعالمين، وفيه القبر النبوي الشريف. والمسجد الأقصى، هو المسجد الذي أسري بالنبي، صلى الله عليه وسلم، إليه من المسجد الحرام بمكة المكرمة، وصلى فيه إماماً بالأنبياء، وعرج منه إلى السماوات، وتوجه إليه والمسلمون في صلاتهم قبل أن يستقبلوا البيت الحرام في مكة المكرمة في صلاتهم.

معنى الرحال وحكم شدها إلى المساجد الثلاثة وغيرها

ورد في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أن المراد من الرحال؛ جمع رحل، وهو للبعير كالسرج للفرس، وكنى بشد الرحال عن السفر؛ لأنه لازمه، وخرج ذكرها مخرج الغالب

1- صحيح البخاري، كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

في ركوب المسافر، وإلا فلا فرق بين ركوب الرواحل، والخيل والبغال والحمير والمشي في المعنى المذكور.

وفي المراد من معنى النهي عن شد الرحال، ورد في عمدة القاري، أن قوله لا تشد الرحال على صيغة المجهول بلفظ النفي، بمعنى النهي، بمعنى لا تشدوا الرحال، ونكتة العدول عن النهي إلى النفي لإظهار الرغبة في وقوعه، أو لحمل السامع على الترك أبلغ حمل بألطف وجه. وقال الطبري: النفي أبلغ من صريح النهي، كأنه قال: لا يستقيم أن يقصد بالزيارة إلا هذه البقاع لاختصاصها بما اختصت به.[1]

وقوله المسجد الحرام؛ أي الحرم، والمسجد بالخفض على البدلية، ويجوز الرفع على الاستئناف، والمراد به جميع الحرم، وقيل يختص بالموضع الذي يُصلّى فيه دون البيوت وغيرها من أجزاء الحرم ... وقوله ومسجد الرسول؛ أي محمد، صلى الله عليه وسلم، وفي العدول عن مسجدي إشارة إلى التعظيم ... ومسجد الأقصى؛ أي بيت المقدس وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ... ولبيت المقدس عدة أسماء تقرب من العشرين؛ منها إيلياء.[2]

ومن الأحاديث الصحيحة التي ذكرت بيت المقدس، باسم إيلياء، ما جاء في رواية عن أبي هريرة، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: إنما يُسَافَرُ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، وَمَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ إِيلِيَاءَ).[3]

ووردت آراء للعلماء في حكم شد الرحال إلى هذه المساجد الثلاثة، دون غيرها من المساجد، فذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري، أن (الشيخ أبا محمد الجويني يحرم شد الرحال إلى غيرها عملاً بظاهر هذا الحديث، وبه قال عياض وطائفة، وأن الصحيح عند إمام الحرمين وغيره من الشافعية أنه لا يحرم، وأجابوا

1- عمدة القاري، العيني، ج7، ص252.

2- فتح الباري، ابن حجر، ج3، ص64.

3- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.

عن الحديث بأجوبة، منها، أن المراد أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى هذه المساجد، بخلاف غيرها، فإنه جائز ...

وأن ابن بطال يرى أن النهي مخصوص بمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير الثلاثة فإنه لا يجب الوفاء به.

وقال الخطابي اللفظ لفظ الخبر، ومعناه الإيجاب فيما ينذره الإنسان من الصلاة في البقاع التي يتبرك بها؛ أي لا يلزم الوفاء بشيء من ذلك غير هذه المساجد الثلاثة.

وقال السبكي الكبير: ليس في الأرض بقعة لها فضل لذاتها حتى تشد الرحال إليها غير البلاد الثلاثة، والمراد بالفضل ما شهد الشرع باعتباره، ورتب عليه حكماً شرعياً، وأما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها، بل لزيارة، أو جهاد، أو علم، أو نحو ذلك من المندوبات، أو المباحات، قال: وقد التبس ذلك على بعضهم، فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع، وهو خطأ، لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه، فمعنى الحديث لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد، أو إلى مكان من الأمكنة، لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة، وشد الرحال إلى زيارة، أو طلب علم ليس إلى المكان، بل إلى من في ذلك المكان، والله أعلم).[1]

ويذكر العيني في عمدة القاري أن ابن بطال، قال: هذا الحديث إنما هو عند العلماء فيمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير الثلاثة المذكورة، قال مالك، رحمه الله: من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا براحلة، فإنه يصلي في بلده، إلا أن ينذر ذلك في مسجد مكة، أو المدينة، أو بيت المقدس، فعليه السير إليها.

وقال ابن بطال: وأما من أراد الصلاة في مساجد الصالحين والتبرك بها متطوعاً بذلك فمباح، وقيل من نذر إتيان غير هذه المساجد الثلاثة للصلاة أو غيرها لم يلزمه ذلك؛ لأنها لا فضل لبعضها على بعض، فيكفي صلاته في أي مسجد.[2]

1- فتح الباري، ابن حجر، ج3، ص65-66.

2- عمدة القاري، العيني، ج7، ص253.

دلالة تعيين المسجد الأقصى ضمن المساجد الثلاثة التي حصر شد الرحال إليها

إن في جعل المسجد الأقصى واحداً من المساجد الثلاثة التي حصر شد الرحال إليها، توجيهاً للمسلمين في كل زمان ومكان إلى أن يركزوا اهتمامهم ورعايتهم إليه، وبخاصة أنه يعاني الأمرين من إجراءات التهويد والتدنيس والحصار الظالم، فعلى المسلمين أن يبذلوا في سبيل إعماره الطاقات والإمكانات المالية والتعبدية، ويعملوا جهدهم للوصول إليه والصلاة فيه، عبر الوسائل الشرعية، الخالية من التلبس بأي شبهة أو ضرر، فشد الرحال إلى المسجد الأقصى ينبغي أن يكون من مواطني فلسطين، ومن العرب والمسلمين الذين يتمكنون من ذلك، عبر البوابات المشروعة، دون أن يكون لذلك أثمان تدفع للمحتل الذي يطمح لاستثمار السبل والإجراءات لفرض الأمر الاحتلالي الواقع، ليس على الأرض فحسب، بل على ذهنية العرب والمسلمين، بهدف محو تطلعهم لنيل حقوقهم في أرضهم ومقدساتهم من ذاكرتهم، وتفكيرهم وسعيهم لاستردادها.

فمسألة إشراك المسجد الأقصى للمسجدين الحرام والنبوي، في طلب شد الرحال، لم تكن مصادفة، ولا أمراً عابراً، وإنما هي مسألة عظيمة من أبرز دلالاتها العقائدية، أنها ربطت المسجد الأقصى بعقيدة المسلم حيثما وجد، كيف لا، وهو قبلة المسلمين الأولى، ويرتبط بقبلتهم الأخيرة، بقواسم مشتركة عديدة، من أبرزها، أنه يشد الرحال إليه مثلها، وأنه يتضاعف فيه أجر الصلاة وثوابها عما يكون في المساجد الأخرى غير المسجد الحرام والنبوي، وأنه يتقاطع مع المسجد الحرام في بداية الإسراء ونهايته، فمن المسجد الحرام كان الانطلاق في رحلة الإسراء الميمونة، ومن ثم كان الوصول إلى غاية الإسراء المكانية المتمثلة في المسجد الأقصى المبارك، وفي فاتحة السورة التي تحمل اسم الإسراء، يقول تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.[1]

1- الإسراء: 1.

الهجمة الشرسة التي يتعرض لها المسجد الأقصى

يتعرض المسجد الأقصى لهجمة شرسة، تستهدف وجوده ومحو معالمه وتهويده، ليصبح محجاً لغير المسلمين، والإجراءات لتحقيق هذا الهدف تجري على قدم وساق، وبصورة متسارعة، تسابق للفوز بالسيطرة عليه، مستغلة الأحداث العالمية والظروف الإقليمية والداخلية، فالحفريات تحت المسجد الأقصى تجري تحت غطاء من السرية والصمت المرعب، تساندها إجراءات الحصار والقمع ومنع إعمار المسجد، إضافة إلى استباحة حرمات المسجد بالتدنيس والاقتحامات المتواصلة من المستوطنين والجيش الذي يحميهم، ويساند اختراقاتهم لحرماته، وهو مدجج بالأسلحة وقنابل الغاز وغيرها من وسائل القمع وأدواته، عدا عن الاعتقالات لرواده، وتضييق الخناق على كثير منهم، بمنعهم من دخوله أو الوصول إلى مسافات قريبة منه، ومنع المواطنين العرب والمسلمين القاطنين في المناطق الفلسطينية خلف جدار الفصل العنصري، الذي حجب شمس القدس ومسجدها الأقصى عنهم، فصارت زيارته متاحة لمن يحمل الجنسيات الغربية والشرقية من القاطنين في أبعد القارات والدول، بينما هي ممنوعة أشد المنع عن القاطنين على بعد أمتار من جدار الفصل العنصري، الذي فصلهم عن قدسهم، ومسرى نبيهم، وقبلتهم الأولى، ومسجدهم الذي يصبون إلى شد رحالهم إليه، فأي ظلم أبشع من هذا القهر والاضطهاد الذي يمارس من سلطات الاحتلال على مرأى العالم وسمعه.

رهان الحق على إفشال مخطط الباطل لمحو المسجد الأقصى من ذاكرة المسلمين واهتمامهم كيف يمكن للمسلمين جماعات وأفراداً أن ينسوا حدث الإسراء العظيم؟!! وقد ثبّت القرآن خبره، وأطلق الله عنوانه اسماً على إحدى سوره، وارتباط المسلمين بمسجدهم الأقصى ذو صلة وثيقة ببقاء ارتباط هذا الحدث وسورته في قلوبهم وذاكرتهم، مع ما ينبثق عن ذلك أيضاً من بقاء ارتباطهم بمسجدهم الحرام وقبلتهم ومقصد حجهم، فالذين

يتقاطرون من أنحاء الدنيا عرباً وعجماً إلى البيت الحرام والمسجد النبوي الشريف، عدا عن الذين تحول دون وصولهم إليهما ظروفهم المادية، وإجراء حصر الأعداد وغيرها، أعدادهم لا تعد ولا تحصى، وباتت أعدادهم - والحمد لله - في تزايد مستمر، ولا تنحصر في موسم الحج، بل صار المسجدان يعجان بالملايين عبر شهور العام، ولو أن ظروف المسجد الأقصى غير هذه، لتمتع مثلهما بهذه الوفادة العظيمة والمتواصلة، غير أن المسلمين حبسوا عن شد الرحال إلى مسجدهم الأقصى ظلماً وعدواناً، والأمل معقود على أنه حاضر في قلوبهم ودعائهم، وإن كانت أجسادهم محبوسة عن الركوع والسجود فيه، ولا يظن الظنون - بغياب المسجد الأقصى عن تطلعات المسلمين وعقيدتهم، وحرارة مشاعرهم - سوى واهم يخدع نفسه بتوقعات وهمية لن تستطيع حجب الحقيقة أو تضييعها، ما دام المسلمون يحجون إلى بيت الله الحرام، ويشدون الرحال إليه وإلى المسجد النبوي الشريف، وما دامت سورة الإسراء محفوظة في قرآنهم الكريم، الذي أنزله الله، وتكفل بحفظه، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

ومع هذا؛ فسيبقى المسجد الأقصى في عقيدتهم شامخاً، وستزيدهم إجراءات القمع الاحتلالي تشبثاً بحقهم فيه، وستبقى عيونهم وقلوبهم ترنو إليه، وتتطلع إلى اليوم الذي يكسر فيه القيد الظالم عن معصمه، وهو بإذن الله قريب قريب، {...وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً}[1]، وقد مر المسلمون بتجربة شبيهة حين حصروا عن مسجدهم الحرام، فطمأنهم الله إلى قرب عودتهم إليه فاتحين، في سورة سميت بـ(الفتح)، فقال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً}.[2]

1- الإسراء: 51.

2- الفتح: 27.

{...ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}[1]

ديدن الجاحدين على الدوام، التنكر للحقائق الإيمانية من هذا القبيل، فقد أنكروا البعث والنشور، وظنوا أن لهم أمداً بعيداً في الخلود على هذه الفانية، فقال تعالى في تبكيتهم: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَرَاهُ قَرِيباً}[2]، وعودة المسلمين إلى مسجدهم الأقصى حتمية، وإن ظنها الجاحدون بعيدة، فهي قريبة بإذن الله وحوله وعونه، وهو الذي بشر المؤمنين بنصره القريب سبحانه، فقال تعالى:{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[3]، والله يطمئن المؤمنين إلى هذا العون والنصر، وهم يعانون قسوة الظلم من المجحفين، فيقول جل شأنه: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}.[4]

فيمكر الظالمون بالحق وأهله، بالمسجد الأقصى ومصليه ورواده من المسلمين أصحاب الحق المشروع فيه، ومكرهم إلى وبال، بإذن الله، وهو سبحانه الذي طمأن نبيه الكريم من قبل إلى إحباط مكر الذين تربصوا به وبدينه الدوائر، فقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.[5]

فأبشر يا مسرى النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، وليبشر معك أهلك المسلمون الذين ابتلوا بالحرمان من شد الرحال إليك، فمستهم بأساء البعد عنك، وضراء القمع الذي يمارسه المتسلطون عليك وإياهم، فنصر الله لك ولهم قريب، وإن ظنه الظالمون بعيداً، والصبح موعدنا وإياهم، {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}.[6]

1- الأنفال: 30.

2- المعارج: 6-7.

3- الصف: 13.

4- البقرة: 214.

5- الأنفال: 30.

6- هود: 81.

فالعاقبة لنا ولمسجدنا الأقصى، شاء من شاء، وأبى من أبى، ومع ثقتنا وأملنا بنصر الله القريب، فنحن مطالبون بالصبر على الإيمان، حتى لا تزيغ قلوبنا ونفوسنا عن الصراط السوي، والحق المبين، والله تعالى يوجهنا بما وجه به نبينا، صلى الله عليه وسلم، وهو يواجه المحن وابتلاءات الظالمين وعدوانهم، فيقول تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}.[1]

فقد عرفنا طريقنا إلى العزة والمنعة، التي لا نحيد عنها، بإذن الله وعونه وتوفيقه، نبراسنا قوله سبحانه: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ}.[2]

سائلين الله تعالى أن يمن علينا وعلى مسجدنا الأقصى مسرى نبينا الكريم، صلى الله عليه وسلم، بالنصر والفرج القريب، مثلما أثاب أصحاب الشجرة الذين بايعوا نبيهم، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فأثابهم الله فتحاً قريباً، وقال فيهم سبحانه: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}.[3]

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- النحل:127.
2- فاطر: 10.
3- الفتح: 18.

الفصل الخامس

جهاد وأسرى

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
.21	ﷺ يستحضر الاهتمام باستحقاقات الأسرى في صلاته ودعائه ووصاياه	125
.22	ﷺ يحفز الأمة على القيام بواجبها نحو أسراها	132
.23	ﷺ بماذا كان ينهض من صعاب الخطوب والنكبات؟	136

يستحضر الاهتمام باستحقاقات الأسرى في صلاته ودعائه ووصاياه

عن أَبي هُرَيْرَةَ قال: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول حين يَفْرُغُ من صَلاةِ الْفَجْرِ من الْقِرَاءَةِ، ويُكَبِّرُ، وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، ثُمَّ يقول، وهو قَائِمٌ: اللهم أَنْجِ الْوَلِيدَ بن الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بن هِشَامٍ وَعَيَّاشَ بن أبي رَبِيعَةَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ من الْمُؤْمِنِينَ...).[1]

يظهر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف مدى اهتمامه بقضية الأسرى ونصرتهم، فيجعل لهم حظاً من دعائه في صلاته وقنوته، ورد في عمدة القاري: قوله أنج بفتح الهمزة أمر من أنجى ينجي إنجاء، والأمر في مثل هذا التماس وطلب، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يدعو بالنجاة لهؤلاء الثلاثة، الذين اكتوا بنار المضايقة والحبس والقهر.

والوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله المخزومي أخو خالد بن الوليد، أسر يوم بدر كافراً، فلما أفدي أسلم، فقيل له: هلا أسلمت قبل أن تفتدى؟ فقال: كرهت أن يظن بي أني أسلمت جزعاً، فحبس بمكة، ثم أفلت من أسارتهم، بدعاء رسول الله، ولحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقال الذهبي: أسره عبد الله بن جحش يوم بدر، وذهبوا به إلى مكة، فأسلم، فحبسوه بمكة، وكان رسول الله يدعو له في القنوت، ثم أنه نجا فتوصل إلى المدينة، فمات بها في حياة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

قوله: وسلمة بن هشام، أي أنج سلمة بن هشام بن المغيرة المذكور آنفاً، أخو أبي جهل، وكان قديم الإسلام، وعذب في الله، ومنعوه أن يهاجر إلى المدينة. قال الذهبي: هاجر إلى

1- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين.

الحبشة، ثم قدم مكة، فمنعوه من الهجرة، وعذبوه، ثم هاجر بعد الخندق، وشهد مؤتة، واستشهد بمرج الصفرة، وقيل بأجنادين.

قوله: وعياش بن أبي ربيعة، واسم أبي ربيعة عمرو بن المغيرة المذكور، وهو أخو أبي جهل أيضاً لأمه، أسلم قديماً، وأوثقه أبو جهل بمكة، قتل يوم اليرموك بالشام.

وهؤلاء الثلاثة أسباط المغيرة، كل واحد منهم ابن عم الآخر.

قوله: والمستضعفين؛ أي وأنج المستضعفين من المؤمنين، وهو من قبيل عطف العام على الخاص، عكس قوله وملائكته وجبريل، وذكر العيني أن مما يستفاد من هذا الحديث الشريف، أن تسمية الرجال بأسمائهم فيما يدعى لهم وعليهم لا تفسد الصلاة.[1]

وهذا الحديث الشريف يشير بصورة واضحة إلى أن قضية الأسرى كانت تشغل باله صلى الله عليه وسلم، ولها مكانة بارزة في سلم أولوياته، وهو من ناحية ثانية يوجه الأمة في كل زمان ومكان إلى أن يعطوا الأسرى ما يستحقون من الاهتمام والمتابعة والنصرة، كيف لا؟! والله في محكم التنزيل ينكر التقاعس عن القيام بواجب نصرة المستضعفين، فيقول سبحانه وتعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}.[2]

ورد في التسهيل لعلوم التنزيل: "أن المستضعفين هم الذين حبسهم مشركو قريش بمكة؛ ليفتنوهم عن الإسلام، وهو عطف على اسم الله، أو مفعول معه. وأن القرية الظالم أهلها: هي مكة، حين كانت للمشركين".[3]

1- عمدة القاري، العيني، ج6، ص80.

2- النساء: 75.

3- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ج1، ص148.

ورد في فتح الباري لابن حجر العسقلاني: "والأظهر أن المستضعفين مجرور بالعطف على اسم الله، أي وفي سبيل المستضعفين، أو على سبيل الله، أي: وفي خلاص المستضعفين، وجوز الزمخشري أن يكون منصوباً على الاختصاص.[1]

وورد في التفسير الكبير: "اتفقوا على أن قوله {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ} متصل بما قبله، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون عطفاً على السبيل، والمعنى ما لكم لا تقاتلون في سبيل الله، وفي المستضعفين؟!.

والثاني: أن يكون معطوفاً على اسم الله عز وجل؛ أي في سبيل الله، وفي سبيل المستضعفين.

وأن المراد بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ قوم من المسلمين بقوا بمكة، وعجزوا عن الهجرة إلى المدينة، وكانوا يلقون من كفار مكة أذى شديدا. قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان".[2]

والاستفهام في {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ} للتوبيخ، أي لا مانع لكم من القتال في سبيل الله، وفي تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين حبسهم الكفار عن الهجرة وآذوهم.

وفي عمدة القاري أن في هذه الآية الكريمة تحريضاً لعباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان.[3]

فنصرة الأسرى تندرج ضمن الواجب الشرعي الذي فرضه الله على المؤمنين تجاه المستضعفين والمظلومين، الذي تسلط عليهم ظالم، فمنعهم حريتهم وحقهم بالعيش الكريم، فعن الْبَرَاء بن عَازِبٍ، رضي الله عنهما، قال: (أَمَرَنَا النبي، صلى الله عليه وسلم،

1- فتح الباري، ابن حجر، ج8، ص255.

2- تفسير الطبري، 237/5.

3- عمدة القاري، العيني، ج18، ص178.

بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عن سَبْعٍ، أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَنَهَانَا عن خَوَاتِيمِ الذَّهَبِ، وَعَنْ آنِيَةِ الْفِضَّةِ، وَعَنْ الْمَيَاثِرِ، وَالْقَسِّيَّةِ، وَالإِسْتَبْرَقِ، وَالدِّيبَاجِ).[1]

فأسيرنا مظلوم، لأنه يعاقب على طلب الحرية والكرامة، ويواجه بألوان العذاب النفسي والجسدي من قبل السجان مغتصب حريتنا وأرضنا ومقدساتنا، الذي يتفنن في قمع الأسرى واضطهادهم وتشديد الخناق عليهم، وعلى ذويهم، الذين يواجهون صنوف العذاب بسبب غياب فلذات أكبادهم أو أرباب أسرهم أو إخوانهم عنهم، حتى عند زيارتهم لا يسلمون من قمع المحتل، باستخدام التفتيش المهين، وطول الانتظار، والتلذذ في اختلاق صور القهر والإذلال وأشكالهما، هذا في حال سمح بالزيارات المعدودة في العام، وفي أحيان كثيرة يحرم خواص الأسير وأقاربه من الدرجة الأولى من زيارته تحت ذريعة السبب الأمني المجهول، الذي يطال كبار السن وصغارهم، رجالهم ونساءهم، ومعلوم حسب إحصائية وزارة الأسرى والمحررين الفلسطينية، أنه يقبع الآن في سجون الاحتلال ما يربو على ستة آلاف أسير، بينهم (37) أسيرة، و(245) طفلاً، و(180) معتقلاً إدارياً.

ولا بد من التأكيد في هذا المقام على أن التقصير في القيام بالواجب المطلوب نحو الأسرى البواسل، يتناقض مع التوجيهات النبوية التي جاءت مرة في سياق الأمر بنصرة المستضعف والمظلوم، ومرة أخرى جاءت في سياق النهي عن خذلان المسلم، أو ظلمه، أو تسليمه، وهي أبعاد ذات دلالة جلية على الواجب الملقى على عاتق أمة الإسلام، أفراداً وجماعة، ومؤسسات ومسؤولين نحو الأسرى وتحريرهم، وبخاصة أنهم في الأسر بسبب أنهم انضووا تحت لواء حفظ كرامة الأمة والدفاع عن حياضها، ودينها، ووجودها، وكرامتها، فللأسرى واجب النصرة على أمتهم، ورفع الظلم والقهر عنهم، وكثيرة هي الأحاديث

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب حق إجابة الوليمة والدعوة ومن أولم سبعة أيام ونحوه.

والآيات التي توجب نصرة المسلم على إخوانه، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ هذا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا، قال: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ).[1]

وعن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كان في حَاجَةِ أَخِيهِ؛ كان الله في حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً؛ فَرَّجَ الله عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً؛ سَتَرَهُ الله يوم الْقِيَامَةِ).[2]

ورد في فتح الباري؛ ولا يسلمه: أي لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره، ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم، وقد يكون ذلك واجباً، وقد يكون مندوباً؛ بحسب اختلاف الأحوال. وزاد الطبراني من طريق أخرى عن سالم (ولا يسلمه في مصيبة نزلت به).[3]

والكربة من الكرب وهو: الغم أو الهم أو الشيء، قال الجوهري: الكربة بالضم الغم الذي يأخذ بالنفس.[4]

ونصرة الأسرى تندرج ضمن نصرة الأخ المظلوم، وتحت فضل تفريج كرب المكروب، وأي مكروب؟ إنه من قدم واستبسل في سبيل كرامة أمته ووطنه ودينه وشعبه، فهو جدير بالمساندة والدعم، والعمل الجاد الذي يقود إلى تفريج كربه، وفك قيده، وإطلاق سراحه، وتلك أمانة في أعناق من خلفه من قادة ومسؤولين وإخوة ومؤسسات وأمة.

وحث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على فك الأسير من قيده، فعن أبي مُوسَى، رضي

1- صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً.

2- صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

3- فتح الباري، ابن حجر، ج5، ص97.

4- صحيح مسلم بشرح النووي، ج2، ص238.

الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: فُكُّوا الْعَانِيَ- يَعْنِي الأَسِيرَ- وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ).[1]

والعاني هو الأسير، قال ابن بطال: فكاك الأسير واجب على الكفاية، وبه قال الجمهور. وقال إسحاق بن راهويه من بيت المال، وروى عن مالك أيضاً، ولو كان عند المسلمين أسارى، وعند المشركين أسارى، واتفقوا على المفاداة، تعينت، ولم تجز مفاداة أسارى المشركين بالمال[2]، وهذا يعني لزوم العمل الجاد على فك الأسرى، وإطلاق سراحهم، وأن تبادل الأسرى مع الأعداء أسلوب من الأساليب التي بيّن فقهاء السلف حكم جوازها، والعمل بها.

فأسرانا البواسل يكابدون قسوة المحن في ظلام سجون القهر والظلم، التي هي أقرب إلى القبور منها إلى مكان يصلح لحياة البشر، فهم يزيدون عن ستة آلاف أسير، لا بد من العمل الجاد من أجل إبقاء قضيتهم مركزية لدى أطياف الشعب الفلسطيني كافة، قيادة وأفراداً ومؤسسات، بل يجب أن تكون قضيتهم على أولويات قضايا الأمتين العربية والإسلامية، لأن نصرتهم واجبة عليهما بمقتضى روح الإسلام ونصوصه وأحكامه وتوجيهاته.

ولا شك إن مشكلة الانقسام الفلسطيني والخلافات بين العرب والمسلمين تؤثر سلباً على قضايا الأمة ومصيرها، وتدفع قضية الأسرى فاتورة صعبة وباهظة جراء ذلك، فلم يكن من قبيل الصدفة أو العبث أن يطلق الأسرى صرخاتهم المستمرة والمتقدمة لإنهاء الانقسام الفلسطيني، بل قاموا بالإضراب عن الطعام للضغط على الأطراف من أجل تحريك عجلة الخلاص من الانشقاق، وقدموا وثيقة الوفاق الوطني لهذه الغاية، مما يستوجب التعاطي إيجابياً مع هذه الصرخات التي تنطلق من القابضين على جمر الكرامة

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.

2- فتح الباري، ابن حجر ج6، ص167.

والحرية والتحرير، فالاستجابة لمطلب إنهاء الانقسام يصب في معين نصرة الأسرى، وأداء الواجب نحو تحريرهم نفسياً وبدنياً، من هنا تم التجاوب مع دعوة الحركة الأسيرة لتكون الاحتفالات هذا العام بيوم الأسير الفلسطيني وفعالياته تحت شعار: "الحرية وإنهاء الانقسام".

ومع إزجاء أحر التحيات وأصدقها إلى إخوتنا القابعين في سجون الاحتلال ومعتقلاته، فإننا نشد على أياديهم، ونرجو الله أن يفرج كربهم وإيانا، فنحن وإياهم في الهم شركاء، فكلنا في أسر، وإن اختلفت المواقع وبعض الظروف، وحين نسأل الله الفرج القريب، فإننا على يقين بأن الله سيأتي بالفرج، مهما طال ظلام الليل، فهو سبحانه على كل شيء قدير، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[1]، فمن نصرة الأسرى الدعاء لهم بالفرج، والله يجيب دعوة المضطر، ويكشف السوء، قال تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}[2].

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- البقرة: 117.

2- النمل: 62.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحفز الأمة على القيام بواجبها نحو الأسرى

روي عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (فُكُّوا العَانِيَ -يَعْنِي الأَسِيرَ- وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا المَرِيضَ)[1]، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يدعو في هذا الحديث الشريف إلى تحمل المسؤولية تجاه الأسرى البواسل، والعمل على مناصرتهم، ورفع الظلم عنهم، وإيصال صورة معاناتهم إلى كل دول العالم من أجل التدخل الفوري والسريع للإفراج عنهم، ليبصروا نور الحرية.

وقد فهم علماء الأمة وفقهاؤها من هذا الحديث وغيره، وجوب العمل على إطلاق سراح الأسير، وبذل الغالي والنفيس من أجل حريته، سواء عن طريق المبادلة بأسرى الأعداء، أم ببذل الفدية بالمال، ولو كلف الأمة مالها، ويتطلب هذا تضافر جهود الأمة لتحقيق هذا الهدف الكريم، والمطلب السامي، لحرية الأسير، وعودته كريماً، إلى رحاب الوطن، وأحضان الأهل والصحب، وقد بادل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أسرى المسلمين بأسرى الأعداء، كما درج على ذلك الخلفاء والأمراء من بعده.

وقد سير المعتصم العباسي جيشاً لنصرة امرأة مسلمة، اعتدى عليها الروم وأسروها، فأطلق سراحها، وأعاد لها كرامتها وعزتها، فلم يغفل ديننا الحنيف عن حق الأسير في الحرية والكرامة، ووجوب تحقيق ذلك على أمير الأمة وحاكمها، لا بل على مجموع الأمة، وهذا أمر واضح في حق الأسير على الأمير والأمة؛ لأن الأسير يشكل فرداً من أفرادها، ولبنة في بنيانها.

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير

دعم صمود الأسرى وعائلاتهم، واجب شرعي ووطني

إن دعم صمود الأسرى وعائلاتهم، يعد واجباً شرعيّاً ووطنيّاً، يجب القيام به خاصة في ظل تعنت سلطات الاحتلال وقمعها لهم بمنعهم من أبسط متطلبات الحياة التي يستحقها الإنسان، ويجدر بالمواطنين الكرام العمل على مساندة لجان الأسرى الفلسطينيين وأهلهم، والتصدي لممارسات الاحتلال التي ترمي للنيل من عزيمتهم، ومن صور دعم الأسرى المشاركة في الفعاليات الرسمية والشعبية لدعم الأسرى، كونها تعمل على رفع روحهم المعنوية، وتظهر للعالم قوتنا ووحدتنا، فقضية الأسرى يجب أن تتقدم كل القضايا، وأن تظل حية في كل الظروف، حتى يخرج آخر أسير من سجون الاحتلال، ومن الأهمية بمكان القيام بمبادرات فاعلة تجاه حث حكومات العالم ومنظماته على مناصرة قضية الأسرى؛ حتى لا يقال عنا أننا أسوأ محامين عن أعدل قضية.

جريمة التقاعس عن مناصرة قضية الأسرى

من العجيب الغريب التقاعس عن مناصرة قضية الأسرى وتجاهلها، وكأنها قضية هامشية غير جديرة بالمناصرة والتأييد، مع أن هؤلاء الأسرى هم الأجدر بالاهتمام والرعاية والتقدير؛ لأنهم قدّموا الأغلى في سبيل دينهم ووطنهم وأمتهم وكرامتهم، فإن نسيهم العالم، يجب أن لا ننساهم نحن؛ وذلك لأن نسيانهم ليس له عقاب في الآخرة سوى نسيان الله لمن نسيهم. لأنهم قعدوا عن نصرة إخوانهم في ساعة العسرة... فينبغي رفع الصوت عالياً نصرة لأبنائنا الأسرى الذين يُحْتَجَزون رهائن في سجون الاحتلال، وهم يزيدون عن ستة آلاف؟

وقد أنكر الله تعالى على الأمة الإسلامية تقاعسها عن تخليص المستضعفين من أبنائها، من حالة الاستضعاف التي ابتلوا بها، فقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}.[1]

1- النساء: 75.

بيان مجلس الإفتاء الأعلى الخاص بمساندة الأسرى وأهلهم

يجدر في هذا المقام التذكير ببيان مجلس الإفتاء الأعلى الذي أصدره في جلسته السابعة والثمانين، والتي عقدت في شهر نيسان من هذا العام، حيث دعا المجلس بمناسبة يوم الأسير الفلسطيني إلى مساندة قضية الأسرى الفلسطينيين ودعمهم، وعد ذلك واجباً شرعيّاً ووطنيًّا وإنسانيّاً، يجب الالتزام به نحو هذه الشريحة المناضلة، وجاء في البيان أنه في ضوء التصعيد الإسرائيلي الخطير، وحملات القمع التي تمارسها سلطات الاحتلال، وإدارة سجونه ضد الأسرى الفلسطينيين العزل، فإننا ندعو جميع منظمات حقوق الإنسان، والمؤسسات الإنسانية، والقوى الوطنية إلى التصدي للممارسات الإسرائيلية القمعية، التي تمارس بحق الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي، ولا بد من العمل الجاد على إيقاف معاناة الأسرى، وبخاصة في ظل تصعيد سلطات الاحتلال الإسرائيلي في الآونة الأخيرة من ممارساتها العنصرية ضد الأسرى الفلسطينيين، والتي شملت سوء المعاملة، والإهمال الطبي، وعزل عدد منهم في زنازين انفرادية، وحرمان عائلاتهم من زيارتهم، بالإضافة إلى وجود الأمهات الأسيرات والأطفال، وهي ترتكب هذا القمع ضد الأسرى الفلسطينيين بشكل مبرمج وممنهج بإقرار من الجهات المسؤولة لسلطات الاحتلال على مختلف مستوياتها، وارتكبوا بحق أسرانا جرائم يعاقب عليها القانون الدولي، مما يستدعي تكثيف الحملات المحلية والدولية لإنقاذ الأسرى الفلسطينيين قبل فوات الأوان، وبالتالي فضح الوجه الحقيقي للسلطات الإسرائيلية، التي تزعم الديمقراطية وهي بعيدة عنها.

ويرى المجلس أنه يجب تفعيل قضية الأسرى على كل الأصعدة لتبني مطالب الأسرى، وأن لا يقتصر هذا على يوم الأسير الفلسطيني فقط، بل لا بد من تكثيف هذا التفاعل بشكل متواصل؛ حتى يتم إخلاء سجون الاحتلال من أسرانا البواسل، وأن تشمل هذه

الفعاليات القنوات الفضائية، ومراكز حقوق الإنسان المحلية والدولية، والمحاضرات والدروس والخطب الدينية والتعليمية، مع التأكيد على ضرورة عدم التهاون في هذه القضية المهمة والملحة للشعب الفلسطيني.

وإن المجلس إذ يحيي الأسرى على صمودهم الأسطوري، وجَلَدهم في مواجهة الإجراءات القمعية التي تتخذ ضدهم، فإنه يدعوهم إلى مواصلة الصمود والثبات، فالشعب وقيادته يولون قضيتهم كل الاهتمام، وأنهم لن يقبلوا إلا بتحرير جميع الأسرى من سجون الاحتلال.

وحث المجلس أبناء شعبنا الفلسطيني ومؤسساته الرسمية والأهلية على الوقوف بجانب أُسر الأسرى ومؤازرتهم.

فعلينا أن نشد على أيدي أسرانا، ونحييهم بتحية الإكبار والإجلال، وندعو لهم بتفريج كربهم، وحسن خلاصهم، ونقول لهم: إن يوم الفرج قادم، بإذن الله، فأنتم الأعزاء على قلوب أهلكم، وأمتكم، وأنتم طلائع الحرية، والكرامة، لشعبكم، وأمتكم، ووطنكم.

ولن تنساكم الأمة التي حثها رسولنا، عليه الصلاة والسلام، على وجوب فكاك الأسير، والعمل على إطلاق سراحه، ونيله الحرية، وصلى الله وسلم وبارك، على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، إلى يوم الدين.

بماذا كان ينهض من صعاب الخطوب والنكبات؟

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ، يقول: لا إِلَهَ إلا الله، الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إلا الله، رَبُّ السماوات وَالْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، بشر، يعتريه ما يعتري الناس، فيسر ويحزن، وقد تصيبه الجراح والآلام، فتؤلمه، ويصبو للخلاص منها، وها هو يدعو عند الكرب، مناشداً من بيده ملكوت السماوات والأرض وتصريفهما، فيناجيه ببعض أسمائه الحسنى وصفاته، معبراً عن اعتقاده بقدرة الله على أن يغير الحال بأحسن منه، وأن يفرج الكرب، ويرفع الغم، واللجوء إلى دعاء الله من منطلق الإيمان، والعمل وفق مقتضياته، ينسجم مع الهدي الرباني، الذي عبر عنه القرآن الكريم، فقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}.[2]

والمتتبع لأحوال النبي، صلى الله عليه وسلم، يجد له منهجاً، يقوم على مواجهة الخطوب والنكبات بالإيمان والصبر والدعاء، والطاعة المطلقة لله، والعمل الجاد نحو النهوض، فلم يكن، صلى الله عليه وسلم، يستسلم لنازلة، ولم يكن يستخف بواقعة، ولم يعتريه الجزع واليأس والإحباط حيالها، بل كان منه الجد والمثابرة، وكان يحذوه الأمل الدائم بنصر الله وعونه وفرجه، وكان يسلك السبيل المؤدي إلى تحقيق الغايات المرجوة، فلم يكن يبحث

1- صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب.

2- البقرة: 186.

عن عون الله بمعصية أو جزع، أو بقلة ثقة بالله، وإنما كان واثق الخطى على درب الحق، فإن اعتراه مكروه، سارع إلى النهوض، ملتمساً العزة والمنعة، وأوصى المؤمنين بالاستعانة بالله، والحرص على مسببات الخير، وأن لا يستسلموا لحالة عجز انتابتهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ، فإن لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ).[1]

ومارس صلى الله عليه وسلم النهوض من الانتكاب، سيراً على منهجه بهذا الخصوص، فلما أصابته والمسلمين الجراح في نهايات غزوة أحد، لم يستسلم لألم الجراح، وأمر بالخروج إلى ملاقاة العدو تحسباً من محاولته الانقضاض على المسلمين، طمعاً في متابعة إحداث المزيد من الجراح فيهم، ومما يستدعي عميق التدبر، طلبه صلى الله عليه وسلم ممن شهد معه أحداً فقط إلى الخروج معه إلى اللقاء المتوقع يومها، فخرج وإياهم، فوصلوا موضعاً بين مكة والمدينة يعرف بـ "حمراء الأسد"، غير أن الله كفاهم القتال، ولم يجدوا من يقابلهم، وقد أثنى الله تعالى في قرآنه الكريم، على هذه الوثبة الشجاعة، التي تمثلت فيها الاستجابة الإيمانية لمتطلبات الحدث واستحقاقاته، وفق ما يقتضيه الإيمان، الذي يستحث المؤمن لتلبية نداء الإيمان في العسر واليسر، في المنشط والمكره، وفي الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمستجيبين له رغم الجراح، قال تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ

1- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله.

لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.[1]

فقد تعرض المؤمنون ورسولهم، صلى الله عليه وسلم، للمحن إلى جانب تنعمهم بالنعم، فشكروا الله على آلائه، وصبروا على ابتلائه، وقد طمأنهم الله بأن الجراح حال عارض، ينبغي أن ينهضوا منه متسلحين بإيمانهم وصبرهم المستوحى من يقينهم بأن الله يداول الأيام بين الناس، والمؤمن لا يرضخ لنازلة أو نكبة أو جراح، فقال تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.[2]

وبمقتضى مداولة الأيام بين الناس، لا يدوم ضعف، ولا يستمر احتلال وحصار، فهما إلى زوال بإذن الله، وهو سبحانه ينهى عن الاستكانة للجراح العارضة، والنكبات الطارئة، فهي تدور في فلك مداولة الأيام بين الناس، وتستدعي ملازمة العمل على طريق النهوض من أسرها، إلى مسببات العزة والمنعة، فيقول تعالى: {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً}.[3]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقوم بمقام الأسوة للمؤمنين في تمثل معاني الإيمان

1- آل عمران: 172-175.

2- آل عمران: 140.

3- النساء: 104.

وقيمه، التي تقتضي الاعتقاد الجازم أن زمام الأمور بيد الله، فلا يرفع نكبة إلا هو سبحانه، ولا يأتي بعزة إلا هو سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ }.(1)

وقوله تعالى: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.(2)

ويقول تعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.(3)

وفي المواجهة الأولى مع مشركي مكة في ساحة الوغى، كان لقاء بدر الكبرى، على إثر القهر والبطش الذي دفع بالمسلمين ورسولهم، صلى الله عليه وسلم، إلى الهجرة من ديارهم، والبعد عن أهلهم ومواطن ذكرياتهم وإقامتهم وحلهم وترحالهم، فخرجوا من مكة مهاجرين ويد الغطرسة تطاردهم، حتى قام كيانهم السياسي والعسكري والإيماني في المدينة المنورة، وقد أعد الرسول القائد، صلى الله عليه وسلم، لهذه المواجهة الحاسمة عدته، التي توجت بالتوجه إلى الله بالتضرع، الخالص والدعاء الصادق الملح في طلب النصر والعون والمدد من الله، فكان له وللمؤمنين من الله ما طلبوا، فعن عُمَر بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا كان يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثلاثمائة وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهم أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللهم

1- الأنعام: 17.

2- يونس: 107.

3- آل عمران: 160.

آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللهم إن تُهْلِكْ هذه الْعِصَابَةَ من أَهْلِ الإِسْلَامِ لا تُعْبَدْ في الأرض، فما زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حتى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أبو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ على مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ من وَرَائِهِ، وقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ؛ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ من الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ}[1]، فَأَمَدَّهُ الله بِالْمَلَائِكَةِ، قال أبو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابن عَبَّاسٍ قال: بَيْنَمَا رَجُلٌ من الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ من الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سمع ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إلى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: صَدَقْتَ؛ ذلك من مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ).[2]

وقد امتن الله على المؤمنين بنصرهم المؤزر في بدر؛ ليكون هذا الحدث بتداعياته عبرة لكل معتبر عبر طول الزمان والمكان وعرضهما، وليكون دافعاً إلى تقديم مزيد من خالص الشكر والعرفان لله على هذه النعمة المزجاة، فقال تعالى:{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.[3]

ومن دلائل منهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مواجهة الخطوب والنكبات، ما تضمنه رده على طالبي الاستنصار، ممن عانوا الأمرين من قوى القهر والاضطهاد، ففي الحديث المشهور عن الصحابي الجليل خَبَّابِ بن الأَرَتِّ، قال: (شَكَوْنَا إلى رسول اللَّهِ،

1- الأنفال: 9.

2- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

3- آل عمران: 123.

صلى الله عليه وسلم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟! ألا تَدْعُو اللَّهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا اللَّهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).[1]

فهذه بعض ملامح منهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مواجهة الخطوب والنكبات، والتي تشير إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطو نحو الخلاص من الجراح بخطى ثابتة على درب الإيمان ومقتضياته، وعلى درب الصبر والأمل، والإعداد والطاعة المطلقة لله، التي رسمت معالمها التوجيهات الربانية المستوحاة من الوحي الرباني، فيما نصت عليه آيات القرآن الكريم، أو ما شملته السنة القولية والعملية للرسول، صلى الله عليه وسلم، فلجأ الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، إلى الله في كل ظروفه وأحواله، مستجيباً لأمر الفرار إلى الله، المتضمن في قوله تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}.[2]

والمؤمنون بالله رباً، وبالرسول، صلى الله عليه وسلم، هادياً ومبشراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، وبالقرآن كتاباً منزلاً للتعبد بتلاوته، والعمل بمضامينه وأحكامه وتوجيهاته، يطلب منهم أن يخطو على نهج القرآن، وعلى خطى رسولهم القدوة، صلى الله عليه وسلم، وصحابته الأبرار، في مواجهة الخطوب، والنهوض من جراح النكبات، نذكر

1- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

2- الذاريات: 50.

بهذا المطلب مع حلول الذكرى الثالثة والستين للنكبة التي حلت بفلسطين وأهلها عام 1948م، والتي اكتوى بنارها - وما زال - شعب فلسطين وأرضه ومقدساته، فكان التشريد للأحياء، والقتل للشهداء، وابتلاع الأرض، واقتلاع الشجر، وتدمير الحجر، وستبقى النكبة وصمة عار في جبين الأمة، حتى تعرف واجبها نحو النهضة منها على درب المصطفى المختار، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الأخيار، ومن سار على دربهم من الأحرار، واهتدى بخير عملهم، ممن وثبوا من جراحهم، طالبين الخلاص بوسائله المشروعة، وأسبابه المطلوبة، ومنطلقين من حرصهم على أداء واجبهم نحو المكروبين فيهم، عسى الله أن يسبل عليهم ثياب الفرج الأكبر من كرب يوم القيامة، كما وعدهم رسولهم، صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: من نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ الله عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ الله في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كان الْعَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ ...).[1]

فهلاّ أدركت الأمة؛ قيادات ومؤسسات وجماعات وأفراد، حجم الواجب تجاه تفريج كرب إخوانهم الذين يعانون ويلات الجراح والأسر في فلسطين؟ وهل فقهوا دلالات ربط عون الله بعون المرء لأخيه؟ فاللهم اهدهم ليفقهوا دلالات هذا، ويدركوا ذاك، حتى نكون وإياهم حقيقة ممن تأسى بمنهج خير الأنام، صلى الله عليه وسلم، أسوة المؤمنين، وإمام المتقين الصابرين المحتسبين، وصلى الله وسلم على آله الكرام، وصحابته الأبرار، ومن تبعهم ووالاهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

الفصل السادس

مناهج وقيم

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
24.	ﷺ يحرّم الانتحار	144
25.	ﷺ يذم ذا الْوَجْهَيْنِ وَيحرم فِعْله	151
26.	ﷺ يبشر الصادق بالنجاة... ولو بعد ابتلاء وحين	157
27.	ﷺ يؤكد لزوم الحرص على حفظ مال اليتيم	165
28.	ﷺ يتوعد قتلة الأبرياء	171
29.	ﷺ يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرَها (الحلقة الأولى)	180
30.	ﷺ يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرَها (الحلقة الثانية)	189
31.	ﷺ يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرَها (الحلقة الثالثة)	195
32.	ﷺ يرسم للمسلم نهج الاعتدال ويبعده عن المغالاة والتنطع	200
33.	ﷺ يشجع على الاستنقاء من الغل والحقد	207

يحرّم الانتحار

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من تَرَدَّى من جَبَلٍ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ في نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فيه، خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ، يَجَأُ بها في بَطْنِهِ، في نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا).[1]

ورد هذا الحديث الشريف - مع اختلاف في بعض الألفاظ- في صحيح الإمام مسلم، تحت بَاب: (غِلَظِ تَحْرِيمِ قَتْلِ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وإن من قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ في النَّارِ، وَأَنَّهُ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ). وفيه عن ثَابِت بن الضَّحَّاكِ، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: ...وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يوم الْقِيَامَةِ...).[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ينّفر من اللجوء إلى الانتحار، بغض النظر عن المبررات والدوافع التي ينطلق منها المنتحر، فالنفس أمانة بين يدي صاحبها، لها عليه حق الحفظ والرعاية، ولا يملك قرار إزهاقها، وإن اقترف جريمة التعدي على نفسه بالقتل، فعقابه وخيم، وخسارته عظيمة، حسب ما ورد في الحديث النبوي الذي بين أيدينا، من وعيد شديد لمن يزهق روح نفسه، حيث ضرب الرسول، صلى الله عليه وسلم، أمثلة لصور التعدي الذي يمكن أن يصدر من المرء ضد نفسه، متوعداً المنتحر بعقاب من جنس صورة الانتحار الذي قام بها، لكن العقاب الموعود أشد وأنكى، فالمنتحر يكرر فعل

1- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث.

2- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة.

الانتحار بحق نفسه، وهو يتلظى في نار جهنم، المرة تلو المرة، وفي هذا الوعيد من التبكيت والتقريع ما لا يخفى.

وهذا الموقف النبوي الواضح من جريمة الانتحار ينسجم مع الهدي الرباني الذي جاء به القرآن الكريم، حيث يقول تعالى: {... وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً}.[1]

وإذا كان الانتحار مشكلة لدى الشعوب غير المنتمية إلى الإسلام، فإنه طامة مفجعة، وجريمة مفزعة حين يقع في البيئات المسلمة، التي يفترض فيها أن تعتمد معايير الإسلام، وضوابط الخشية من الرحمن في السلوك والمواقف والاتجاهات، الفردية والجماعية.

فكم أحزننا وآسفنا التسارع إلى حرق الأنفس من قبل أصحابها، في بعض الدول العربية والإسلامية التي سلطت الأضواء على الحوادث التي وقعت فيها مؤخراً، حيث بدأها المواطن التونسي محمد البوعزيزي، الذي أحرق نفسه، واقتفى أثره عدد من الأشخاص في حوادث مشابهة شهدتها الجزائر ومصر وموريتانيا وغيرها من البلدان حيث أقدموا على الانتحار أو محاولته بحرق الأنفس، تأسياً بالبوعزيزي التونسي، وصورت هذه الأعمال أو المحاولات وكأنها أعمال بطولة تحتذى، ويتغنى بها وبشجاعتها كثير من الناس، وتبرز في وسائل الإعلام وقنواته الفضائية على سبيل الإثارة ولفت الأنظار، وبهدف دغدغة العواطف والمشاعر.

وبيان الموقف الشرعي من حالات الانتحار التي شاهدناها، ينطلق من الاحتكام لتعاليم ديننا الحنيف، والتزاماً بقيمه العليا ومبادئه الربانية، فهو موقف يراعي التقيد بالحكم الشرعي في السلوك، ولا يعني بحال من الأحوال الوقوف ضد الثورة على الظلم، وهو في

1- النساء: 29-30.

الوقت نفسه ليس دعوة للرضا بالطغيان، فالإسلام حث على الانتصار للمظلوم، وشجب الرضوخ للخنوع والظلم، حيث قال تعالى في محكم كتابه العزيز: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً}.[1]

لكن الله ينهى المؤمنين عن أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة، فيقول سبحانه: {...وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[2]، والنهي في هذه الآية عام، يشمل منع إلقاء النفس لأي تهلكة، وبأي سبب وشكل وصورة.

وأثنى الله على عباد الرحمن الذين من صفاتهم أنهم لا يقترفون جرائم الاعتداء على النفوس البريئة، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً}[3]، وتجنب قتل النفس هنا ورد مطلقاً، فيشمل نفس القاتل ونفوس الآخرين من الناس، فلا يجوز الاعتداء على النفوس بالقتل إلا بالحق، وإلا فالعذاب والآثام والوبال والخسران العظيم.

وإذا كان اللجوء إلى الانتحار على النحو الذي جرى، أو ما شابهه، دافعه اليأس، فذلك منكر يضاف إلى منكرات، فالمؤمن واليأس يسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان، إذ كيف ييأس المؤمن وهو يؤمن أن الأمور مردها إلى الله وجوداً وعدماً، يقول تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ

1- النساء: 97.

2- البقرة: 195.

3- الفرقان: 68-69.

الأمورُ}[1]، ويقول سبحانه: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}[2]، ويقول تعالى: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[3]، ويقول جل شأنه: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ}[4].

فهو سبحانه يصرف أمور الكون كيف شاء، فيؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، مصداقاً لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[5].

والله تعالى يذم التلبس بحالة اليأس والقنوط، فيقول سبحانه: {لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ}[6].

وينهى عز وجل عن القنوط من رحمة الله، واليأس من فرجه، فيقول تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ...}[7].

فاليأس من صفات أغيار المؤمنين، مصداقاً لقوله تعالى: {... وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}[8].

وسواء اندفع المنتحر للانتحار من اليأس أم غيره، ففعله مرفوض، وفق معايير الشرع وأحكامه وقيمه، ومما يؤسف له أن يخالف بعض المسلمين هذه المعايير من خلال نظره إلى هذا الفعل المشين بعين التعاطف أو التبرير، حتى إن أحد مقدمي البرامج في واحدة من

1- البقرة: 210.
2- آل عمران: 109.
3- يس: 83.
4- الحديد: 5.
5- آل عمران: 26.
6- فصلت: 49.
7- الزمر: 53.
8- يوسف: 87.

أشهر الفضائيات العربية قدم لأحد البرامج، وهو يتغنى بالسيناريو الذي حدث في تونس، وكان مما قاله- والعياذ بالله- وهو يوجه خطابه إلى الشاب التونسي البوعزيزي الذي أضرم النار في نفسه، قائلاً: "كافر من ينكر فعلك..."

ومن أبسط الردود على هذا التجاوز، التأكيد على أن الإسلام يرفض مبدأ ميكافللي الذي يبرر الوسيلة بالغاية، وإنما الإسلام يدعو لسلوك الوسيلة المشروعة، سعياً للوصول إلى الغاية المشروعة والنبيلة، فإشعال النار في الأجساد، أو إطلاق الرصاص على الرؤوس، أو التردي من المرتفعات، أو شنق الأنفس بالحبال، وغير ذلك من صور الانتحار التي يلجأ إليها بعض الناس، هروباً من واقع سيء، أو لفتاً للأنظار لقضية أو مشكلة، مما لا يجيز الإسلام فعله، ولا يرضاه للمؤمنين الأتقياء، وهذا مما يجب بيانه للناس، حتى لا نفقد وإياهم صوابنا، ونحن نُستجر للتعاطف مع المقهورين تحت تأثير القمع والقهر الذي يلفنا بناره وشرّه، إلى جانب المؤثرات الإعلامية التي تخترق كثيراً من معاقل نفوسنا.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد التنفير من اللجوء إلى الانتحار، بغض النظر عن الدواعي والأسباب، ففي الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (شَهِدْنَا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خيبر، فقال لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلامَ: هذا من أَهْلِ النَّارِ، فلما حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالاً شَدِيدًا، فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَقِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، الذي قُلْتَ إنه من أَهْلِ النَّارِ، فإنه قد قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالاً شَدِيدًا، وقد مَاتَ. فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: إلى النَّارِ. قال: فَكَادَ بَعْضُ الناس أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُمْ على ذلك، إِذْ قِيلَ إنه لم يَمُتْ، وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا، فلما كان من اللَّيْلِ لم يَصْبِرْ على الْجِرَاحِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأُخْبِرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِذَلِكَ، فقال: الله أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّي عبد اللَّهِ

وَرَسُولُهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِلالاً، فَنَادَى بِالنَّاسِ، إنه لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ).[1]

وفي رواية في صحيح البخاري، وتحت بَاب: لا يقول فُلانٌ شَهِيدٌ، ورد عن سَهْلِ ابن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الْتَقَى هو وَالْمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فلما مَالَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إلى عَسْكَرِهِمْ، وفي أَصْحَابِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، رَجُلٌ لا يَدَعُ لهم شَاذَّةً ولا فَاذَّةً إلا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فقالوا: ما أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كما أَجْزَأَ فُلانٌ. فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَمَا إنه من أَهْلِ النَّارِ. فقال رَجُلٌ من الْقَوْمِ: أنا صَاحِبُهُ. قال: فَخَرَجَ معه كُلَّمَا وَقَفَ، وَقَفَ معه، وإذا أَسْرَعَ، أَسْرَعَ معه. قال: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بين ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ على سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: أَشْهَدُ أَنَّكَ رسول اللَّهِ. قال: وما ذَاكَ؟ قال: الرَّجُلُ الذي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ من أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ الناس ذلك. فقلت: أنا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ في طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ في الأرض، وَذُبَابَهُ بين ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عليه، فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عِنْدَ ذلك: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وهو من أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وهو من أَهْلِ الْجَنَّةِ).[2]

وفي ضوء ما شهدنا وعلمنا وسمعنا من تطورات الأحداث الأخيرة في تونس، إلى جانب

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر.

2- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد.

ما خبرنا مما يحدث في عالمنا العربي والإسلامي المعاصر، فإننا نعبر عن حزننا وألمنا لما يحدث ويجري، لأسباب عدة؛ حيث إننا ممن يأسفون لما آلت إليه الظروف والأوضاع العامة، في دنيا العرب والمسلمين، حيث الفساد والقهر والظلم، وأن البيئات التي تعمها هذه الخصائص، محاطة بحديد ونار، وبات لا ينفع معه نقاش أو حوار أو استجداء.

ونأسف كذلك بسبب اللجوء إلى أساليب غير مشروعة ووسائل ممنوعة خلال العمل على إنكار الفساد القائم، مثل اللجوء إلى الانتحار، والاعتداء على الممتلكات العامة، وممارسة الظلم والتسيب والشطط في الثأر والانتقام.

ونأسف لأن ثوراتنا تجير، وثرواتنا تستثمر في كثير من الأحيان لغير صالحنا، سواء في ذلك ما شهدنا وعلمنا أم ما غاب عن سمعنا وبصرنا ووعينا.

وحتى نجتاز عيش حياتنا الدنيا بضنك مقرون بالعذاب المهين في الآخرة، فعلينا أن نحسب خطواتنا، ونقدر بواعثنا، ونختار سلوكنا، بما يوافق حكم الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وإلا فالوعيد الشديد ينتظرنا، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}.[1]

هدانا الله إلى صراطه السوي المستقيم، وختم بالصالحات أعمالنا، ووفقنا لما يحب سبحانه ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد، وعلى آله الكرام، وصحابته البررة، وأزواجه الطاهرات، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- طه: 124-126.

يذم ذا الْوَجْهَيْنِ وَيحرم فِعْله

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم: تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ؛ الذي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ).[1]

ورد هذا الحديث الشريف في صحيح البخاري تحت باب: "ما قِيلَ في ذِي الْوَجْهَيْنِ"، وهو في صحيح مسلم تحت بَاب: "ذَمِّ ذِي الْوَجْهَيْنِ وَتَحْرِيمِ فِعْلِهِ".[2]

فهذا الحديث من الأحاديث المتفق على صحتها عند كبار أئمة الحديث الشريف، وفيه إشارة إلى قبح عمل ذي الوجهين، فصاحبه من فئة شرار الناس، لأنه منافق، يظهر ما لا يبطن، فيمدح في الوجه، ويعيب ويذم وراء الظهر، ومن وراء ستار، وهو جبان؛ لأنه لا يجرؤ على المواجهة، ويهاب المصارحة، فلا يخلص في نصح، ولا يصلح لمؤازرة، فلا يؤمن له جانب، لأنه يتقلب مع الظروف، ويتلون فيها مثل الحِرباءَ، وفيه نظم الإمام الشافعي شعراً، قال فيه: ولا خير في ود امرئ متلـــون جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله

إذا الريح مالت مال حيث تميل وعند احتمال الفقر عنك بخيـــل

فصاحب الوجهين جدير بأن يدرج مع شرار الناس؛ لأنه مخادع، يحاول الانتفاع والتكسب من انتهاج هذا المسلك المعوج، فيرائي بظاهر مخالف لما يبطنه في خفاياه، لكن الله تعالى يخبر عن علمه بصنيعه واطلاعه عليه، وينذر ذا الوجهين أنه مطلع على حقيقة

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما قيل في ذي الوجهين.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ذم ذي الوجهين وتحريم فعله.

نواياه ومقاصده، فيقول تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}.[1]

وورد في كتاب عمدة القارئ: "وهذه هي المداهنة المحرمة، وسمي ذو الوجهين مداهناً؛ لأنه يظهر لأهل المنكر أنه عنهم راضٍ، فيلقاهم بوجه سمح بالترحيب والبشر، وكذلك يظهر لأهل الحق ما أظهره لأهل المنكر، فيخلطه لكلتا الطائفتين، ولإظهاره الرضا بفعلهم، استحق اسم المداهنة، واستحق الوعيد الشديد أيضاً"[2]، روي عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ فِي الدُّنْيَا جَعَلَ لَهُ لِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).[3]

وفي صحيح البخاري باب: "ما يُكْرَهُ من ثَنَاءِ السُّلْطَانِ، وإذا خَرَجَ قال غير ذلك"، وورد تحته أن أناساً قالوا لعبد الله بن عمر: (إنَّا نَدْخُلُ على سُلْطَانِنَا، فَنَقُولُ لهم خِلَافَ ما نَتَكَلَّمُ إذا خَرَجْنَا من عِنْدِهِمْ؟ قال: كنا نَعُدُّهَا نِفَاقًا).[4]

وقد أنكر الله على ذي الوجهين عمله أشد الإنكار، حين عقّب سبحانه على حالة من حالاته، تتمثل في القيام بأفعال لا تنسجم مع الأقوال التي تصدر عن نفس الفاعل القائل، فقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}.[5]

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن لابن عساكر (المتوفى: 571هـ) رسالة بعنوان "ذم ذي الوجهين واللسانين".[6]

1- النساء: 142.

2- عمدة القاري، العيني ج22،ص131.

3- ذم الغيبة والنميمة، ابن أبي الدنيا، ص150.

4- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان وإذا خرج قال غير ذلك.

5- الصف: 2-3.

6- حققها أبو عبد الله مشعل بن باني الجبرين المطيري، وجاءت في كتاب ضم مجموعة رسائل لابن عساكر.

وذو الوجهين من زمرة المنافقين الذين شن الله في قرآنه الكريم حملة قاسية عليهم، فقال سبحانه وتعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}[1]، ويأتي استخدام لفظ التبشير للمنافقين بالعذاب، كنوع من التبكيت والتأنيب.

فالمنافقون والكفار لجهنم وبئس المصير، يقول جل شأنه: {وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}.[2]

ولن ينفع المخادع المنافق ذا الوجهين الندم، حين تتكشف الحقائق والأمور يوم القيامة، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ}.[3]

وللمنافق ذي الوجهين، علامات دالة على حقيقة حاله، ففي صحيح البخاري، وتحت بَاب عَلامَةِ الْمُنَافِقِ، ورد عن أبي هُرَيْرَةَ، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ؛ إذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا أؤتمن خَانَ)[4]. وفي نفس الباب رواية أخرى بشأن تلك العلامات، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: أَرْبَعٌ من كُنَّ فيه كان مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانت فيه

1- النساء: 138.

2- التوبة: 68.

3- الحديد: 13.

4- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.

خَصْلَةٌ من النِّفَاقِ، حتى يَدَعَهَا، إذا أؤتمن خَانَ، وإذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ).[1]

ووجه سبحانه المؤمنين إلى كيفية التعامل مع هذه الشريحة المنحرفة من الناس، ونبه المؤمنين إلى أخذ الحيطة والحذر من الانسياق في ركاب ذي الوجهين، ومن كان على شاكلته من شريحة المنافقين، فقال تعالى: {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً }.[2]

بل إن الله أمر المؤمنين وقادتهم بشن الحرب على المنافقين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.[3]

وتشمل مجاهدتهم هنا حربهم بالسنان وبالحجة والبرهان، فهم والكافرون في هذا سواء، يقول تعالى: {... إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً}[4]، بل هم أشد خطراً من الكافرين، لأنهم يخالطون المؤمنين، ويخترقون صفوفهم، ويتسترون بهم، لذلك كان عقابهم في الآخرة أشد وأنكى، جزاء ما قدمت أيديهم من ضرر للإسلام والمسلمين، ففي عذابهم وخصائصهم وسماتهم، يقول سبحانه: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}.[5]

فالمنافقون يواصلون منهجهم وديدنهم في النفاق، ويبين الله تعالى أنه اختص بعلمهم؛

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.

2- الأحزاب: 48.

3- التحريم: 9.

4- النساء: 140.

5- التوبة: 101.

فهو يعلم أسماءهم وأشخاصهم، ويتوعدهم بعقاب في الدنيا بالفضيحة أو القتل، وعذاب في قبورهم، إضافة إلى ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب العظيم في نار جهنم وبئس المهاد، وسيكون مستقرهم قعر النار، دون أن يسعفوا بمانع يحجز عنهم شيئاً من هذا الوبال، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً}.[1]

وذو الوجهين يخسر كل شيء، فهو في خسارة دائمة، يتجرع ألواناً متعددة منها، مثل تقلب لون وجهه وشكل صورته، فهو يخسر الناس الذين حاول خداعهم بلون من ألوان وجهه، لأنه لن يستطيع إتقان دور الخداع إلى الأبد، وإذا انكشف أمره أمام من عمل على خداعهم، فسيفقد ثقتهم، وستدور عليه الدوائر لديهم، فتكون المحصلة أن يخسرهم، ويخسر منافعه عندهم، بالإضافة إلى خسارته لنفسه التي بين جنبيه، فقد أوردها المهالك، ووضعها مواضع الريب لدى الناس، وعرضها للفضائح، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْكَافِرِ، أَوْ الْمُنَافِقِ، فَيَقُولُ: لا أَدْرِي؛ كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لا دَرَيْتَ، وَلا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلا الثَّقَلَيْنِ).[2]

1- النساء: 145.

2- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال.

ورد في كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف)، مما قيل في ذي الوجهين:

قل للذي لست أدري من تلونه | إني لأكثر مــــما سمتني عجـــباً
تغتابني عند أقـــوام وتمـــدحني | هذان شيئان قد نافيت بينهـــما
أنا صح أم على غش يناجيني | يد تشح وأخرى منك تأســـوني
في آخرين وكـــل عنك يـــأتيني | فأكفف لسانك عن شتمي وتزييني

وقيل:

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه | كالسيل بالليل لا يدرى به أحد
الويـــل للعهد منه كيف ينقضه | على الصـــديق ولم تؤمن أفاعيه
من أين جـــاء ولا من أين يأتيه | والويل للـــود منه كيف يفنيه

وقيل فيه أيضاً:

يسعى عليك كما يسعى إليك | فلا تأمن غوائل ذي وجهين كياد[1]

هدانا الله إلى صراطه السوي المستقيم، وختم بالـصالحات أعمالنـا، ووفقنـا لمـا يحـب سـبحانه ويرضى، وجنبنا التلون في الوجوه، والنفاق في القلوب والسلوك، وصلى الله وسلم على رسـولنا الأسوة محمد، وعلى آله الكرام، وصحابته البررة، وأزواجه الطاهرات، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- كتاب المستطرف في كل فن مستظرف، للشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهي، الباب الثالث عشر، 193/1 وما بعدها.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبشر الصادق بالنجاة... ولو بعد ابتلاء وحين

روي في الحديث الصحيح (أَنَّ أَعْرَابِيًّا جاء إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ثَائِرَ الرَّأْسِ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصَّلاةِ؟ فقال: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي ما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصِّيَامِ؟ فقال: شَهْرَ رَمَضَانَ، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي ما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الزَّكَاةِ، فقال: فَأَخْبَرَهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، شَرَائِعَ الإِسْلامِ، قال: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لا أَتَطَوَّعُ شيئاً، ولا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ الله عَلَيَّ شيئاً، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَفْلَحَ إن صَدَقَ، أو دخل الْجَنَّةَ إن صَدَقَ).[1]

والصدق يعني: مطابقة القول والعمل للحقيقة والواقع الصحيح.

فقد قبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصدق شفيعاً لصاحبه حين أساء في لحظة ضعف، فلما ضبط كتاب الصحابي حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسله من المدينة المنورة إلى مشركي مكة قبل فتحها، جيء بحاطب فسأله الرسول، صلى الله عليه وسلم، عما حمله على ما صنع، فقال: (والله ما بِي أَنْ لا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، صلى الله عليه وسلم، أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ الله بها عن أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ من أَصْحَابِكَ إلا له هُنَاكَ من عَشِيرَتِهِ من يَدْفَعُ الله بِهِ عن أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: صَدَقَ؛ ولا تَقُولُوا له إلا خَيْرًا ...).[2]

فالصادق بشر، قد يتعرض لحالات ضعف، وقد يخطئ، ويرتكب الذنب، لكنه لا يتخلى عن الصدق، ولا يرتضي الكذب سبيلاً للنجاة، لأنه يعلم أنه إن أفلح بالنجاة من البشر

1- صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان.

2- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً.

بالكذب، فإنه لن ينجو من الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فحاطب بن أبي بلتعة صدق في قول الحقيقة، التي كاد يدفع حياته ثمناً لها، لولا لطف الله، وقرار الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالعفو عنه لمشاركته في بدر.

وعلى نفس نهج الصدق، الذي مدحه الله ورسوله، وطل من نافذته حاطب بن أبي بلتعة، معترفاً بالحقيقة، سار الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ومعلوم أنه تخلف عن هذه الغزوة، عدد من الناس، ولما رجع الرسول، عليه الصلاة والسلام، والصحابة منها، جاءه المعذرون بأعذارهم، فقبلها منهم، وفق معيار لنا الظاهر، والله يتولى السرائر، غير أن ثلاثة ممن تخلفوا صدقوه، فقالوا الحقيقة، التي أظهرت أنه لم يكن لهم عذر، فحاسبهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، على هذا التقصير محاسبة شعروا بقسوتها، لكنها كانت في نهاية المطاف برداً وسلاماً عليهم حين نزلت الآيات القرآنية من السماء، تبشرهم بتوبة الله عليهم، وقبول اعتذارهم، وكان من هؤلاء الثلاثة الصحابي كعب بن مالك، قال: (لم أَتَخَلَّفْ عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، في غَزْوَةٍ غَزَاهَا إلا في غَزْوَةِ تَبُوكَ... وغزوة بدر، كان من خَبَرِي أَنِّي لم أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ حين تَخَلَّفْتُ عنه في تِلْكَ الْغَزَاةِ - تبوك- والله ما اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حتى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الْغَزْوَةِ ... وَغَزَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، تِلْكَ الْغَزْوَةَ حين طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ وَتَجَهَّزَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَالْمُسْلِمُونَ معه.

فَطَفِقْتُ اغدو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ ولم أَقْضِ شيئاً، فَأَقُولُ في نَفْسِي أنا قَادِرٌ عليه، فلم يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حتى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَالْمُسْلِمُونَ معه، ولم أَقْضِ من جَهَازِي شيئاً، فقلت: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أو يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ ولم أَقْضِ شيئاً، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ ولم أَقْضِ شيئاً، فلم يَزَلْ بِي حتى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ، فَأُدْرِكَهُمْ،

وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فلم يُقَدَّرْ لي ذلك، فَكُنْتُ إذا خَرَجْتُ فِي الناس بَعْدَ خُـرُوجِ رسـول اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم، فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لا أَرَى إلا رَجُلاً مَغْمُوصاً عليه النِّفَاقُ، أو رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ الله من الضُّعَفَاءِ، ولم يَذْكُرْنِي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حتى بَلَغَ تَبُوكَ.

فقال وهو جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: ما فَعَلَ كَعْبٌ؟ فقال رَجُلٌ من بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ في عطفيه، فقال مُعَاذُ ابن جَبَلٍ: بِئْسَ ما قُلْتَ، والله يا رَسُولَ اللَّهِ ما عَلِمْنَا عليه إلا خَيْراً، فَسَكَتَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

قال كَعْبُ بن مَالِكٍ: فلما بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلاً، حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ من سَخَطِهِ غَداً، وَاسْتَعَنْتُ على ذلك بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ من أَهْلِي، فلما قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قد أَظَلَّ قَادِماً، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ منه أَبَداً بِشَيْءٍ فيه كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ.

وَأَصْبَحَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قَادِماً، وكان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فلما فَعَلَ ذلك، جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إليه، وَيَحْلِفُونَ له، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً، فَقَبِلَ منهم رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عَلانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لهم، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى اللَّهِ.

فَجِئْتُهُ، فلما سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قال: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حتى جَلَسْتُ بين يَدَيْهِ، فقال لي: ما خَلَّفَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟! فقلت: بَلَى، إني - والله يا رسول الله- لو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ من أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ من سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً، وَلَكِنِّي- والله- لقد عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فيه إني لأَرْجُو فيه عَفْوَ اللَّهِ، لا؛ والله ما كان لي من عُذْرٍ، والله ما كنت قَطُّ أَقْوَى ولا

أَيْسَرَ مِنِّي حين تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حتى يَقْضِيَ الله فِيكَ، فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ من بَنِي سَلِمَةَ، فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لي: والله ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قبل هذا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِمَا اعْتَذَرَ إليه الْمُتَخَلِّفُونَ، قد كان كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لك.

فَوَاللَّهِ ما زَالُوا يؤنبونني حتى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ، فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قلت لهم: هل لَقِيَ هذا مَعِي أَحَدٌ؟ قالوا: نعم، رَجُلانِ قالا مِثْلَ ما قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ ما قِيلَ لك. فقلت: من هُمَا؟ قالوا: مُرَارَةُ بن الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلالُ بن أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قد شَهِدَا بَدْراً، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حين ذَكَرُوهُمَا لي.

وَنَهَى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الْمُسْلِمِينَ عن كَلامِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ من بَيْنِ من تَخَلَّفَ عنه، فَاجْتَنَبَنَا الناس، وَتَغَيَّرُوا لنا، حتى تَنَكَّرَتْ في نَفْسِي الأَرْضُ، فما هِيَ التي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا على ذلك خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ؛ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا في بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أنا؛ فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ، وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ، فَأَشْهَدُ الصَّلاةَ مع الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ في الأَسْوَاقِ، ولا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأُسَلِّمُ عليه وهو في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ في نَفْسِي هل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ أَمْ لا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً منه، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فإذا أَقْبَلْتُ على صَلاتِي أَقْبَلَ إلي، وإذا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ، أَعْرَضَ عَنِّي.

حتى إذا طَالَ عَلَيَّ ذلك من جَفْوَةِ الناس مَشَيْتُ حتى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أبي قَتَادَةَ، وهو ابن عَمِّي، وَأَحَبُّ الناس إلي، فَسَلَّمْتُ عليه، فَوَاللَّهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فقلت: يا أَبَا قَتَادَةَ؛ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هل تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له، فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ،

فَعُدْتُ له، فَنَشَدْتُهُ، فقال: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حتى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

قال: فَبَيْنَا أنا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إذا نَبَطِيٌّ من أَنْبَاطِ أَهْلِ الشام مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يقول: من يَدُلُّ على كَعْبِ بن مَالِكٍ، فَطَفِقَ الناس يُشِيرُونَ له، حتى إذا جَاءَنِي دَفَعَ إلي كِتَاباً من مَلِكِ غَسَّانَ، فإذا فيه: "أَمَّا بَعْدُ؛ فإنه قد بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قد جَفَاكَ، ولم يَجْعَلْكَ الله بِدَارِ هَوَانٍ، ولا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ"، فقلت لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضاً من الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بها التَّنُّورَ، فَسَجَرْتُهُ بها.

حتى إذا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً من الْخَمْسِينَ، إذا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَأْتِينِي، فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فقلت: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قال: لا بَلْ اعْتَزِلْهَا، ولا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذلك، فقلت لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حتى يَقْضِيَ الله في هذا الأَمْرِ.

قال كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بن أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ هِلَالَ بن أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ ليس له خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ، قال: لا، وَلَكِنْ لا يَقْرَبْكِ، قالت: إنه والله ما بِهِ حَرَكَةٌ إلى شَيْءٍ، والله ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كان من أَمْرِهِ ما كان إلى يَوْمِهِ هذا.

فقال لي بَعْضُ أَهْلِي: لو اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، في امْرَأَتِكَ كما أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلَالِ بن أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فقلت: والله لا أَسْتَأْذِنُ فيها رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وما يُدْرِينِي ما يقول رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا اسْتَأْذَنْتُهُ فيها، وأنا رَجُلٌ شَابٌّ.

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذلك عَشْرَ لَيَالٍ حتى كَمَلَتْ لنا خَمْسُونَ لَيْلَةً من حين نهى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عن كَلَامِنَا.

فلما صَلَّيْتُ صَلاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وأنا على ظَهْرِ بَيْتٍ من بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أنا جَالِسٌ على الْحَالِ التي ذَكَرَ الله، قد ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سمعت صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى على جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بن مَالِكٍ أَبْشِرْ، قال: فَخَرَرْتُ سَاجِداً، وَعَرَفْتُ أَنْ قد جاء فَرَجٌ وَآذَنَ رسول اللَّه، صلى الله عليه وسلم، بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا، حين صلى صَلاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ الناس يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إلي رَجُلٌ فَرَساً، وَسَعَى سَاعٍ من أَسْلَمَ، فَأَوْفَى على الْجَبَلِ، وكان الصَّوْتُ أَسْرَعَ من الْفَرَسِ، فلما جَاءَنِي الذي سمعت صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي؛ نَزَعْتُ له ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، والله ما أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ، فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَيَتَلَقَّانِي الناس فَوْجًا فَوْجًا، يهنونني بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قال كَعْبٌ: حتى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فإذا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، جَالِسٌ حَوْلَهُ الناس، فَقَامَ إلي طَلْحَةُ بن عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حتى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، والله ما قام إلي رَجُلٌ من الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، ولا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قال كَعْبٌ.

فلما سَلَّمْتُ على رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ من السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قال: قلت: أَمِنْ عِنْدِكَ يا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ من عِنْدِ اللَّهِ؟ قال: لا بَلْ من عِنْدِ اللَّهِ، وكان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حتى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذلك منه، فلما جَلَسْتُ بين يَدَيْهِ، قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ من مَالِي صَدَقَةً إلى اللَّهِ وَإِلَى رسول اللَّهِ، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لك، قلت: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الذي بِخَيْبَرَ، فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إنما نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إلا صِدْقاً ما لقيت، فَوَاللَّهِ ما أَعْلَمُ أَحَداً من الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ الله في صِدْقِ الحديث مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه

وسلم، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى يَوْمِي هذا كَذِباً، وَإِنِّي لأرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله فِيمَا بَقِيتُ.

وَأَنْزَلَ الله على رَسُولِهِ، صلى الله عليه وسلم: {لقد تَابَ الله على النبي وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار... إلى قَوْلِهِ ... وَكُونُوا مع الصَّادِقِينَ}.[1]

فَوَ اللَّهِ ما أَنْعَمَ الله عَلَيَّ من نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ أَعْظَمَ في نَفْسِي من صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإن اللَّهَ قال لِلَّذِينَ كَذَبُوا حين أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ ما قال لأَحَدٍ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ ... إلى قَوْلِهِ ... فإن اللَّهَ لا يَرْضَى عن الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.[2]

قال كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عن أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ منهم رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حين حَلَفُوا له، فَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لهم، وَأَرْجَأَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَمْرَنَا حتى قَضَى الله فيه، فَبِذَلِكَ قال الله: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}[3] وَلَيْسَ الذي ذَكَرَ الله مِمَّا خُلِّفْنَا عن الْغَزْوِ إنما هو تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ له وَاعْتَذَرَ إليه فَقَبِلَ منه).[4]

فهذه قصة نفر من الصحابة صدقوا الله، ونزل فيهم قوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.[5]

إذ تعرضوا للشدائد والابتلاء والفتن، فثبتوا على صدقهم، ورغم أن الدنيا ضاقت عليهم

1- التوبة: 117- 119.

2- التوبة: 95- 96.

3- التوبة: 118.

4- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك.

5- التوبة: 118.

بما رحبت، لكنهم ثبتوا على صدقهم، حتى جاءهم الفرج، مبْشِراً بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْهم مُنْذُ وَلَدَتْهم أُمُّهاتهم، كيف لا، وقد بشروا بتوبة الله عليهم؟ ففرحوا بها، وعاهدوا الله، أن لا يحدثوا إلا بالصدق، حيث قال كعب بن مالك: إِنَّ اللَّهَ إنما نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إلا صِدْقاً ما لقيت، فَوَاللَّهِ ما أَعْلَمُ أَحَداً من الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ الله في صِدْقِ الحديث مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى يَوْمِي هذا كَذِباً، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله فِيمَا بَقِيتُ.

فهذا شاهد وددنا أن نسوقه للتذكير بأهمية الصدق وفضله ومجالاته، في مقابل التحذير من الكذب الذي- وللأسف - يجعل له بعض الناس يوماً سنوياً؛ هو الفاتح من نيسان، يستبيحون فيه ما حرم الله من الكذب، بالمزاح وغيره، وبعضهم استمرأ الكذب، فصار له خلقاً، حتى أصبح يعرف في الأوساط بالكذّاب، والعياذ بالله.

فليت الناس يعودون إلى رشدهم، فيتخلقون بالصدق في أقوالهم وأفعالهم، في سرهم ونجواهم، مع أنفسهم وربهم وشعوبهم وكل علاقاتهم، حتى تسود أوساطهم الطمأنينة، ويتبادلون الثقة، ويعيشون الاستقرار، بدلاً من أن ينساقوا وراء الكذب، وهو الفرية والريبة والبهتان، والضلال والإضلال.

هدانا الله لنكون مع الصادقين، الذين بشروا بالفرج والنجاة، والفوز بثقة الناس، وحب الرحمن، ورسله الكرام، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وآله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يؤكد لزوم الحرص على حفظ مال اليتيم

عن أبي ذَرٍّ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: يا أَبَا ذَرٍّ، إني أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لك ما أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثْنَيْنِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يعرب عن خطورة التهاون في مال اليتيم، بل يبدي حرصه على تجنب تولي مال يتيم، في معرض توجيهه للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه، وفي بيان المراد من النهي هنا عن تولي مال اليتيم، يقول صاحب مرقاة المفاتيح: "أي لا تقبلن ولاية مال يتيم، وفي نسخة لمسلم "على مال يتيم"؛ أي لا تكن والياً عليه؛ لأن خطره عظيم، ووباله جسيم، وهذا مثال الولاية على الواحد".[2]

وهذا الموقف النبوي ينطلق من الورع، ولا يعبر عن تحريم أو كراهة تولي مال اليتيم، فالله في قرآنه الكريم، ذكر موضوع التعامل مع مال اليتيم في أكثر من سياق، وأكثر من جانب؛ فقد حصر سبحانه مس مال اليتيم بالتي هي أحسن، فقال تعالى:{وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ...}[3]، وورد تأكيد هذا الأمر في سورة النساء، فيقول تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً}.[4]

ومعلوم أن اليتيم هو من مات أبوه ولم يبلغ الحلم، ففي هذه المرحلة العمرية يخضع لوصاية أو ولاية، فمن ابتلي بها، عليه أن يبذل جهده في حفظ مال اليتيم، ولا يخرج منه شيئاً إلا في المجالات والسبل التي يشملها وصف "التي هي أحسن"، وذلك بالتأكيد يضم

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

2- مرقاة المفاتيح، علي القاري، ج7/ص240.

3- الأنعام: 152.

4- الإسراء: 34.

التصرفات المالية التي يبرر الإنفاق فيها، بما يحقق مصلحة لليتيم، أو يقضي عنه أمراً لازماً.

وتتعلق بموضوع مال اليتيم والوصاية عليه أحكام شرعية، وتوجيهات قرآنية ونبوية عديدة، وقد سأل الصحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن كيفية التصرف في مال اليتيم؛ من حيث المسموح والممنوع، فجاءهم الجواب من الله تعالى في قوله سبحانه: {...وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[1]، وهذه الآية الكريمة التي تتضمن تلك الإجابة، أشارت إلى حال الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، وهم يقومون بدور الأوصياء على أموال اليتامى، حيث كانوا يتحرجون نتيجة اختلاطها بأموالهم، فكان يصعب عليهم عزل مال اليتيم عن أموالهم، ليتمكنوا من الإنفاق على طعام اليتيم، وحاجاته من ماله الخاص، وفي الوقت نفسه كانوا يخشون الإثم؛ جراء الاشتراك مع اليتيم في نفقة الطعام، وبعض الحاجات المختلطة، فبين الله تعالى لهم أنه إذا تحقق هدف الإصلاح والخير، لعملية تنمية مال اليتيم واستثماره، والتداخل معه في بعض النفقات، فإن هذا خير للطرفين وأفضل، فهو يرفع الحرج عن الوصي، ولا يكلفه ما لا يطيق من المسؤولية والنفقة، وهو كذلك يتيح لليتيم مجال الاندماج مع الوصي وأسرته، ومخالطتهم في معاشهم، وهذا أفضل له نفسياً واجتماعياً وتربوياً، إن تم وفق الضوابط والتوجيهات الصحيحة، من هنا فإن إباحة المخالطة بين مال الوصي وبين مال اليتيم، مع المحافظة على ضابط الإصلاح، والبعد عن الإفساد، يرفع الحرج والضيق عن المسلمين. وفي التفسير الكبير عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما أنزل الله: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[2]، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً}[3]، ذهب من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه،

1- البقرة: 220.

2- الأنعام: 152.

3- النساء: 10.

وشرابه من شرابه، فاشتد ذلك على اليتامى، فذكروا ذلك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: {... وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ}[1]، فخلطوا عند ذلك طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. قال المفسرون: الصحيح أنها نزلت في رجل من غطفان، كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ، طلب المال، فمنعه عمه، فتراجعا إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العم قال: أطعنا الله، وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير، ودفع ماله إليه، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم:" ومن يوق شح نفسه، ويطع ربه، هكذا فإنه يحل داره؛ أي جنته، فلما قبض الصبي ماله، أنفقه في سبيل الله، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: ثبت الأجر، وبقي الوزر. فقالوا: يا رسول الله، لقد عرفنا أنه ثبت الأجر، فكيف بقي الوزر، وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال: ثبت أجر الغلام، وبقي الوزر على والده".[2]

وعن نَافِعٍ، قال ما رَدَّ ابن عُمَرَ على أَحَدٍ وَصِيَّةً، وكان ابن سِيرِينَ أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إليه في مَالِ الْيَتِيمِ، أَنْ يَجْتَمِعَ إليه نُصَحَاؤُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ، فَيَنْظُرُوا الذي هو خَيْرٌ له، وكان طَاوُسٌ إذا سُئِلَ عن شَيْءٍ من أَمْرِ الْيَتَامَى قَرَأَ: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ من الْمُصْلِحِ}[3]، وقال عَطَاءٌ في يَتَامَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ: (يُنْفِقُ الْوَلِيُّ على كل إِنْسَانٍ بِقَدْرِهِ من حِصَّتِهِ).[4]

ومن جوانب حرص الإسلام على مال اليتيم، أن الله تعالى أمر بدفعه إليه سالماً من الانتقاص، وقد حذر سبحانه من التعدي عليه بأي صورة من الصور، فمنع استبدال جيده بالرديء، ومنع أكل شيء منه دون حق أو وجه مشروع، مبيناً سبحانه أن التلبس بالتعدي على مال اليتيم، هو ظلم وإثم كبيرين، ففي الآية التالية لفاتحة سورة النساء، يقول

1- البقرة: 220.

2- تفسير الثعلبي 242/3.

3- البقرة: 220.

4- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم}، وعلقه.

سبحانه: {وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً[1] كَبِيراً}.[2]

وبالنسبة للعمر الذي ترفع ببلوغه الوصاية عن اليتيم، فهو البلوغ وإيناس الرشد، حيث جعلهما الله تعالى حداً فاصلاً بين مرحلة الوصاية على اليتيم، ورفعها عنه، فقال تعالى: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى[3] حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم[4] مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً[5] وَبِدَاراً[6] أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً}[7]، ولخطورة التعدي على مال اليتيم، فقد قرن الله التحذير من اقترافه، ببيان حد رفع الوصاية عنه، بل إن الله سبحانه وتعالى شجع الغني على الاستعفاف عن الأخذ من مال اليتيم، وإذا أخذ الفقير المحتاج فيأخذ بالمعروف، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: ({وَمَنْ كان غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كان فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} أُنْزِلَتْ في وَالِي الْيَتِيمِ، أَنْ يُصِيبَ من مَالِهِ إذا كان مُحْتَاجًا بِقَدْرِ ما له بِالْمَعْرُوفِ).[8]

وأمر سبحانه كذلك بالإشهاد على قيام الولي أو الوصي بتسليم اليتيم أمواله عند رفع الوصاية عنه، لقوله تعالى: {فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً}[9]، حتى تثبت الحقوق، ولا يكون هناك لبس، أو مجال للشكوك والظنون بهذا الصدد.

وقد توعد الله من يأكل أموال اليتامى دون وجه حق، بالعذاب الأليم، الذي يتمثل بتحول بطنه- وعاء الطعام والشراب- إلى موقدة تشتعل فيها النار وتستعر، فقال تعالى: {إِنَّ

1- حُوباً: ذنباً.

2- النساء: 2.

3- ابتلوا اليتامى: أي اختبروا اليتامى قبل البلوغ في دينهم وتصرفهم في أحوالهم.

4- آنستم: أبصرتم.

5- إسرافاً: بغير حق حال.

6- بداراً: أي مبادرين إلى إنفاقها مخافة أن يكبروا، فيلزمكم تسليمها إليهم.

7- النساء: 6.

8- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب وما للوصي أن يعمل في مال اليتيم.

9- النساء: 6.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}.[1]

فالذين تسمح لهم أنفسهم بأكل مال اليتيم، فإن ما لذ من طعامهم، وطاب من شرابهم، الذي تناولوه من هذا السبيل الآثم، سينقلب ناراً تتلظى بها بطونهم، إضافة إلى نار السعير التي ستصلاها أبدانهم، وتلك صورة فظيعة مفزعة لهذا اللون من العذاب الذي آل إليه جسد من سوغ لنفسه أكل مال اليتيم بالباطل، وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ الله إلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ).[2]

وخص الله يتامى النساء ببيان لزوم أداء حقوقهن في الميراث، ومهورهن المفروضة لهن، في حال تزوجن من أحد الأوصياء، أم عن طريقه، إلى جانب الوصية العامة المتعلقة بإنصاف اليتامى والعدل لهم، فيقول تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً}[3]، وفي صحيح البخاري، أن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ، كان يحدث: (أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ، رضي الله عنها،{وَإِنْ خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا في الْيَتَامَى فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ من النِّسَاءِ}، قالت: هِيَ الْيَتِيمَةُ في حَجْرِ وَلِيِّهَا، فَيَرْغَبُ في جَمَالِهَا وَمَالِهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، بِأَدْنَى من سُنَّةِ نِسَائِهَا، فَنُهُوا عن نِكَاحِهِنَّ إلا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ في إِكْمَالِ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ من سِوَاهُنَّ من النِّسَاءِ. قالت عَائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتَى الناس رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بَعْدُ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل:{وَيَسْتَفْتُونَكَ في النِّسَاءِ قُلْ الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ} قالت: فَبَيَّنَ الله في هذه أَنَّ الْيَتِيمَةَ إذا كانت ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ، رَغِبُوا في نِكَاحِهَا، ولم يُلْحِقُوهَا بِسُنَّتِهَا، بِإِكْمَالِ الصَّدَاقِ، فإذا

1- النساء: 10.

2- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات.

3- النساء: 127.

كانت مَرْغُوبَةً عنها في قِلَّةِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، تَرَكُوهَا، وَالْتَمَسُوا غَيْرَهَا من النِّسَاءِ. قال: فَكَمَا يَتْرُكُونَهَا حين يَرْغَبُونَ عنها، فَلَيْسَ لهم أَنْ يَنْكِحُوهَا إذا رَغِبُوا فيها، إلا أَنْ يُقْسِطُوا لها الأَوْفَى من الصَّدَاقِ، وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا).[1]

وفي رواية أخرى، قال عُرْوَةُ: قالت عَائِشَةُ: (ثُمَّ إِنَّ الناس اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بَعْدَ هذه الآيَةِ، فَأَنْزَلَ الله {وَيَسْتَفْتُونَكَ في النِّسَاءِ... إلى قَوْلِهِ... وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} وَالَّذِي ذَكَرَ الله أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ في الْكِتَابِ؛ الآيَةُ الأُولَى، التي قال فيها {وَإِنْ خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا في الْيَتَامَى فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ من النِّسَاءِ} قالت عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللَّهِ في الآيَةِ الأُخْرَى {وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} يَعْنِي، هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عن يتيمته التي تَكُونُ في حَجْرِهِ، حين تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا ما رَغِبُوا في مَالِهَا وَجَمَالِهَا من يَتَامَى النِّسَاءِ، إلا بِالْقِسْطِ، من أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ).[2]

حفظ الله اليتامى وأموالهم، ويسر لهم سبل الرعاية، وجزى الله من يحفظون حقوقهم خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة الذي ولد يتيماً، ووعد كافل اليتيم بالصحبة في الجنة، وتوعد مختلس مال اليتيم بشر عذاب، وصلى الله على آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب...}.

2- صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب شركة اليتيم وأهل الميراث.

يتوعد قتلة الأبرياء

عن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً).[1]

وورد في الحديث الصحيح، قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ).[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقرر مبدأ لزوم تجنب الاعتداء على الأرواح البريئة، بغض النظر عن جنسها، ولونها، ونوعها؛ سواء أكان أصحابها مسلمين أم غير مسلمين، صغاراً أم كباراً، ذكوراً أم إناثاً، فالنفس البريئة محترمة الروح، وإزهاق الأرواح البريئة، من كبائر الذنوب والخطايا، وقد توعد الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، مرتكب هذه الجريمة، وهذا الإزهاق الآثم، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: لا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ من دِينِهِ ما لم يُصِبْ دَماً حَرَاماً).[3]

وأخبر صلى الله عليه وسلم عن فظاعة استباحة الدماء البريئة، فبين أن أول القضايا العالقة التي يبت فيها يوم القيامة، تلك التي تتعلق بالدماء، فعن عبد اللَّهِ، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالدِّمَاءِ).[4]

وقد أكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على تحريم السلوك العدواني الذي يمس الدماء والأموال والأعراض في خطبة الوداع، التي خطبها الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حجه سنة عشر هجرية، فعن أبي بَكْرٍ، رضي الله عنه، قال: (خَطَبَنَا النبي، صلى الله عليه

1- صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهد بغير جرم.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

3- صحيح البخاري، كتاب الديات.

4- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة.

وسلم، يوم النَّحْرِ، قال: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟! قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً؛ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ).[1]

إثم من يرسي منهج قتل الأبرياء

وعلى قاعدة ثواب صاحب السنة الحسنة، ووزر صاحب السنة السيئة، كما ورد في الحديث الصحيح، فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول في القتل: (لا تُقْتَلُ نَفسٌ ظُلْماً، إلا كَانَ عَلَى ابنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ)[2]، ويلحق الإثم بناءً على هذا بالذي يشجع القتل الآثم، أو يفعله، أو يساعد عليه، بصفته مرسياً لمنهج خاطئ استبيحت بموجبه حرمات، أمر الله بحفظها وصونها.

والله تعالى يشنع جريمة القتل، ويتوعد مقترفها، في مقابل ثنائه سبحانه على من يحرص على استبقاء الحياة لصاحبها، فيقول سبحانه وتعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}.[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى.

2- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة}.

3- المائدة: 32.

تبكيت الوائد وتوبيخه

يقول الله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}.[1]

يقول الألوسي في تفسيره: "وتوجيه السؤال إلى الموؤودة في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ} دون الوائد، مع أن الذنب له دونها؛ لتسليتها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها، وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغة في تبكيته، فإن المجني عليه إذا سئل بمحضر الجاني ونسبت إليه الجناية دون الجاني، كان ذلك باعثاً للجاني على التفكر في حال نفسه، وحال المجني عليه، فيرى براءة ساحته، وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب، وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض".[2]

والوأد الذي كان ابن الجاهلية يفعله، ويقع في إثمه وجريمته، ما زال بعض الناس يمارسونه بأشكال وظروف أخرى، فلا فرق بين الذي كان يدس ابنته في التراب على طريقة الوأد، وبين الذي يصحب ابنته أو أخته أو إحدى محارمه البالغة الراشدة، فيستدرجها إلى مكان خفي يغيبها فيه، حتى تلقى حتفها، أو يقوم بقتلها برصاص، أو سكين، أو بأي أداة، وهي تستصرخه مستنجدة، دون أن تجد منه أذناً صاغية، أو قلباً يرق، فينفذ فيها حكمه الشخصي، ثم يتخفى ويتستر، أو يذهب مجاهراً بفعلته، معترفاً بما اقترفت يداه، تحت زعم باطل عنوانه الحمية للشرف، وتطهير السمعة، والحقيقة أن هذه الحماقات تتماشى مع قيم الجاهلية التي كانت الحمية من أبرز عناوينها وسماتها، وقد ذم الله حمية الجاهلية، فقال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ...}[3]، فالانتصار للأنفة الباغية والمنحرفة عن جادة الصواب، يشملها مفهوم حمية الجاهلية، التي يكون من أبرز معاييرها الحرص على السمعة لدى الناس ونيل

1- التكوير: 8-9.

2- الألوسي، روح المعاني، ج30، ط4، ص52-54.

3- الفتح: 26.

رضاهم ومدحهم، وتحصيل القبول لديهم، أكثر من الحرص على رضا الله، والعمل وفق شرعه والتقيد بضوابط العلاقات التي تبينها الشريعة الربانية، وهؤلاء المستهترون بدماء الخلق، لحساب مرضاة الناس، ينطبق عليهم، ما ورد في وصف المنافقين، الذين قال الله تعالى فيهم: {...يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ...}[1]، والله يتوعد الذين يسلكون هذا السبيل المنحرف، فيقول تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.[2]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يحذر من يحرص على رضا الناس على حساب رضا الله، فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قَالَ: مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ؛ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ).[3]

تحريم الانتحار

وعلى منهج لزوم تجنب التعدي على الأرواح البريئة، فإن نفس الإنسان التي بين جنبيه، لا يملك صاحبها حق إزهاقها، فهي أمانة لديه، إن تعدى عليها بالقتل بأي صورة من الصور، أو أسلوب من الأساليب، فهو آثم وإن كان من المجاهدين في سبيل ذروة سنام الإسلام، فبدلاً من أن يكون في صف المجاهدين أو الشهداء، فإنه ينقلب على عقبه في صف أصحاب السعير، بسبب لجوئه إلى الانتحار، ومن الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة التي وردت في تحريم الانتحار، وبيان عقاب المنتحر، الذي يزهق روحاً، هي روح شخصه ونفسه، ما جاء في قوله، صلى الله عليه وسلم: (كَانَ بِرَجُلٍ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ اللَّهُ: بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)[4]، وعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:

1- النساء: 77.

2- آل عمران: 162.

3- سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، باب 64، وصححه الألباني.

4- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قتل النفس.

(وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً)[1]، وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ؛ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَطْعُنُهَا؛ يَطْعُنُهَا فِي النَّارِ).[2]

حصر استباحة القتل بأسباب مخصوصة

ومن منطلق حرص الإسلام على حفظ النفس الإنسانية، فإنه يمنع الاعتداء عليها، إلا في نطاق محصور بأسباب محدودة، أعلن عنها الإسلام بوضوح لا لبس فيه، فعن أبي قِلابَةَ، (أَنَّهُ كان جَالِسًا خَلْفَ عُمَرَ بن عبد الْعَزِيزِ، فَذَكَرُوا وَذَكَرُوا، فَقَالُوا وَقَالُوا: قد أَقَادَتْ بها الْخُلَفَاءُ، فَالْتَفَتَ إلى أبي قِلابَةَ وَهْوَ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فقال: ما تَقُولُ يا عَبْدَ اللَّهِ بن زَيْدٍ، أو قال: ما تَقُولُ يا أَبَا قِلابَةَ، قلت: ما عَلِمْتُ نَفْسًا حَلَّ قَتْلُهَا في الإِسْلامِ، إلا رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أو قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أو حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، صلى الله عليه وسلم).[3]

فالأصل أن تصان الأنفس من الأذى، وأن تحمى من القتل والإزهاق، وقد حرم الله الاعتداء عليها إلا بسبب مشروع، عن عبد اللَّهِ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ؛ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ، التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ).[4]

وقبل تقرير حكم القتل على النفس، بموجب أحد استحقاقات هذا الاستثناء، فينبغي مراعاة أمور، لا يصح تجاوزها، ومن تلك الأمور أنه لا بد من ثبوت الجريمة التي تستوجب هذا الحكم على صاحبها، بالبينة أو الإقرار، وفق الضوابط المطلوبة في دليل الإثبات، والوصف الشرعي الواجب توافره فيه، فليس كل خطأ يعاقب بالقتل، بل إن القتل عقوبة محدودة في موجباتها، وشروط تنفيذها، وهي حالة استثنائية من مبدأ حفظ النفس

1- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث.

2- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قتل النفس.

3- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ...}.

4- صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف...}.

وحمايتها، والمتدبر في شروط ثبوت استحقاق العقوبة بالقتل، يجد أنها مضيقة إلى أبعد الحدود، فقتل الزاني أو الزانية، لا يكون إلا إذا كان محصناً من زواج، فلا تنفذ عقوبة القتل على الزانية أو الزاني غير المحصن بزواج، وحتى يثبت فعل الزنى لا بد من بينة بإقرار من الفاعل، فإن لم يكن الإقرار، جاء دور البينة، التي تتمثل - هنا - بشهادة أربعة شهود على وصف واضح وصريح لما شاهدوه من الزنى، وهي بينة يصعب تصورها وتحققها إلا في حالة تتم فيها جريمة الزنى في وضع يتسم بالاستهتار والبجاحة والمجاهرة، بحيث يتاح لأربعة شهود عدول ثقات أن يبصروا فعل الفاحشة على وجه يستطيعون وصفه بمنتهى الدقة والتطابق، فإن اختلفت أقوال الشهود؛ فيتعرضون للإدانة بجريمة القذف، التي تستوجب عقوبة للقاذف لا تقل عن عقوبة الزاني، من حيث إنها عقوبة بدنية، ويدرج صاحبها في عداد الفاسقين، الذين لا تقبل لهم شهادة لطعن في عدالتهم، وقد بين الله هذه العقوبة في قرآنه الكريم، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[1]، بالإضافة إلى النص على استحقاق القاذف اللعنة الربانية، فيقول تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[2].

تحريم القتل بالشبهة والظن

يذم الإسلام اتباع الظن، لأنه لا يغني من الحق شيئاً، وعلى رأس الأمور التي يذم فيها الظن؛ تلك التي يتقرر فيها مصير الأشخاص، فعن الْمِقْدَاد بن عَمْرٍو الْكِنْدِيَّ؛ حَلِيفَ بَنِي زُهْرَةَ، وكان شَهِدَ بَدْرًا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (يا رَسُولَ اللَّهِ؛ إن لَقِيتُ كَافِراً؛ فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ يَدِي بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لاذَ بِشَجَرَةٍ، وقال: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ،

1- النور: 4.

2- النور: 23.

آقْتُلُهُ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟! قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: لا تَقْتُلْهُ، قال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ فإنه طَرَحَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قال ذلك بَعْدَ ما قَطَعَهَا، آقْتُلُهُ؟! قال: لا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ، فإنه بِمَنْزِلَتِكَ قبل أَنْ تَقْتُلَهُ، وَأَنْتَ بِمَنْزِلَتِهِ قبل أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التي قال).[1]

وقال حَبِيبُ بن أبي عَمْرَةَ، عن سَعِيدٍ، عن ابن عَبَّاسٍ قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ، فَقَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ).[2]

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ؛ وَهَذَا حَدِيثُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرُقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً، فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَقَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَقَتَلْتَهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلاحِ، قَالَ: أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا؟ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَاللَّهِ لا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ، يَعْنِي أُسَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ).[3]

فالإسلام يرفض المسارعة الطائشة إلى قتل متهم أو من تدور حوله شبهة جناية، وكان السلف الصالح يأخذون بقاعدة "لئن يقع الخطأ في العفو، أولى من أن يقع في العقوبة"، فكيف بمن يتهاون في القتل، فيرتكب جنايته لمجرد شبهة، أو ظن آثم، فلا ريب أن من يجنح لهذا السلوك الخاطئ سوف يقع في خطايا تفوق خطيئة الفاحشة، لمخالفته التوجيهات

1- صحيح البخاري، كتاب الديات.

2- صحيح البخاري، كتاب الديات.

3- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله.

الربانية والنبوية الخاصة بمنع إتباع الظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً، وأنه يقع في ظلم بريء، والظلم ظلمات يوم القيامة، وهو يتنكب شرع الله، ويزيغ عن درب الحق الخاص بضوابط إقامة الحدود وشروطها، التي من أبرزها أن الذي يقررها، قد يمثل ولي الأمر، أو قاضٍ أو جهة قضائية تخول بالتحقق من ثبوت الجرائم، وتنفيذ العقوبات الخاصة بها، بعد التثبت من وقوع موجباتها، والتحقق من توافر شروط تنفيذها، وخلوها من الشبهات التي تدرأها.

ولا شك أن ما يشاهد من اعتداءات على حياة بعض النساء على وجه الخصوص، فيقتلن في جو يخلو من التثبت والقضاء العادل، والتنفيذ السليم للأحكام الشرعية، يأتي في سياق تشويه صورة الإسلام الحنيف، وإثارة القلاقل في المجتمع، وهو فوق ذلك كله يغضب الله ورسوله، حين يتجاوز هديهما في التربية والتوجيه والقيم والتشريع.

وهذا الموقف المندد بقتل النفس البريئة على خلفيات أخلاقية مشتبه بها، ينبغي ألا يفهم على غير وجهه الصحيح، فهو لا يعني بحال من الأحوال القبول بالفاحشة، أو تسهيل وقوعها، أو استساغتها.

القصاص والدية

ومن ضمن الضوابط التي شرعها الإسلام لمحاصرة مراتع القتل، وتحجيم مواردها، أنه شرع القصاص من القاتل، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.[1]

فمن يتجاوز المشروع في القصاص، يتوعده الله بالعذاب الأليم، مع التنبيه إلى أهمية

1- البقرة: 178.

تطبيق حكم الله في القصاص من القاتل، حيث يقتل القاتل شخصياً، دون أن يعتدى على الآخرين من أقاربه، {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[1]، والقصاص بهذا يقلل من أعداد القتلى، ويزجر من تسول له نفسه فعل القتل، وبهذا يكون القصاص من مسببات الإبقاء على الحياة، وإن كان ظاهره يقضي بتنفيذ القتل بالقاتل، وهو بهذا كما قيل فيه، القتل أنفى للقتل، وأصدق ما قيل فيه، قول الله تعالى في قرآنه الكريم: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[2]

فإن عفي عن القاتل من أهل المقتول، أو وقع القتل خطأ، فيصبح حكم القتل الدية، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: (وَمَنْ قُتِلَ له قَتِيلٌ، فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ يُفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقِيدَ).[3]

سائلين الله العلي القدير أن يجنبنا الوقوع في أعـراض النـاس ودمـائهم وأمـوالهم دون حق مشروع.

وصلى الله على رسولنا الأكرم، محمد بن عبد الله، وعلى آلـه وصـحبه وأزواجـه، ومـن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الأنعام: 164.

2- البقرة: 179.

3- صحيح البخاري، كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرها (الحلقة الأولى)

عن ابن عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ).[1]

وفي رواية صحيحة أخرى، عن نَافِعٍ، عن ابن عُمَرَ، قال: (ولا أَعْلَمُهُ إلا عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ).[2]

تتناول هاتان الروايتان عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قضيتين رئيستين تتعلقان بالخمر والإسكار، إحداهما: تتعلق بتقرير أن كل مسكر خمر، والثانية: النطق بتحريم كل مسكر، وفي الرواية الثانية كل خمر، وعند استعراض هاتين القضيتين، تظهر ضرورة بيان مفهوم الخمر في ميزان حفظ العقل واحترام كرامة الإنسان، وصونه عن الامتهان، وحكم الخمر في الإسلام، وشموله لتصنيعها وبيعها وحملها وشربها، وبيان علة تحريم الخمر، وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام، واستحلال بعض الناس الخمر بعد تغيير أسمائها، وأدلة تحريم الخمر في القرآن الكريم والسنة النبوية.

مفهوم الخمر

ورد في لسان العرب أن لفظ الخمر في اللغة يعني: المقاربة والمخالطة، فخامر الشيء: قاربه وخالطه، ورجل خَمِر: خالطه داء.

1- صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام.

2- صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام.

وفيه أن الخمر: ما أسكر من عصير العنب لأنها خامرت العقل، وسميت الخمر خمراً لأنها تركت فاختمرت، واختمارها تغير ريحها، ويقال سميت بذلك لمخامرتها العقل. والخمر ما خمر العقل وهو المسكر من الشراب، وهي خمرة وخَمْر وخُمور.(1)

ويعرف القرطبي الخمر، فيقول: هو ماء العنب الذي غلى وطبخ، وما خامر العقل من غيره فهو من حكمه. (2)

وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية أن الفقهاء اختلفوا في تعريف الخمر بناءً على اختلافهم في حقيقتها في اللّغة وإطلاق الشّرع. فذهب أهل المدينة، وسائر الحجازيّين، وأهل الحديث، والحنابلة، وبعض الشّافعيّة إلى أنّ الخمر تطلق على ما يسكر قليله أو كثيره، سواءٌ اتّخذ من العنب، أم التّمر، أم الحنطة، أم الشّعير، أم غيرها... وإنّ القرآن لمّا نزل بتحريم الخمر فهم الصّحابة - وهم أهل اللّسان- أنّ كلّ شيءٍ يسمّى خمراً يدخل في النّهي، فأراقوا المتّخذ من التّمر والرّطب، ولم يخصّوا ذلك بالمتّخذ من العنب، على أنّ الرّاجح من حيث اللّغة كما تقدّم هو العموم. ثمّ على تقدير التّسليم بأنّ المراد بالخمر المتّخذ من عصير العنب خاصّةً. فإنّ تسمية كلّ مسكرٍ خمراً من الشّرع كان حقيقةً شرعيّةً، وهي مقدّمةٌ على الحقيقة اللّغويّة. وذهب أكثر الشّافعيّة، وأبو يوسف ومحمّدٌ من الحنفيّة، وبعض المالكيّة إلى أنّ الخمر هي المسكر من عصير العنب إذا اشتدّ، سواءٌ أقذف بالزّبد أم لا... وذهب أبو حنيفة وبعض الشّافعيّة إلى أنّ الخمر هي عصير العنب إذا اشتدّ. وقيّده أبو حنيفة وحده بأن يقذف بالزّبد بعد اشتداده. واشترط الحنفيّة في عصير العنب

1- لسان العرب، ابن منظور، مج5، ص152.

2- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج2، ص48-49.

كونه نيئاً. يتبيّن ممّا سبق أنّ إطلاق اسم الخمر على جميع أنـواع المـسكرات عنـد الفريـق الأوّل من باب الحقيقة، فكلّ مسكرٍ عندهم خمرٌ".[1]

الخمر في ميزان حفظ العقل واحترام كرامة الإنسان، وصونه عن الامتهان

إن مـن الغفلـة أن يعمـل بعـض النـاس بـإرادتهم وقـصدهم علـى تغييـب عقـولهم وأبصارهم وأسماعهم عن أداء ما أنيط بها من وظائف، وذلك بفعل ما يتعاطونه من مواد؛ كالخمور والمخدرات، فيصبحون بما تعاطوا كالأنعام، بل هـم أضـل منهـا في الغفلـة، والله تعالى يقول: {أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْـصَارِهِمْ وَأُولَــئِكَ هُـمُ الْغَافِلُونَ}[2]، وإعمال العقل اهتم به الإسلام، حيث دعا القرآن الكريم إلى التفكر والتدبر، تحرزاً من أن يحمل المرء عقلاً لا يعمل، وأذناً لا تسمع، وإن كانت في ظاهرها موجودة، وتبدو صالحة للاستخدام، إلا أنها مع تعطيل الدماغ الذي يحركها، ويضبط عملها، تصبح أثـراً دون مؤثر، وسراباً دون ماء يروي عطشان، أو يحيي أرضاً مواتاً، والقرآن الكريم يعـرج علـى هـذه الحيثيات، فيقول تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُـونَ لَهُـمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.[3]

وإذا ما انحط الإنسان بتعاطيه الخمر والمخـدرات، وانحـدر إلى سـبق الحيـوان في الـضلال، ومنافسته في الغفلة، فإنه يخرج من دائرة التكريم الرباني الذي تفضل الله بـه علـى بـني آدم، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُم مِّـنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}.[4]

1- الموسوعة الفقهية الكويتية، 12/5.
2- النحل: 108.
3- الحج: 46.
4- الإسراء: 70.

ومن مقتضيات تكريم الإنسان ضرورة المحافظة على إبقائه في صورة لائقة، تتناسب مع تكريم الله له، دون أن يترنح في الهذيان، بفعل يده، وبما بلع من مسكرات أو مخدرات، وهو بهذا يجحد نعمة الله التي مَنَّ بها عليه، أن جعل له قلباً وعقلاً؛ فكان من أولي الألباب، فقال سبحانه: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}[1]، وقال تعالى: {... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.[2]

وبتعاطي المسكرات والمخدرات تضيع الألباب، ويصبح المتعاطي لا يضبط قولاً ولا فعلاً، وينحط إلى أسفل مقام، وإن كان في حال صحوته يعد من كبار القوم وسادتهم المعتبرين، وأصحاب الشأن والمقام.

وإن حفظ العقل في الإسلام من أعظم المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، التي حددها العلماء في خمسة مقاصد، هي: (حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال).

حكم الخمر في الإسلام، وشموله لتصنيعها وبيعها وحملها وشربها

إن مما علم من الدين بالضرورة، أن الإسلام حرم الخمر تحريماً قاطعاً لا لبس فيه، وأنه عدها من المنكرات الكبيرة، وتوعد الله من يرتكبها بأشد العذاب، وتحريم الخمر يشمل تعاطيها، وتصنيعها، وبيعها، وشراءها، وترويجها، وتقديمها ضيافة للزائرين، وتقديم أي خدمة لها أو لمتعاطيها.

جاء في شرح النووي على صحيح مسلم: "وأما الحديث المشهور في كتب السنن عن ابن عباس أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكْلَ

1- الزمر: 9.

2- الرعد: 4.

شَيْءٍ، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ)[1]، فمحمول على ما المقصود منه الأكل، بخلاف ما المقصود منه غير ذلك؛ كالبغل والحمار الأهلي، فإن أكلها حرام، وبيعها جائز بالإجماع، وقوله، صلى الله عليه وسلم: فمن أدركته هذه الآية، أي أدركته حياً وبلغته، والمراد بالآية قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ}[2] الآية، قوله: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها في طريق المدينة، فسفكوها، هذا دليل على تحريم تخليلها، ووجوب المبادرة بإراقتها، وتحريم إمساكها، ولو جاز التخليل لبيّنه النبي، صلى الله عليه وسلم، لهم، ونهاهم عن إضاعتها، كما نصحهم وحثهم على الانتفاع بها قبل تحريمها، حين توقع نزول تحريمها، وكما نبه أهل الشاة الميتة على دباغ جلدها والانتفاع به، وممن قال بتحريم تخليلها، وأنها لا تطهر بذلك، الشافعي، وأحمد، والثوري، ومالك في أصح الروايتين عنه، وجوزه الأوزاعي، وأبو حنيفة، ومالك في رواية عنه، وأما إذا انقلبت بنفسها خلاً، فيظهر عند جميعهم، إلا ما حكي عن سحنون المالكي أنه قال: لا يطهر".[3]

الإسكار علة تحريم الخمر

من معاني الخمر يتبين أن مفهوم الخمر الحرام يتعلق بعلة محدودة، وهي السكر، الذي يغطي العقل، أو يحجبه عن أداء دوره ووظيفته التي خلقه الله من أجل أدائها، وهو بهذا يشمل كل أنواع المواد التي تفضي إلى الإسكار، بغض النظر عن مسمياتها، وموادها، وأشكالها، وطريقة تناولها، فمن تلك المواد ما هو جامد، ومنها المائع، ومنها ما يتم تناوله بالشرب، ومنها بالأكل، ومنها بالحقن، والخمر يشمل كل نوع من ذلك إذا توافرت فيه

1- سنن أبي داود كتاب الإجارة، باب في ثمن الخمر والميتة، وصححه الألباني.

2- المائدة: 90.

3- صحيح مسلم بشرح النووي، ج11، ص3.

العلة الموصوفة المنضبطة، وهي الإسكار، الذي هو علة تحريم الخمر، بغض النظر عن أصلها ومواد تصنيعها، وبغض النظر عن أسمائها ومسمياتها وطريقة تصنيعها، فعن أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، رضي الله عنه، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَعَثَهُ إلى الْيَمَنِ، فَسَأَلَهُ عن أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بها، فقال: وما هِيَ؟ قال: الْبِتْعُ وَالْمِزْرُ، فقلت لأَبِي بُرْدَةَ: ما الْبِتْعُ؟ قال: نَبِيذُ الْعَسَلِ، وَالْمِزْرُ نَبِيذُ الشَّعِيرِ، فقال: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ).[1]

وما تذكره الروايات من أنواع الخمور وموادها، لا يعني الحصر، وإنما هناك من المواد والأنواع التي سكتت الروايات عن ذكرها، كما أن الزمان وتقدمه كفيل باستحداث الجديد والعديد منها، وقد نبهت بعض الأخبار والروايات إلى هذا الجانب، فالصحابي أنس بن مالك، رضي الله عنه، يشير إلى نوعين من مواد الخمور التي عرفت في زمانه، في إشارة إلى إمكانية أن تعرف مواد جديدة أخرى بعد ذلك، بدليل أنه حين ذكر النوعين في حديثه، بيّن أن منهما كانت تصنع الخمر في الأيام التي كان يعيشها، فعن أَنَسَ بن مَالِكٍ، حَدَّثَ: (أَنَّ الْخَمْرَ حُرِّمَتْ، وَالْخَمْرُ يَوْمَئِذٍ الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ).[2]

فعاملا الزمان والمكان يؤثران في عدد الموجود من أصناف الخمر وأشكالها ومسمياتها وأوصافها، وبالتالي ليس هذا هو المهم، بقدر أهمية وجود علة الإسكار فيها، والرسول، صلى الله عليه وسلم، ركز على علة الإسكار، ولم تهمه المسميات، إذ المسكر يعطل العقل عن العمل، أو يشوش عمله، فلا تصدر الأعمال أو الأقوال منتظمة من شخص مع وجود أثر الإسكار عليه.

1- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع.

2- صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر.

ما أسكر كثيره فقليله حرام

إن من أحكام الخمر في الإسلام، أنـه لم يجعـل تحريمهـا نـسبياً، يخـص بعـض الظـروف والأشخاص، بل ربط التحريم بعلة الإسكار، بغض النظر عن الكمية التي يحتاجها المـرء حتى توصله إلى حالة السكر، فبعض الناس قد يسكر بمواد، ولا يسكر بأخرى، وقد يسكر بعض الناس بقليل الخمر، وبعضهم يلزمه الكثير حتى يسكر به، لكن الإسلام قرر أن ما يسكر كثيره، فقليله حرام، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَا أَسْكَرَ كَـثِيرُهُ؛ فَقَلِيلُـهُ حَرَامٌ).[1]

استحلال بعض الناس الخمر بعد تغيير أسمائها

يسول الشيطان إلى بعض الناس اللجـوء إلى التحايـل لارتكـاب المحظـورات الـشرعية، فيزين لهم اقترافها بمبررات شتى، وورد في صحيح البخاري، بَاب مـا جـاء فِـيمَنْ يَـسْتَحِلُّ الْخَمْرَ وَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ الأَشْعَرِيُّ، قَالَ: (حَدَّثَنِي أَبُـو عَـامِرٍ أَوْ أَبُو مَالِكٍ الأَشْعَرِيُّ، وَاللَّهِ مَا كَـذَبَنِي، سَـمِعَ النَّبِـيَّ، صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، يَقُـولُ: لَيَكُونَنَّ من أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيـرَ وَالْخَمْـرَ وَالْمَعَـازِفَ...)[2]، والتحايـل سبيل آثم، يحاول صاحبه أن يخدع الله والناس مـن خلالـه، وهـو في الحقيقـة مـا يخـدع إلا نفسه، قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ}[3]، وعلى درب التحايل كان تعدي بني إسرائيل لحرمة السبت، فقال تعـالى: {واَسْـأَلْهُمْ عَـنِ

1- سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، وصححه الألباني.

2- صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه.

3- البقرة: 9.

الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.[1]

أدلة تحريم الخمر في القرآن الكريم والسنة النبوية

الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الأحاديث الصحيحة سالفة الذكر، أعلن بوضوح لا لبس فيه، أن المسكر حرام، وأن المسكر خمر، وأن الخمر حرام، ولم يترك القرآن الكريم الخمر دون بيان لحكمها، فقد نزلت آيات قرآنية في الخمر على مراحل مختلفة، فكان أول ما نزل في ذكرها، قوله تعالى: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.[2]

ثم جاء بعض الصحابة يسألون عن حكم الخمر، وكأنهم كانوا ينتظرون أن ينزل فيها حكم رباني يمنعهم عنها، لما كانوا يلمسون من آثارها السلبية على شاربها، وعلى علاقاتهم الأسرية والمجتمعية، فنزل قرآن يذكر هذا السؤال وجوابه، فقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}.[3]

ثم جاءت مرحلة النهي عن قرب الصلاة حال السكر، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء

1- الأعراف: 163.

2- النحل: 67.

3- البقرة: 219.

فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً }.[1]

ثم نزل الحسم القاطع بتحريمها، المتضمن في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}.[2]

وعن أنسٍ، رضي الله عنه، (أَنَّ الْخَمْرَ التي أُهْرِيقَتْ الْفَضِيخُ، وَزَادَنِي مُحَمَّدٌ عن أبي النُّعْمَانِ قال: كنت سَاقِيَ الْقَوْمِ في مَنْزِلِ أبي طَلْحَةَ، فَنَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى، فقال أبو طَلْحَةَ: أخرج، فَانْظُرْ ما هذا الصَّوْتُ، قال: فَخَرَجْتُ، فقلت: هذا مُنَادٍ يُنَادِي ألا إِنَّ الْخَمْرَ قد حُرِّمَتْ، فقال لي: اذْهَبْ، فَأَهْرِقْهَا، قال: فَجَرَتْ في سِكَكِ الْمَدِينَةِ، قال: وَكَانَتْ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ، فقال بَعْضُ الْقَوْمِ: قُتِلَ قَوْمٌ وَهْيَ في بُطُونِهِمْ، قال: فَأَنْزَلَ الله {ليس على الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا})[3].

وإلى لقاء في الحلقة القادمة، للوقوف عند تفاصيل خاصة بالقرائن والدلالات التي تضمنتها الأدلة على تحريم الخمر.

وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطيبين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- النساء: 43.

2- المائدة: 90-91.

3- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب قوله تعالى: {ليس على الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا}.

يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرها (الحلقة الثانية)

عن ابن عُمَرَ، قال: سمعت عُمَرَ، رضي الله عنه، على مِنْبَرِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الناس؛ إنه نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، وَهْيَ من خَمْسَةٍ؛ من الْعِنَبِ، وَالتَّمْرِ، وَالْعَسَلِ، وَالْحِنْطَةِ، وَالشَّعِيرِ، وَالْخَمْرُ ما خَامَرَ الْعَقْلَ).[1]

يذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في هذا الحديث تحريم الخمر، والمواد التي تصنع منها وقتئذ، ويضع قاعدة لتحريمها تنص على أن الخمر كل ما خامر العقل.

وجاء ذكر تنوع المواد والأصول التي يمكن أن تصنع منها الخمر والمسكرات، في هذا الحديث ليس على سبيل الحصر، فقد تصنع الخمر من غيرها، فتأخذ حكمها، إذا اشتركت معها في علة التحريم، وهي الإسكار، والحديث الذي بين أيدينا ينص على أمرين آخرين، أحدهما؛ أن الخمر ما خامر العقل، وثانيهما؛ أن حكم الخمر هو التحريم، وهو ما انتهت إليه آخر الآيات القرآنية نزولاً بشأن حكم الخمر، حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}.[2]

1- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}.

2- المائدة: 90-91.

قرائن قرآنية على تحريم الخمر

يذكر الرازي في التفسير الكبير[1] وجوهاً للدلالة على تحريم الخمر في الآية الكريمة سالفة الذكر، منها:

* تصدير الجملة بإنما؛ فهذه الكلمة للحصر، فكأنه تعالى قال: "لا رجس، ولا شيء من عمل الشيطان إلا هذه الأربعة"، وحصر الرجس وعمل الشيطان بها، يدل على مدى إثمها، وهل يعقل بعد ذلك أن تكون الخمر من المباحات أو المكروهات؟!

* أن الآية المذكورة آنفاً جمعت الخمر والميسر وَالأَنصَاب وَالأَزْلاَم معاً، وقرنت تلك المذكورات بالذكر والحكم، ولا يمكن لأحد أن يزعم إباحة الميسر والأنصاب والأزلام، فكيف يتصور القول بإباحة المذكور الرابع وهو الخمر؟!! فالله تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان، ومنه قوله، صلى الله عليه وسلم: (شارب الخمر كعابد وثن).[2]

وعن سبب جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام، ثم إفرادهما في آخر الآية؛ يقول الرازي في تفسيره: إن الخطاب في هذه الآية للمؤمنين، والمقصود نهيهم عن الخمر والميسر، وإظهار أن هذه الأربعة متقاربة في القبح والمفسدة، فلما كان المقصود من هذه الآية النهي عن الخمر والميسر، أفردهما بالذكر بعد أن ضم إليهما الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد قبحهما.

* أنها وصفت الخمر والميسر وَالأَنصَاب وَالأَزْلاَم بـ{الرِجْس}، وهو في اللغة كل ما استقذر من عمل، يقال: رجس الرجل رجساً، ورجس إذا عمل عملاً قبيحاً، وكان كامل الرتبة في القبح.

1- التفسير الكبير، الرازي، 68/12.

2- مسند البزار، 367/6، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم 3701

* أنها وصفت الخمر والميسر وَالأَنصَاب وَالأَزْلاَم بـأنها {مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}، وهذا أيضاً مكمل لكونها رجساً؛ لأن الشيطان نجس خبيث؛ لأنه كافر، والكافر نجس؛ لقوله: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}[1]، والمراد من الإضافة إلى الشيطان المبالغة في كمال قبحه.

* أنها أمرت باجتناب الرجس، وعمل الشيطان المتمثل في الخمر والميسر وَالأَنصَاب وَالأَزْلاَم بلفظ {فَاجْتَنِبُوهُ}، والاجتناب أشد أثراً ووقعاً من مجرد قول: حرمت عليكم، أو ما شابه؛ لأن الاجتناب يشمل الامتناع عن الشرب والقرب منها، بأي شكل من أشكال القرب، سواء بالبيع أم الصنع أم الحمل أم الاقتناء...إلخ. وظاهر الأمر بالاجتناب يفيد الوجوب. والهاء في {فَاجْتَنِبُوهُ} عائدة إلى ماذا؟ فيه وجهان:

الأول: أنها عائدة إلى الرجس، والرجس واقع على الأربعة المذكورة، فكان الأمر بالاجتناب متناولاً للكل.

الثاني: أنها عائدة إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما شابه ذلك، ولذلك قال: {رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}

* أنها حفّزت على اجتناب الخمر بفتح باب الفلاح لمن ينأى بنفسه عنها، فقال تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فجعل الله اجتنابها من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً، كان الارتكاب خيبة.

* وفي الآية التالية، بيّن الله تعالى بعض مضار الخمر والميسر وسلبياتهما على العلاقات القائمة بين المسلمين، فقال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ}، وهذا الأثر السلبي يشاهده من قدر له الاطّلاع على الأسرة التي يتعاطى أحد أفرادها المسكرات، كيف تشتعل المشاكل فيها، يقول الرازي في تفسيره:

1- التوبة: 28.

أما الخمر؛ فاعلم أن الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة، ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه، ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة، إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل، استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما، تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء، فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب، يوجب تأكيد الألفة والمحبة، لكن تلك الغاية تنقلب بفعل الخمر إلى العداوة والبغضاء.

وأما الميسر؛ فإن من صار مغلوباً في القمار مرة، دعاه ذلك إلى اللجاج فيه؛ طمعاً في أن يصير غالباً فيه، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال، وإلى أن يقامر على لحيته، وأهله، وولده، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيراً مسكيناً، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له، فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح الناس وخيرهم.

* ومن سلبيات الخمر والميسر أن الشيطان يَصُد بها المؤمنين عن ذِكْرِ اللّهِ، وعن الصلاة. وهاتان القرينتان تتعلقان بالمفاسد المتعلقة بالدين، التي تنتج عن الخمر والميسر، فَمَنْعُ شرب الخمر عن ذكر الله ظاهر؛ لأن شرب الخمور يورث الطرب واللذة الجسمانية، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية، غفلت عن ذكر الله تعالى. وأما أن الميسر مانع عن ذكر الله

وعن الصلاة؛ فذلك لأنه إن كان غالباً، صار استغراقه في لذة الغلبة مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

فالقرآن الكريم بين أنواع المفاسد المتولدة من الخمر في الدنيا والدين؛ وهي وقوع المعاداة والتباغض بين الخلق، وحصول الإعراض عن ذكر الله تعالى، وعن الصلاة.

* وبعد الإتيان بتلك القرائن القوية على بشاعة الخمر وفظاعة شرها، تسأل الآية الكريمة المؤمنين الذين سيقت لهم هذه القرائن وتدبروا فيها، عن حقيقة انتهائهم عنها، {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}، وورد في كتب التفسير، أن هذا القول أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي (انتهوا)، وقد تقرر في فن المعاني أن من معاني صيغة الاستفهام التي ترد لها، الأمر، كقوله: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ}[1]، وقال الفرّاء هذا أمر في لفظ الاستفهام.

يقول الرازي: إن هذا وإن كان استفهاماً في الظاهر، إلا أن المراد منه هو النهي في الحقيقة، وإنما حسن هذا المجاز؛ لأنه تعالى ذم هذه الأفعال، وأظهر قبحها للمخاطب، فلما استفهم بعد ذلك عن تركها، لم يقدر المخاطب إلا على الإقرار بالترك، فكأنه قيل له أتفعله بعدما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر؟ فصار قوله: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ} جارياً مجرى تنصيص الله تعالى على وجوب الانتهاء، مقروناً بإقرار المكلف بوجوب الانتهاء.

فكيف بعد هذه القرائن يمكن لذي بصيرة أن يزعم أن القرآن لم ينص على تحريم الخمر؟!!!

1- أضواء البيان، الشنقيطي، ج2، ص405.

الحكمة من التدرج في تنزيل آيات تحريم الخمر

يذكر الرازي في تفسيره الكبير عن القفال، رحمه الله[1]: أن الحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب، أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم أنه استعمل في التحريم هذا التدرج، وهذا الرفق، ومن الناس من قال بأن الله حرم الخمر والميسر بهذه الآية، ثم نزل قوله تعالى: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ}، فاقتضى ذلك تحريم شرب الخمر وقت الصلاة؛ لأن شارب الخمر لا يمكنه أن يصلي إلا مع السكر، فكان المنع من ذلك منعاً من الشرب ضمناً، ثم نزلت آية المائدة، فكانت في غاية القوة في التحريم وعن الربيع بن أنس، أن هذه الآية نزلت بعد تحريم الخمر. ولذلك فهم الصحابة - وهم أرباب اللغة والفقه - دلالة التحريم منها، فقالوا: انتهينا انتهينا، فعن أبي ميسرة، عن عمر، قال: (لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ: الآية الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَدُعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى}، فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَقَامَ الصَّلاةَ نَادَى: لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى، فَدُعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدُعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}، قَالَ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انْتَهَيْنَا، انْتَهَيْنَا).[2]

سائلين الله العلي القدير أن يهدي من لم ينته بعد عن شرب الخمر لينتهي عنه، وينوب إلى الله، تائباً عازماً أن لا يعود إليها أبداً. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- التفسير الكبير، 35/6.

2- سنن النسائي، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، وصححه الألباني.

تحريم المخدرات كما حرمت الخمر

عن أم سلمة، قالت: (نَهَى رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِرٍ).[1]

المفتر هو الذي إذا شرب، أحمى الجسد، وصار فيه فتور، وهو ضعف وانكسار، يقال: أفتر الرجل فهو مفتر إذا ضعفت جفونه، وانكسر طرفه، فإما أن يكون أفتره بمعنى فتره أي جعله فاتراً، قال الطيبي: لا يبعد أن يستدل به على تحريم البنج والشعثاء ونحوهما مما يفتر ويزيل العقل؛ لأن العلة وهي إزالة العقل مطردة فيها، وقال في مرقاة الصعود: يحكى أن رجلاً من العجم قدم القاهرة، وطلب الدليل على تحريم الحشيشة، وعقد لذلك مجلساً حضره علماء العصر، فاستدل الحافظ زين الدين العراقي بهذا الحديث، فأعجب الحاضرين.[2]

وقد ورد عن العلماء في حكم تعاطي المخدرات اتفاقهم في مختلف المذاهب الإسلامية على حرمة تناول القدر المؤثر على العقل من المواد والعقاقير المخدرة، فيحرم تعاطيها بأي وجه من الوجوه سواء كان بطريق الأكل أم الشرب، أم التدخين، أم السعوط، أم الحقن، بعد إذابتها، أو بأي طريق كان، واعتبر العلماء ذلك كبيرة من كبائر الذنوب.

ويستحق مرتكبها المعاقبة في الدنيا وفي الآخرة ... ومن كلامهم في ذلك: قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، مجيباً لمن سأله عن حكم تناول الحشيش: "هذه الحشيشة الصلبة حرام، سواء سكر منها أم لم يسكر، ومن استحل ذلك، وزعم أنه حلال، فإنه

1- سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، وقال الألباني ضعيف.

2- عون المعبود، العظيم أبادي، ج10، ص91.

يستتاب، وإلا قتل مرتداً، لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين"[1]. وقال في موضع آخر: "وهي بالتحريم أولى من الخمر؛ لأن ضرر آكل الحشيشة على نفسه أشد من ضرر الخمر".[2]

وقال الذهبي، رحمه الله: "والحشيشة المصنوعة من ورق القنب حرام كالخمر، يحد شاربها، كما يحد شارب الخمر، وهي أخبث من الخمر".[3]

واستدل ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، بمطلق قوله: (كل ما يسكر حرام) على تحريم المسكر، ولو لم يكن شراباً، فيدخل في ذلك الحشيشة ...إلخ.[4]

وقال ابن القيم، رحمه الله، ما خلاصته: "إن الخمر يدخل فيها كل مسكر، مائعاً كان أو جامداً، عصيراً أو مطبوخاً، فيدخل فيها لقمة الفسق والفجور- ويعني بها الحشيش- لأن هذا كله خمر بنص رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أن كل مسكر خمر".[5]

وصح عن أصحابه الذين هم أعلم الأمة بخطابه ومراده أن الخمر ما خامر العقل، فيشمل كل مائع أو جامد، إن أفضى أخذه إلى تغييب العقل عن أداء وظيفته في التفكير.

وبناء على هذا؛ فإن الحكم الشرعي للمخدرات أنها "حرام " ودليل هذا الحكم النص، لأنها داخلة في عموم المسكرات أو بالقياس على الخمر لاتحادهما في علة الحكم وهي الإسكار، أو لما في المخدرات من الأضرار الفردية والاجتماعية. ودخولها في عموم المسكرات قائم على أساس أن كثيراً من العلماء والأطباء يؤكدون على أن تأثير المخدرات كتأثير الخمر على العقل من ناحية الإسكار، وهي مشمولة بالنهي عن كل مفتر، فقد روي عن أم سلمة، رضي الله عنها، (أن النبي، صلى الله عليه وسلم، نهى عن كل مسكر ومفتر).[6]

1- مجموع فتاوى ابن تيمية، 210/34.

2- المصدر السابق، 224/34.

3- الكبائر، الذهبي، ص86.

4- فتح الباري، ابن حجر، 45/10.

5- أنظر: زاد المعاد، ابن القيم، 747/5.

6- سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، وقال الألباني: ضعيف.

فالمخدرات كالخمر، حيث إن كليهما يخامر العقل ويحجبه، وقياس المخدرات على الخمر، قياس صحيح، لاشتراكها في علة التحريم، المتمثلة في الإسكار، وحجب العقل والذهاب به، تلك هي علة تحريم الخمر، وهي في المخدرات حاصلة وموجودة، فتأخذ حكم الخمر وهو التحريم.

وينبغي التنبيه إلى أن البيئة الإسلامية ظلت نظيفة من المخدرات قروناً عدة، ولم يعرف المسلمون النباتات المخدرة إلا بعد أن وفدت إليهم شعوب أخرى. فلما عرفها الفقهاء أفتوا فيها بتحريم تعاطيها، فهي لم تكن في زمانهم الأول، وإنما ظهرت في أواخر المائة السادسة، وانتشرت في دولة التتار . لهذا لم يستخدم الفقهاء لفظ المخدرات إلا في القرن العاشر الهجري.

أما قبل ذلك فقد تحدثوا عن الحشيش والأفيون وغيرهما من المواد، وذكروها ضمن المواد المفترة أو المواد المسكرة، وقد حفلت كتب الفقه الإسلامي بآرائهم واجتهاداتهم في تحريم الحشيش والأفيون تحريماً قاطعاً، وقد نقلنا نماذج منها.

وتحريم المخدرات مثل الخمر يشمل منع تعاطيها، وبيعها وصنعها وتقديمها وحملها، بغض النظر عن بعض المبررات التي يحاول بعض المسلمين أن يستبيحوا بسببها شيئاً من هذا، كمجاملة الأجانب، ومنع الإحراج عند استضافتهم أو زيارتهم، أو مقتضيات العمل، أو طلباً للرزق وتسويق بعض المنتجات الزراعية، أو طمعاً في تحسين الدخل والتنمية والاستثمار، وكل ذلك من مزينات اختراق حاجز الحرام، والوقوع في مراتع الإثم، يقف من ورائها الشيطان وأعوانه، في كل زمان ومكان.

يوسوس الشيطان إلى بعض الناس ليقولوا: إن المسكرات والمخدرات لا ينص على تحريمهما آية ولا حديث قاطع، ومن أبسط ما يرد على القائلين بهذا، وعلى شياطينهم، التنبيه إلى أن القرآن والحديث فيهما كلمات جامعة، هي قواعد عامة، وقضايا كلية،

تتناول كل ما دخل فيها، فما لم يذكر باسمه العام، ذكرت قواعد تشمله، وما لم يذكر بلفظ معين، ذكرت قرائن لغوية وبيانية وفقهية تشمله. يقول الإمام القرطبي، رحمه الله: "لو التزمنا ألا نحكم بحكم حتى نجد فيه نصاً، لتعطلت الشريعة، فإن النصوص قليلة. وإنما هي الظواهر والعموميات والأقيسة".[1]

إن أضرار تعاطي المسكرات والمخدرات، لا تعد ولا تحصى، ويلمس بعضها من ابتلي بمخالطة بعضاً من أهلهما أو معايشتهم. وفي الحديث أن (أبا بكر الصديق وعمر ابن الخطاب، رضي الله عنهما، وناساً من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جلسوا بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم فيها علم ينتهون إليه، فأرسلوني إلى عبد الله بن عمرو أسأله عن ذلك، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر، فأتيتهم فأخبرتهم، فأنكروا ذلك، ووثبوا إليه جميعاً حتى أتوه في داره، فأخبرهم أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: إن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أخذ رجلاً، فخيره بين أن يشرب الخمر، أو يقتل نفساً، أو يزني، أو يأكل لحم الخنزير، أو يقتلوه إن أبى، فاختار أن يشرب الخمر، وأنه لما شربها لم يمتنع من شيء أرادوه منه، وأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لنا مجيباً: ما من أحد يشربها، فيقبل الله له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت وفي مثانته منها شيء، إلا حرمت عليه بها الجنة، فإن مات في أربعين ليلة، مات ميتة جاهلية).[2]

وينبغي أن نعلم علم اليقين أن أعداء الإسلام يستفيدون من ترويج المخدرات في أوساطنا، وبين شبابنا، كيف لا؟! وإن من يقع في أسرها يصبح عبداً لها، ومنساقاً في طلبها، غير آبه بالثمن الذي يدفعه في سبيلها، حيث يصل الثمن إلى بيع العرض والوطن

1- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 289/6.

2- المستدرك على الصحيحين، ج4، ص163، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

والكرامة، إضافة إلى ذهاب قوة المسلمين بضياع أعمدتها وأركانها، وهم شبابها ورجالها ونساؤها.

إن من معالجة آفة المخدرات تقصي أسباب انتشارها، وتشخيص أوضاع متعاطيها وظروفهم، فالبطالة والفراغ والمشاكل الاجتماعية والفشل الدراسي والأسري من مسببات السقوط في حبال هذه الآفة الفتّاكة، إضافة إلى الفقر أو الغنى والترف، ومتابعة اللهو، فينبغي إيجاد الحلول والمعالجة للأسباب، والتعاون في استخدام الأساليب والوسائل الناجعة في معالجتها والوقاية منها. وهذا يتطلب تعاون كل الأوساط بداية من الأسرة، ومروراً بالمدرسة، ومؤسسات المجتمع المدني، والجهات المسؤولة؛ سواء الأمنية منها أم المدنية، كالتربية والتعليم، والشؤون الاجتماعية، والصحة والبيئة، والأوقاف، وخطباء المساجد، وقادة المجتمع وأفراده.

فالمشكلة من هذا النوع لا ينحصر واجب مواجهتها على الأقربين والمحيطين الملاصقين بها، وإنما ينبغي أن تتضافر كل الجهود في مؤازرة من يسعى لمقاومة هذه الآفة أو من يقع في وبالها، فخطرها واسع وعظيم، وتصيب آثاره الجميع، لأن خطر التعرض للضرر الناتج عنها سواء بالعدوى به، أو بالاكتواء بناره، قد يداهم أي فرد، أو أسرة، أو فئة في المجتمع، وفي حديث القوم الذين استهموا في السفينة درس لنا وفائدة، ينبغي التنبه إليه في هذا المقام.

أعاذنا الله والمسلمين والناس أجمعين من خطر المسكرات والمخدرات وإثمهما، ونسأله سبحانه أن يهدي من لم ينته بعد عن تعاطي المخدرات والاتجار بها، لينتهي عن ذلك، وينوب إلى الله، تائباً عازماً أن لا يعود إليها أبداً. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قالوا: ولا أنت يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: ولا أنا، إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا، وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ من الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ، الْقَصْدَ تَبْلُغُوا).[1]

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف أن النجاة الحقيقية يوم القيامة لا تتحقق للمرء بحصاد أعماله، مهما بلغت من الصلاح والحسن، وإنما تكون برحمة الله ولطفه سبحانه، وفي سياق هذا البيان؛ يحث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الاعتدال والتوازن بين الأمور المطلوبة والمشروعة، من خلال الحث على التسديد والمقاربة، وعلى الغدو والرواح والدلجة والقصد، وفي المقصود من السداد والمقاربة في هذا الحديث، يقول ابن حجر العسقلاني: إن معنى سددوا: اقصدوا السداد؛ أي الصواب، ومعنى هذا الاستدراك أنه قد يفهم من النفي المذكور نفي فائدة العمل، فكأنه قيل: بل له فائدة، وهو أن العمل علامة على وجود الرحمة التي تدخل العامل الجنة، فاعملوا واقصدوا بعملكم الصواب، أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره ليقبل عملكم، فينزل عليكم الرحمة. وقوله وقاربوا: أي لا تفرطوا، فتجهدوا أنفسكم في العبادة، لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال، فتتركوا العمل، فتفرطوا.[2]

ويذكر ابن حجر عن ابن حزم أن معنى الأمر بالسداد والمقاربة أنه صلى الله عليه وسلم،

1- صحيح البخاري، كِتَاب الرِّقَاقِ، باب القصد والمداومة على العمل.

2- فتح الباري، ج11، ص297.

أشار بذلك إلى أنه بُعث ميسراً مسهلاً، فــأمر أمتــه بأن يقتصــدوا في الأمــور؛ لأن ذلك يقتضي الاستدامة عادة.[1]

ويمضي ابن حجر في استنباط دلائل الاعتدال التي يشملها هذا الحديث الشريف، فيقول في الغدو والرواح والدلجة: إن الغدو هو السير من أول النهار، والرواح السير من أول النصف الثاني من النهار، والدلجة هو سير الليل، يقال: سار دلجة من الليل أي ساعة، فلذلك قال شيئاً من الدلجة لعسر سير جميع الليل، فكأن فيه إشارة إلى صيام جميع النهار، وقيام بعض الليل، وإلى أعم من ذلك من سائر أوجه العبادة، وفيه إشارة إلى الحث على الرفق في العبادة، وعبر بما يدل على السير؛ لأن العابد كالسائر إلى محل إقامته وهو الجنة.

وقوله: والقصد، القصد بالنصب على الإغراء؛ أي الزموا الطريق الوسط المعتدل.[2]

كانت خطبته وصلاته قصداً

عن جَابِرِ بن سَمُرَةَ، قال: (كنت أُصَلِّي مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَكَانَتْ صَلاتُهُ قَصْداً، وَخُطْبَتُهُ قَصْداً)[3]، يقول الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم: "فَكَانَتْ صَلاتُهُ قَصْداً، وَخُطْبَتُهُ قَصْداً، أي بين الطول الظاهر والتخفيف الماحق"[4]، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يثقل على من يسمع خطبته بطول الخطبة، وكان يراعي ضعف من يصلي وراءه، فيقرأ في صلاته ما يطيقون، وإذا ما خلا في صلاته وحده قرأ وأطال.

1- فتح الباري، ج11، ص300.
2- فتح الباري، ج11، ص298.
3- صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.
4- صحيح مسلم بشرح النووي، ج6، ص153.

وفي المستدرك على الصحيحين، عن جابر بن سمرة السوائي، قال في وصف خطبة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصلاته: (إنه كان يقول كلاماً يعظ به الناس، ويقرأ آيات من كتاب الله، ثم ينزل، وكانت قصداً، يعني خطبته، وكانت صلاته قصداً بنحو الشمس وضحاها، والسماء والطارق).[1]

ذم التنطع

لقد ذم الرسول، صلى الله عليه وسلم، التنطع في المواقف، والتطرف فيها، والمغالاة في الأمور، فحذر من عاقبة التنطع، فعن عبد اللَّهِ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلاثاً)[2]، والمتنطعون هم: المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.[3]

فالتنطع من السلوك يخرج صاحبه عن منهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهذا يجلب الهلاك والوبال، والبعد عن الانتماء إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، والانتساب إلى دينه القويم، وفي مثال الثلاثة رهط الذين جاءوا يسألون عن عبادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، دليل على لزوم اختيار منهج الاعتدال في الأمور، حتى لو كانت في ظاهرها تعبدية وزهدية في الحياة، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه: (أنه جاء ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي، صلى الله عليه وسلم؟ قد غُفِرَ الله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا؛ فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً، وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ، ولا أُفْطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فلا أَتَزَوَّجُ أَبَداً، فَجَاءَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: أَنْتُمْ

1- المستدرك على الصحيحين، ج1، ص423، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

2- صحيح مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون.

3- صحيح مسلم بشرح النووي، ج16، ص220.

الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا واللهِ؛ إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي).[1]

رفض التطرف والمغالاة في العبادة وغيرها

يظهر الحديث النبوي الشريف المذكور آنفاً أهمية الاعتدال في أداء نوافل العبادة، فهي على فضلها ومكانتها، ينبغي أن تؤدى تقرباً إلى الله تعالى، من غير إفراط، أو تجاوز لمتطلبات التزامات العابد الأخرى، والإفراط فيها عن الحدود التي فعلها الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد يوصل إلى مستوى الرفض النبوي، الذي ظهر جليّاً في رده صلى الله عليه وسلم، على المبالغين في الطاعة، كما في الحديث الذي بين أيدينا، فهؤلاء الرهط من صحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، اجتهدوا في البحث عن سبل التقرب إلى الله، فقادهم اجتهادهم إلى السؤال عن عبادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، فلما أعلموا بها، ظنوا أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يبالغ أكثر من الحد الذي أعلموا به في أداء العبادة لأنه قد غفر له، وبالتالي هم بحاجة إلى المبالغة في الأعمال والمواقف التي ظنوها خيرة وفاضلة، فقرر أحدهم أن يصوم الدهر ولا يفطر، وقرر الثاني أن يعتزل النساء ولا يتزوج، وقرر ثالثهم أن يقوم الليل ولا يرقد، فلما علم الرسول، صلى الله عليه وسلم بخبرهم، أنكر صنيعهم، وأكد على منهجه الوسطي والمعتدل والمتوازن، فبين أنه يَصُومُ وَيُفْطِرُ، وَيصَلِّي وَيَرْقُدُ، وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، ثم قرر أن هذا هو منهجه، وتلك هي سنته، فَمَنْ رَغِبَ عنها، فَلَيْسَ مِنّه صلى الله عليه وسلم.

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

التوازن بين أداء نوافل العبادة وبين متطلبات الحياة الأخرى

من الإساءة المذمومة في أداء النوافل أن تشغل صاحبها عن أداء واجباته، كترك السعي في طلب رزق نفسه ومن يعول، فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، وينبغي أن لا يشغلنا الاهتمام بأداء النوافل عن أداء الواجبات الأخرى المطلوبة منا على صعيد المعاش، والأعمال الشرعية الأخرى، التي تتطلب بذل الجهد في سبيلها، ومن خير الشواهد على هذا التوازن ما روي عن عَوْنِ بن أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه، قال: (آخَى النبي، صلى الله عليه وسلم، بين سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شَأْنُكِ؟ قالت: أَخُوكَ أبو الدَّرْدَاءِ، ليس له حَاجَةٌ في الدُّنْيَا، فَجَاءَ أبو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ له طَعَاماً، فقال: كُلْ، قال: فَإِنِّي صَائِمٌ، قال: ما أنا بِآكِلٍ حتى تَأْكُلَ، قال: فَأَكَلَ، فلما كان اللَّيْلُ، ذَهَبَ أبو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قال: نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فقال: نَمْ، فلما كان من آخِرِ اللَّيْلِ، قال سَلْمَانُ: قُمْ الآنَ فَصَلَّيَا، فقال له سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: صَدَقَ سَلْمَانُ).[1]

ومما سبق؛ يظهر فضل أداء نوافل العبادات، وفي الوقت نفسه؛ يظهر أن الإفراط في أدائها عن حد الاعتدال المشروع، يخرجها من حالة الطلب والثناء، إلى حالة النهي والذم، فالتوازن من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية، وهو يظهر جليّاً في الموقف من أداء نوافل العبادة، قدوته في ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (ما خُيِّرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بين أَمْرَيْنِ، إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، ما لم يَكُنْ

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف.

إِثْماً، فَإِنْ كان إِثْماً، كان أَبْعَدَ الناس منه ...)[1]، بل كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يأمر بالتيسير، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا).[2]

غير أنه إذا وجدت المشقة، ولم يكن أمام المسلم مفر من ولوج غمارها لأداء طاعة، أو القيام بواجب، فهنا يكون الإقدام في إطار المقدور والمستطاع، فما جعل الله علينا في الدين من حرج، فإن واجهتنا الصعاب التي يمكن أن نخوض غمارها خلال أدائنا الواجب، فلنا بإذن الله الثواب المضاعف، فالأجر على قدر المشقة.

استناد منهج الاعتدال إلى الهدي الرباني

ينسجم موقف الرسول، صلى الله عليه وسلم، في رسم منهج الاعتدال مع المنهج القرآني المتميز بالوسطية والاعتدال والتوازن، فقد أثنى الله تعالى على أمة الإسلام، كونها أمة معتدلة ووسطاً، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...}[3]، وأثنى الله على طوائف الأمم السابقة التي اختارت منهج الوسطية والاعتدال والاستقامة، فقال سبحانه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ}[4]، وأرشد الله المؤمنين إلى اختيار المنهج الوسطي حين يوازنون بين متطلبات حياتهم الدنيا، ومتطلبات الآخرة، فقال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ

1- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم.

2- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

3- البقرة: 143.

4- المائدة: 66.

اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[1]، حتى في الجهر بالصلاة، وخفت الصوت فيها، جاء الأمر الرباني بالاعتدال في ذلك، فقال تعالى: {...وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}[2]، ووازن الله بين أداء العبادة والالتزام بشروطها وأركانها وواجباتها، وبين أداء الأعمال الحياتية الأخرى، ومن خير الشواهد على ذلك، ما جاء في إباحة الانتشار في الأرض عقب أداء صلاة الجمعة، {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[3]، وقد جاء هذا السماح بالانتشار في الأرض، والسعي في مناكبها بعد حظر العمل الحياتي خلالها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[4]، وفي الإنفاق حث الله تعالى على الوسطية، كمنزلة بين بعثرة المال يميناً وشمالاً، دون ضبط ولا ربط في أمور الإنفاق، وبين الشح والبخل، فقال تعالى: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً}[5].

سائلين الله العلي القدير أن يهدينا لنكون ممن يسدد ويقارب، لا ممن يتشدق ويتنطع، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين، وقدوة الخلق الصالحين، وعلى آله وصحبه وأزواجه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- القصص: 77.

2- الإسراء: 110.

3- الجمعة: 10.

4- الجمعة: 9.

5- الإسراء: 29.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يشجع على الاستنقاء من الغل والحقد

عن أنس بن مالك، قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (يطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصار، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَال، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الأُولَى. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ: إِنِّي لاحَيْتُ أَبِي، فَأَقْسَمْتُ أَنْ لا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ، فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاث، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ لَكَ ثَلاثَ مِرَارٍ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ، فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لا أَجِدُ فِي نَفْسِي لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لا نُطِيقُ). (1)

1- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، وقال شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

يظهر هذا الحديث الشريف مدى الفوز الذي يناله الموفق إلى تحقيق السلامة لصدره من الغل والحقد والضغينة، فصاحب القلب السليم من الحقد مبشر بالجنة والرضوان، وقد حرص صلى الله عليه وسلم على إطفاء نار الحقد، بكل السبل المتاحة، التي كانت تبرز في كثير من الظروف والمناسبات، ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب، بأن يمن الله عليه بنزع الغل من صدره، فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، (أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ضرب صدر عمر بن الخطاب بيده حين أسلم ثلاث مرات، وهو يقول: اللهم أخرج ما في صدره من غل، وأبدله إيماناً، يقول ذلك: ثلاثاً).[1]

مفهوم الضغينة والحقد

ورد في لسان العرب أن الضِّغْن والضَّغَن: الحِقْد، والجمع أَضْغانٌ، وكذلك الضَّغينَةُ، وجَمْعُها الضَّغائن؛ ومنه حديث العباس: إِنا لنَعْرِفُ الضَّغَائن في وُجُوه أَقوام. والضِّغْنُ: الحقد والعداوة والبغضاء.[2]

والحِقْدُ: إِمساك العداوة في القلب والتربص لِفُرْصَتِها. ورجل حقود: كثير الحقد.[3]

وقد استخدم القرآن الكريم لفظ الأضغان، فذكره في معرض تأنيب الكافرين الذين تصدوا لرسالة الإسلام بالنكران والعداء، حيث ذكر القرآن تساؤلاً استنكارياً عن ظن الكافرين بأن الله سيسترهم ويخفي ضغائنهم، فقال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}[4]، وفي آية أخرى، يقول تعالى: {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}[5]، أي: يظهر أحقادهم على النبي، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين.

1- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، 91/3، وقال: هذا حديث صحيح مستقيم الإسناد ولم يخرجاه.

2- لسان العرب، لابن منظور، ج9، ص49.

3- لسان العرب، لابن منظور، ج4، ص175.

4- محمد: 29.

5- محمد: 37.

وقديماً نبذ الحكماء والشعراء الأحقاد والضغائن، فمن شعر عنترة بن شداد قوله:

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَن تَعلو بِهِ الرُتَبُ وَلا يَنالُ العُلا مَن طَبعُهُ الغَضَبُ[1]

تمتع المؤمنين بالاستنقاء من الأضغان

يحرص المؤمن على بلوغ أرفع المقامات، ونيل أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة، ومن ذلك حرصه على التوجه إلى الله بخالص الدعاء، لينجيه من الغل والحقد على إخوانه المؤمنين، على درب المؤمنين الصالحين الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، حيث يدعون ربهم أن يغفر لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأن لا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}.[2]

وجعل الله من آلائه على عباده الذين ارتضاهم وأكرم نزلهم، أن ينقي قلوبهم من الغل والحقد، فقال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.[3]

وقال سبحانه وتعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}.[4]

وفي الحديث الشريف عن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، قال: (قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الناس أَفْضَلُ؟ قال: كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ، قالوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فما مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قال: هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لا إِثْمَ فيه، ولا بَغْيَ، ولا غِلَّ، ولا حَسَدَ).[5]

1- ديوان عنترة بن شداد، ص5.

2- الحشر: 10.

3- الأعراف: 43.

4- الحجر:47.

5- سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب كل مخموم القلب صدوق اللسان، وصححه الألباني.

التطهر مما يفضي إلى الأحقاد والضغائن

إن من نتائج الأحقاد والضغائن، ومسبباتها أيضاً، التباغض والتدابر، والهجر والتحاسد، والرسول، صلى الله عليه وسلم، ينهي عن هذه السلبيات السلوكية، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تَبَاغَضُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ).[1]

ونبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى سلوك المؤمن السوي، صافي السريرة، وسليم القلب من الأضغان، فإنه حال وقوع التدابر والخلاف مع إخوانه، يبادر إلى المصالحة والبدء بالسلام، فعن أبي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هذا، وَيُعْرِضُ هذا، وَخَيْرُهُمَا الذي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ).[2]

وفي المقابل؛ فإن المتشاحنين المتخاصمين الذين يصرون على الشحناء والخصام ينذرهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالبعد عن مغفرة الله ورحمته ورضوانه تعالى، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يوم الإثنين وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شيئاً، إلا رَجُلاً كانت بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أنظروا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا، أنظروا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا، أنظروا هَذَيْنِ حتى يَصْطَلِحَا).[3]

سلّم الله صدورنا من الغل والحقد، وجعلها عامرة بالإيمان وحب الإحسان، ومتوجهة للعفو، والصفح عن المسيء، والجاهل ومرتكب الأخطاء، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة.

3- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.

الفصل السابع

اجتماعيات

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
34.	ﷺ عنايته بالشباب	212
35.	ﷺ يشيد بمكانة المرأة وينتصر لحقوقها	216
36.	ﷺ يوصي بالوالدين ويؤثر الأم بأولوية الصحبة	224
37.	ﷺ يقرر مبدأ التكافل الاجتماعي	229
38.	ﷺ ينهى عن السفور والتبرج	235
39.	ﷺ يوصي بالتسوية بين الأبناء في العطية	242

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

عنايته بالشباب

الشباب هم معقد الرجاء وطاقة البناء لصرح الأمة الشامخ، فلا نتصور نهضة دون الشباب، ولا تغييراً لا يكونون هم محركه الرئيس، والعامل الأساس فيه، كيف لا، والشباب يمثل ربيع عمر الأمة، فإذا أفلحت الأمة بتوجيه شبابها نحو الخير ومثل الحياة وقيمها، فإنها تكفل حاضراً مستقراً، ومستقبلاً مزدهراً، فطاقات الشباب تنصرف إلى ما فيه خير أمتهم، وحفظ كرامتها، وتحقيق أمالها، ورفعة شأنها، والذود عن حياضها.

فلا نجاوز الحقيقة إن قلنا: إن الثروة الحقيقية لكل أمة هي شبابها، فالشباب هم جند الأمة، وهم طلاب العلم في المدارس والجامعات ومعاهد العلم، وهم رواد البناء، وزاد المؤسسات التي تنهض بأعباء عجلة حياة الأمة، ولقد جاءت الآيات الكريمة في كتاب الله تعالى تثني على الشباب، من ذلك قوله تعالى في وصف أهل الكهف: {... إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}[1]، وقوله تعالى في وصف سيدنا إبراهيم، عليه السلام: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ }.[2]

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث رسله عليهم الصلاة والسلام، وقد اكتمل بنيان عقلهم وجسمهم في مرحلة الأشد والشباب، قال تعالى بحق يوسف، عليه السلام: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}.[3]

1- الكهف: 13.

2- الأنبياء: 60.

3- يوسف: 22- 23.

وورد قوله تعالى بحق، موسى عليه السلام: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.[1]

وقد تدرجت مراحل حياة الإنسان منذ بدء خلقه نطفة، ثم مرحلة الطفولة، ثم مرحلة بلوغ الأشد، وهي قمة مرحلة الشباب، ثم الانتقال إلى مرحلة الشيخوخة، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.[2]

وفي مرحلة الشباب وقمتها بلوغ الأشد، يدرك الإنسان السوي نعم الله عليه، فيبادر إلى شكر الله تعالى، طالباً عونه وتوفيقه إلى خير الأعمال وحسن الطاعات، قال تعالى: {... حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.[3]

ونجد في سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، كثيراً من الأحاديث القولية والعملية التي أولت عنايةً بالشباب، واهتماماً كبيراً بهم، من ذلك حرص النبي، عليه الصلاة والسلام، على العبادة للشباب، وذكره أن من نشأ في طاعة الله كان جزاؤه الاستظلال في ظل الله تعالى، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ؛ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ).[4]

1- القصص: 14.

2- غافر: 67.

3- الأحقاف: 15.

4- صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد.

ويوجه النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى الفضيلة، والبعد عن الرذيلة، بأسلوب رفيع يستثير في الشاب العفة والنخوة والغيرة على المحارم، فقد روى أبو أمامة، قال: (إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ، فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟ قَالَ، لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ).[1]

ويحرص النبي، عليه الصلاة والسلام، على غرس العقيدة في نفوس الشباب، وأن تكون وجهتهم دائماً إلى الله تعالى، فيقول لابن عباس، رضي الله عنه: (... يَا غُلامُ؛ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ).[2]

وقد أوكل النبي، صلى الله عليه وسلم، مسؤوليات جسيمة للشباب، من ذلك دفعه اللواء لعلي، رضي الله عنه، في خيبر، وتوليته أسامة بن زيد، رضي الله عنهما، قيادة الجيش

1- مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

2- سنن الترمذي، ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب 59، وصححه الألباني.

لغزو الشام، وكان في الجيش عمر، رضي الله عنه، وكبار الصحابة، يقول ابن مسعود، رضي الله عنه: (كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ شَبَابٌ...).[1]

ويكفي الشباب فخراً أن أهل الجنة يكونون من الشباب، كما أن أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، الذين حملوا هذا الدين العظيم، واتبعوا رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، كانوا شباباً، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يتجاوزوا الأربعين عاماً، وعلي كان دون العاشرة، وبقية العشرة المبشرين بالجنة طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف جلهم دون العشرين عاماً، وغالبية أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، من الشباب.

وهل جند الإسلام من الفاتحين والمحررين لديار الإسلام إلا من الشباب؟!

وهل وقود ثورات الحرية في عالم المسلمين إلا من الشباب؟!

ولاحظوا إن شئتم مسيرة الجهاد في هذه الديار المباركة، ديارنا، ديار الإسراء والمعراج، إنهم صفوة شبابها في ميادين الفداء والعطاء، وخلف القضبان رواد حق وطلاب حرية.

وها هي ثورة الشباب في مصر وتونس تبث الحياة في شرايين الأمة، وتبعث الأمل من جديد، بأن أمتنا قادرة على التغيير، ومعقد الرجاء فيها شبابها، الذين وصى بهم رسولنا الأسوة، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يشيد بمكانة المرأة وينتصر لحقوقها

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (... اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا).[1]

وعنه قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مؤمنة، إن كَرِهَ منها خُلُقًا، رضي منها آخَرَ، أو قال غَيْرَهُ).[2]

فهذه بعض وصايا الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالمرأة، التي تدحض حملات الطعن والتشويه للإسلام لمواقفه وأحكامه الخاصة بالمرأة، فبعض الناس يجانب الحقيقة، ويجافي الإنصاف في تنكره لقيم الإسلام ومبادئه، لأنه لم يتدبر الإسلام بموضوعية، والمسلم الذي يستضعف النساء، ويظلمهن في أي حق من حقوقهن، أو إساءة في سلوك معهن، فإنه يخالف توجيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، ويعطي شواهد مسيئة عن الإسلام والمسلمين، يستغلها المتربصون الذين يرجون التعثر للإسلام، والخيبة للمسلمين، وهو يمثل كذلك أنموذجاً سيئاً ومشوهاً لأخلاق المسلمين وقيمهم، التي يفترض فيها أن تكون منسجمة ومتوافقة مع ما حملته رسالة الإسلام من هدى للعالمين واستقامة.

فقد جاء الإسلام والناس يئدون البنات، ويصيبهم الغم والهم إذا رزقوا بهن، فكان من الأحكام الأولى التي شرعت في العهد المكي، تحريم الوأد، الذي كان مستشرياً في الجاهلية، فأنزل الله في سورة التكوير المكية ما يصور بشاعة هذا الجرم الشنيع، فقال تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}.[3]

1- صحيح مسلم، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء.

2- صحيح مسلم، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء.

3- التكوير8-9.

وجاء الإسلام يقرر أن الذكر والأنثى خلق الله، {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى}[1]، وأن خلقهما آية من آياته سبحانه، تدل على عظمته تعالى، فذكر الله خلق الجنسين في معرض الاستدلال على قدرة الله وعظيم آياته في خلقه، فقال تعالى: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى}[2]، فهما خلقا من أصل واحد، بل من نفس واحدة، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء...}[3]، ومن النفس الواحدة صار الناس يتناسلون من خلال زواج الذكر والأنثى، وأن التفاضل بينهما معياره التقوى، وليس النوع الإنساني، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[4].

ويجدر هنا التنويه إلى أن الإسلام يساوي بين الذكر والأنثى فيما يحتمل التساوي، في ضوء الخلقة التي جبلت بها كينونة كل منهما، فالله خلق المرأة بشكل خلقي ومضمون يتلاءم مع طبيعة مهمتها في الحياة، وخلق الرجل بطبيعة خلقية وأجهزة تناسب مهمته في الحياة، وسواء آمن الخلق بأن الله خلق هذه الطبيعة للأهداف التي وضعت لها، أم كفر بعضهم بذلك، فالحقيقة الثابتة للعيان لا يملك إنكارها سوى جاحد منكر، يناطح الجهل، ويمتطي الباطل، فالطبيعة الخاصة بكلا الجنسين، واضحة وضوح الشمس، فوعاء الحمل، وحضن الدفء والحنان، وصدر المدد الغذائي للرضع، والذي يتباهى بالزينة من الخلق، مصداقاً لقوله تعالى: {أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}[5]، غير الذي يعتمد على العضلات، ويقوم بدور الشاحن للوعاء، ويمتاز بالصوت الخاص، ومنابت

1- النجم: 45.
2- الليل: 3.
3- النساء: 1.
4- الحجرات: 13.
5- الزخرف: 18.

الشعر الخاص، فبنو آدم جنسان، مثل معظم خلق الله، الذين خلقهم الله زوجين، {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[1]، {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى}[2].

ومن ينكر الاختلاف بين الجنسين في الشكل والوظائف الرئيسة، لا يستحق المناقشة، لأنه كمن يبغي تغطية الشمس بالغربال، وكمن يناطح الصخر، أما الذين يقرون بهذه الخصائص والميزات، فهم قسمان، أحدهما أشبه بالناطح السابق، ذاك هو الذي يعترف بخصائص كل جنس، لكنه يرفض الإيمان بأن الذي خلق الخلق أعلم بحاجاتهم وما يناسبهم، والله تعالى يقول: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[3].

أما القسم الثاني؛ فهو الذي يمثل من آمن بالله رباً وخالقاً ومشرعاً وعليماً وحكيماً، فيؤمن أن الذي خلق من النطفة ذكراً وأنثى، بألوان وأشكال شتى، يؤمن كذلك أنه سبحانه يشرع للخلق الأصلح والأنسب لهم، سواء ما يخص كل نوع بمفرده، أم ما يخص النوعين مجتمعين، فالنوع الذي يحمل ويلد ويرضع، ويحيض وينفس، غير الذي يقوم بأدوار ومهمات أخرى، ومعاذ الله أن يميز الخالق بين خلقه، وإنما هي الحياة ومتطلبات بقائها وتواصلها واستمرارها.

وبناء على هذا نجد في التشريع الإسلامي أحكاماً تخص الأنثى، وأخرى تخص الذكر، وثالثة تشملهما معاً، فالعبادات والقيم وجزاء الأعمال واحدة للجنسين، حيث تطلب الصلاة من الذكر والأنثى، وتطلب قيم الصدق والأمانة والعفة منهما، غير أن المرأة تعفى من الصلاة في حيضها ونفاسها، ويكلف الذكر بتحمل أعباء القوامة الأسرية، ويتحمل مسؤولية الإنفاق والإعالة الأسرية، وللزوج على زوجه حق الطاعة بالمعروف، وكلاهما مأموران بغض البصر عن الآخر وفق ضوابط الشرع الخاصة بذلك، ومن

1- الذاريات: 49.

2- النجم: 45.

3- الملك: 14.

يرتكب فاحشة الزنى منهما يعاقب، ذكراً كان أم أنثى، مصداقاً لقوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}[1]، وفي هذا رد واضح على من يحاول حصر العقاب على الفاحشة بالأنثى، وغض الطرف عن الذكر الذي يرتكبها أو محاباته بالتخفيف عنه، بخلاف ما جاء في حقه من أحكام شرعها الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فتلك قسمة ضيزى، ما أنزل الله بها من سلطان.

وتشريع الأحكام الخاصة بكلا الجنسين لا يعني بحال من الأحوال محاباة أحدهما على الأخر، أو الانتقاص من مكانة أحدهما لحساب الآخر، فالتشريع حكم الله الذي خلق الجنسين، ومن المحال في حقه سبحانه المحاباة والظلم والميل لبعض خلقه دون بعض، فذلك مما استنكر الله وقوعه من الخلق، فكيف يرضاه سبحانه لنفسه؟! والله حرم الظلم على نفسه، وجعله بين خلقه محرماً، ففي الحديث القدسي عن أبي ذَرٍّ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيمَا رَوَى عن اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قال: (يا عِبَادِي؛ إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا).[2]

وإن الاحتفال الحقيقي بتكريم المرأة يتمثل في الرفعة التي ارتقت بها في ظل الإسلام وأحكام الشريعة الإسلامية الغراء، التي مدحت المرأة وهي تثور على الزيغ والانحراف والفساد، فامرأة فرعون عاشت رغد العيش، وسكنت القصر، وكانت سيدة البلاد، لكنها سئمت سعة العيش ورغده، حين فقدت فيه طمأنينة الإيمان، ومجال الانسجام مع شريك حياة حاز كثيراً من الدنيا، غير أنه تنكب درب الله والآخرة، فناشدت ربها طالبة حسن جواره، مضحية بتلك العلاقة التي جلبت لها حظوظ الدنيا على حساب الفوز بالآخرة، فقال تعالى في حقها: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي

1- النور: 2.

2- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[1]، فلا شك أنها منزلة رفيعة نالتها المرأة إذ كانت الأنموذج للمؤمنين وفق ما جاء في هذا النص القرآني الكريم، فلم لا يسجل أنصار حقوق المرأة هذا الموقف العظيم، للإسلام الذي منح المرأة هذه المكانة السامية؟!

وقد ذكر القرآن الكريم المرأة وهي تتخلق بالحياء والطهر والعفاف، ففي وصف ابنة الشيخ التي مدحت موسى، عليه السلام، لأبيها، يقول تعالى: {فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء...}[2]، تصوروا شكل تلك المرأة؛ وهي تظهر في أبهى خصائص أنوثتها، تمشي على استحياء، لا تميل بخصر، ولا تلوح بشعر، ولا تتكسر بقول، ولا تسرق نظر، والحياء يضفي على المرأة جمالاً فوق الجمال، بعكس التي تنخلع من ربقة الحياء، فتخسر من خصائص أنوثتها درجات كثيرة، وإن كانت على قسط وافر من جمال الخلق، الذي يفتقر إلى حسن الخلق، وقمته الحياء.

وللأسف؛ فإن بعض الناس يبدو أنهم لا يرجون للمرأة أن تكون لها هذه المنزلة، وإنما يريدونها في منازل الردى، وهم يتظاهرون بمناصرتها، وبخاصة أولئك الذين يريدونها أن تتحرر من قيود حشمتها، لتكون في متناول أيديهم وشهواتهم وقضاء حاجاتهم، فلا يريدونها حيية، ولا محتجبة عن متناول الأيدي الطائشة، وإنما يريدونها في خلواتهم ولقضاء نزواتهم، على منهج من أنكر الله صنيعه ممن ابتغى شريعة الانحراف على شريعة الله رب العالمين، فقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[3].

فالشرع الذي يحترم المرأة ويريد لها ولمجتمعها الخير، يفصل بينها وبين الذين يستبيحون حرمتها، ولا يرقبون فيها سوى المتعة الجامحة، فالمتابع لما يحدث في البيئات المتحررة من ضوابط القيم الربانية، يلحظ ما يحل بالمرأة من ظلم جراء استغلالها في الدعاية التجارية،

1- التحريم: 11.
2- القصص: 25.
3- المائدة: 50.

فيستخدم جسدها وجمالها وسيلة للتسويق، وهي بذلك تبيع خصوصيتها وكرامتها بأثمان مادية، مقابل ترويج البضائع على مختلف أنواعها ومستويات قيمتها.

فالفرق كبير بين من يعمل على صون المرأة عن التردي في مهاوي الرذيلة، أو التبذل، أو أن تكون متاحة لمنافع المبتزين وشهواتهم، الذين يغرونها بالقرب، فإذا ما قضوا إربهم منها، قسوا عليها بمستويات الإجحاف المختلفة وأنواعه، الذي بعضه يصل إلى مستوى التخلص منها بالقتل المتمثل في إزهاق الروح، أو القتل المتمثل في إزهاق الستر والعفة والكرامة، عن طريق الإسقاط، أو إساءة الصيت والسمعة.

ولا يعني عمل الإسلام وسعيه لحفظ المرأة وصونها، أنه يريد لها الجهل، أو يقبل التخلف والتقوقع، إذ إن بعض الناس يحاولون تصوير الإسلام في صورة من يحجر على المرأة، ويحط من قيمتها، بسبب عمله على حفظها ووضع بعض الضوابط التي تحكم علاقتها مع الجنس الآخر، وهي ضوابط يهدف الإسلام من ورائها إلى صون المرأة ورعايتها من ناحية، وإلى كبح جماح طالبيها متاحة لنظراتهم وسهراتهم ومعاشرتهم، دون حسيب ولا رقيب.

وقد عمل الإسلام على الارتقاء بالمرأة وهي منضبطة بأحكامه في ميادين العلم والسياسة ومجالات الحياة كلها، وأي تصور يشدد على المرأة خارج نطاق أحكام الإسلام الواردة في القرآن والسنة الصحيحة، هو تصور يخص أصحابه، ولا يمثل دين الإسلام بحال من الأحوال.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على تعليم المرأة، فقال: (أَيُّمَا رَجُلٍ كانت عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ، فَعَلَّمَهَا، فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ).[1]

وفتح عليه الصلاة والسلام لنسائه المجال رحباً لتعلم العلوم وتعليمها للناس، فأم المؤمنين عائشة تحتل مكانة رفيعة في صدارة الصحابة الذين اشتهروا برواية الحديث

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها.

النبوي الشريف، وفي فقه الدين، والتصدي للإفتاء، والمشاركة في الشورى وإبداء الرأي في أمور المسلمين العامة والخاصة، وشاركها في ذلك معظم أمهات المؤمنين على تفاوت بينهن فيه.

وعلى مستوى العلاقة بين الزوجين، فقد ضرب الرسول، صلى الله عليه وسلم، أعظم الأمثال في الوفاء لنسائه، حال حياتهن معه، وبعد ممات من توفاهن الله قبله، فقد حفظ عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين خديجة، رضي الله عنها، مساندتها وحبها له، فلم يتزوج عليها امرأة أخرى حال حياتها، وبعد وفاتها اشتهر عنه صلته لصديقاتها، وكان يكثر من ذكرها، مما استفز حفيظة عائشة وغيرتها، فعنها، رضي الله عنها، قالت: (اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ على رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاعَ لِذَلِكَ، فقال: اللهم هَالَةَ، قالت: فَغِرْتُ، فقلت: ما تَذْكُرُ من عَجُوزٍ من عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ في الدَّهْرِ، قد أَبْدَلَكَ الله خَيْرًا منها).[1]

وقالت رضي الله عنها: (ما غِرْتُ على أَحَدٍ من نِسَاءِ النبي، صلى الله عليه وسلم، ما غِرْتُ على خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قلت له: كَأَنَّهُ لم يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلا خَدِيجَةُ، فيقول: إِنَّهَا كانت وَكَانَتْ، وكان لي منها وَلَدٌ).[2]

فهذه هي المكانة الرفيعة التي تحتلها المرأة الصالحة لدى أسوة المسلمين وقدوتهم صلى الله عليه وسلم، بل لدى رب العالمين سبحانه وتعالى، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (أتى جِبْرِيلُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ هذه خَدِيجَةُ قد أَتَتْ معها

1- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي خديجة وفضلها.

2- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي خديجة وفضلها.

إِنَاءٌ فيه إِدَامٌ، أو طَعَامٌ، أو شَرَابٌ، فإذا هِيَ أَتَتْكَ؛ فَاقْرَأْ عليها السَّلَامَ من رَبِّهَا، وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ في الْجَنَّةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ).[1]

ولا أظن امرأة مؤمنة تنشد منزلة أبعد من المكانة التي حفظها لها الإسلام العظيم، حيث العفة والطهر وحفظ الحقوق، دون تلبس بظلم أو استغلال، وقد أكد الإسلام على منع ابتزاز المرأة، وهضم حقوقها المادية والمعنوية، فشدد القرآن الكريم على حرمة أكل مال المرأة الذي حازته لرصيدها الخاص، سواء ما تعلق منه بمهرها، أم بميراثها الشرعي، أم بما عدا ذلك، ففي السورة التي سميت بالنساء، تفصيل كثير من أحكام الميراث الخاصة بحقوق النساء، سواء الأمهات منهن، أم البنات، أم الأخوات، أم النساء.

ويشجع الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الملاطفة بين الأزواج، ويعتبر حسن مداعبة الرجل زوجه من القربات التي تسجل في ميزان حسناته، فعن سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها وَجْهَ اللَّهِ، إلا أُجِرْتَ عليها، حتى ما تَجْعَلُ في في امْرَأَتِكَ).[2]

فهذا غيض من فيض وصايا الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، بالنساء ورعايتهن وحفظ حقوقهن، مما أوحي إليه في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وبلغه للناس في قوله وعمله ووصاياه الكريمة.

هدانا الله للتأسي به صلى الله عليه وسلم وبارك، وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي خديجة وفضلها.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يوصي بالوالدين ويؤثر الأم بأولوية الصحبة

عن عَبْدِ اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ قال: (أَقْبَلَ رَجُلٌ إلى نَبِيِّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: أُبَايِعُكَ على الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الْأَجْرَ من اللَّهِ. قال: فَهَلْ من وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قال: نعم، بَلْ كلاهما. قال: فتبتغي الْأَجْرَ من اللَّهِ؟ قال: نعم. قال: فَارْجِعْ إلى وَالِدَيْكَ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا).[1]

يظهر هذا الحديث النبوي الشريف فضل صحبة الوالدين، فقد وجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، طالب الأجر من الله إلى حسن صحبة والديه، رغم أن هذا الطالب جاء ليبايع الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أمرين عظيمين في الإسلام، هما الهجرة والجهاد، وكان يمكن أن تتم له البيعة عليهما، غير أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بدلاً من مبايعته عليهما سأله عن والديه، إن كان منهما أحد على قيد الحياة، فأجابه الرجل بأن كليهما كذلك، فسأله الرسول، صلى الله عليه وسلم: إن كان حقيقة قد جاءه مبايعاً ابتغاء الأجر من الله، فأكد له الرجل ذلك، فأرشده عليه الصلاة والسلام، إلى ما يأتيه بالأجر المنشود في هذا الظرف، قائلاً: (فَارْجِعْ إلى وَالِدَيْكَ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا).

والرسول، صلى الله عليه وسلم، نبه إلى حق الوالدين بحسن صحبة الولد ورعايته وبره، حتى لو كانا على غير دينه، فعن أَسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ، رضي الله عنهما، قالت: (قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قلت: إن أمي قدمت وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟! قال: نعم، صِلِي أُمَّكِ).[2]

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة الآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به.

2- صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين.

وهذا التوجيه النبوي ينسجم تماماً مع الأمر الإلهي للمؤمن بأن يجد طريقه إلى حسن صحبة والديه في ظرف صعب للغاية، لا يقف عند حد الاختلاف في الدين بين الولد والوالد، بل يتعدى ذلك إلى حال قيام الوالد بممارسة الضغط على الولد لينحرف عن جادة الصواب، فيوجهه الله إلى التمسك بالإيمان، وأن لا يرضخ للضغوط التي تهدف إلى زحزحته عنه، وفي الوقت نفسه؛ عليه أن يصاحب والديه بالحسنى، وقد تعرض القرآن الكريم للنص الصريح على هذا التوجيه في موضعين، أحدهما في سورة العنكبوت، والآخر في سورة لقمان، ففي سورة العنكبوت يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[1]، وفي سورة لقمان يقول تعالى: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[2]، وفي صحيح السنة، ذكر لسبب نزول هذا البيان القرآني، فعن مُصْعَب بن سَعْدٍ، عن أبيه، (أَنَّهُ نَزَلَتْ فيه آيَاتٌ من الْقُرْآنِ، قال: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حتى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، ولا تَأْكُلَ، ولا تَشْرَبَ، قالت: زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وأنا أُمُّكَ، وأنا آمُرُكَ بهذا. قال: مَكَثَتْ ثَلاثًا حتى غُشِيَ عليها من الْجَهْدِ، فَقَامَ ابن لها يُقَالُ له عُمَارَةُ فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو على سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل في الْقُرْآنِ هذه الآيَةَ: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ على أَنْ تُشْرِكَ بِي وَفِيهَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا})[3].

وقد يغفل بعض الناس عن أهداف هذا التوجيه ومراميه، فالذي يرى أن الإسلام يسعى إلى قطع الأرحام، وجفاء الآباء والأمهات، وهو يدعو للتشبث بالإيمان، يخطئ في استيعاب الحقيقة، ومثله الذي يرى استباحة عقوق الوالدين حال إصرارهما على رفض

1- العنكبوت: 8.

2- لقمان: 15.

3- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص.

الانتساب إلى الإسلام أو الالتزام ببعض أحكامه، فلم يدع لنا القرآن مجالاً لنجتهد في هذه المسألة، وجاءت السنة النبوية كما في رواية أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، لتؤكد ما جاء به القرآن الكريم من الوصية بحسن صحبة الوالدين، حتى لو أصرا على الكفر، بل حتى لو عملا جهدهما على ثني ابنهما المؤمن عن إيمانه، وقد كان لنا في إبراهيم، عليه السلام، وأبيه، تأكيد آخر لهذا الموقف الثابت في دين الإسلام، فكم حرص عليه السلام على هداية أبيه، غير أن أباه أدبر واستكبر، ومع ذلك كان عليه السلام يخاطبه بتودد ومنتهى الملاطفة، وذكر القرآن الكريم جوانب من الحوار الذي كان يدور بين الابن المؤمن، والأب الضال، فيقول تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً}[1]، فالابن إبراهيم، عليه السلام، يتودد إلى أبيه في الخطاب قائلاً: "يَا أَبَتِ"، ويتبع ذلك بإبداء الحرص على نجاته وهدايته، لكن الوالد يرد عليه بفظاظة وقسوة، قائلاً: {لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً} ومع ذلك، لا يحيد عليه السلام عن أدبه مع والده رغم ما جاء في رده، فيرد على تهديد الوالد ووعيده، بملاطفة أخرى، فيقول: {سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي}.

وحيث إن الحسنة تجلب الحسنات، ومن بر أباه يلاقي براً من بنيه، فقد قص القرآن ما وجده إبراهيم، عليه السلام، من بر ابنه إسماعيل، رغم أنه طلب منه أمراً عظيماً، فلم يجد

1- مريم: 41- 48.

منه سوى الانصياع، ما دام ذلك سيكون لله وفي سبيل الله، فيقول تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ* وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ* سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.[1]

وهكذا قطف إبراهيم، عليه السلام، ثمار صبره على جفاء والده، وحرصه على هدايته وحب الخير له، فلما تبدلت الأدوار، وصار إبراهيم، عليه السلام، الوالد، وتعرض لهذا الامتحان الرباني الصعب، وكان بينه وبين تنفيذه موقف ابنه، الذي طلب منه الانصياع للذبح، فانقاد إلى الله، ولبى نداء أبيه، حتى كان الخلاص، رحمة من رب العالمين، حيث كافأ الله الوالد والولد البارين بالفداء، بعد أن تجاوزا امتحان الابتلاء بنجاح باهر، أهلّهما ليستمرا في درب المحسنين المؤمنين، فحسن صحبة الوالدين وبرهما حق واجب تتقلده رقاب الأبناء، ولا يستساغ من الأبناء خلع قلادته، تحت أي ظرف، وفي أي حال من الأحوال، فكيف بمن يهجر والديه، أو يعقهما، أو يطعم ويشرب ويتفسح، وهما يعانيان الظمأ والجوع والمرض والملل، فيبخل أن يقدم لهما بعض ما قدماه له وهو ضعيف وهما أقوياء، فلّما تبدل الحال، وقوي عوده، وضعفا، قابل ما سلّفاه من رعاية بالجفاء والإهمال، أي أنه بادل الإحسان بالإساءة، ومع من؟ مع الوالدين، أو أحدهما، فذلك هو الثبور والخسران العظيم، والعياذ بالله.

فالله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، يأمران ببر الوالدين، ويبينان أن طاعتهما تفضي إلى دخول الجنة، وعقوقهما من الكبائر، التي توجب استحقاق دخول النار والعياذ بالله، فقد جاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ:

1- الصافات: 102-111.

الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ، قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ)[1]، وقد نالت الأم تمييزاً في الحث على برها ورعايتها وحسن صحبتها، ففي الحديث إشادة بمنزلتها المتقدمة على الأب في فضل الصحبة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (جاء رَجُلٌ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ من أَحَقُّ الناس بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: أُمُّكَ، قال: ثُمَّ من؟ قال: ثُمَّ أُمُّكَ. قال: ثُمَّ من؟ قال: ثُمَّ أُمُّكَ. قال: ثُمَّ من؟ قال: ثُمَّ أَبُوكَ)[2]، ولما أوصى القرآن الكريم الولد بالوالدين، وشكرهما في سورة لقمان، استطرد في الحديث عن استحقاقات الأم على ابنها، فقال تعالى:{وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[3]، وعلى النهج نفسه حظيت الأم بمزيد من الذكر والبيان في معرض الوصية بالوالدين في سورة الأحقاف، فيقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.[4]

هدانا الله ووفقنا إلى بر الوالدين، أحياءً وأمواتاً، وأدخلنا الجنة برحمته سبحانه وبرهما، وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة.

3- لقمان: 14.

4- الأحقاف: 15.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يقرر مبدأ التكافل الاجتماعي

نتحدث في هذه الحلقة عن التكافل الاجتماعي في الإسلام، الذي قرره رسولنا الأسوة، صلى الله عليه وسلم.

فالتكافل الاجتماعي في الإسلام يقوم على بناء فكري متكامل، له أساسه من العقيدة، ومن المنظومة الأخلاقية الإسلامية، فلم يكن تقرير هذا الحق للإنسان وليد تجارب بشرية فرضته فرضاً، كما هو الشأن في نظم الضمان الاجتماعي التي تسود العالم الحديث.

والتكافل في الإسلام يمثل فكرة متقدمة تتجاوز مجرد التعاون بين الناس، أو تقديم أوجه المساعدة وقت الضعف والحاجة، ومبناه ليس الحاجة الاجتماعية التي تفرض نفسها في وقت معين أو مكان بعينه، وإنما يستمد مبناه من مبدأ مقرر في الشريعة، وهو مبدأ الولاية المتبادلة بين المؤمنين في المجتمع، يقول الله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[1].

فالإنسان في التصور الإسلامي، لا يعيش مستقلاً بنفسه، منعزلاً عن غيره، وإنما يتبادل مع أفراد المجتمع الآخرين الولاية بما تعنيه من الإشراف والتساند والتكافل في أمور الحياة، وفي شؤون المجتمع.

ويقصد بالتكافل الاجتماعي في الإسلام: التزام القادر من أفراد المجتمع تجاه أفراده الآخرين، وأن يكون أفراد المجتمع مشاركين في المحافظة على المصالح العامة والخاصة، ودفع المفاسد والأضرار المادية والمعنوية، بحيث يشعر كل فرد فيه أنه إلى جانب الحقوق التي له، عليه

1- التوبة: 71.

واجبات تجاه الآخرين، وخاصة الذين ليس باستطاعتهم أن يحققوا حاجاتهم الخاصة، وذلك بإيصال المنافع إليهم، ودفع الأضرار عنهم.

إن الإسلام قد اهتم ببناء المجتمع المتكامل، وحشد في سبيل ذلك جملة من النصوص والأحكام لإخراج الصورة التي وصف بها الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذلك المجتمع بقوله: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى).[1]

وقال الله سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين الصالحين من الصحابة، رضوان الله عليهم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.[2]

وعن أبي سعيد الخدري قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِيناً وَشِمَالاً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ؛ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ؛ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ).[3]

والتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مقصوراً على النفع المادي، وإن كان ذلك ركناً أساسياً فيه، بل يتجاوزه إلى جميع حاجات المجتمع أفراداً وجماعات، مادية كانت تلك الحاجة أم

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

2- الحشر: 9.

3- صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال.

معنوية أم فكرية على أوسع مدى لهذه المفاهيم، فهي بذلك تتضمن جميع الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات داخل الأمة.

والتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس معنياً به المسلمون المنتمون إلى الأمة المسلمة فقط، بل يشمل كل بني الإنسان على اختلاف مللهم واعتقاداتهم، داخل ذلك المجتمع كما قال الله تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.[1]

وقد بيّن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مسؤولية المجتمع عن كل فرد محتاج فيه، في عبارة قوية في إنذارها للفرد والمجتمع، حيث قال: (ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع).[2]

وتظهر الزكاة التي هي أحد أركان الإسلام وفريضته الاجتماعية، بأبهى صور التكافل الاجتماعي في الإسلام، وهي فريضة على كل مسلم، وهي حق مقدر بتقدير الشارع الحكيم في المال بشروط معينة، وهي تدل على معنى أخص من الصدقة التي لا تتحدد بمال معين أو قدر بذاته.

ومن صور التكافل الاجتماعي في الإسلام أيضاً؛ ما شرعه الله من وجوب نفقة الأقارب الفقراء على القريب الغني، فنفقة الزوجة على الزوج، والأبناء على الأب، ونفقة الوالدين الفقيرين على الولد القادر، ونفقة الأخ الفقير أو المحتاج على أخيه الذي يرثه، وقد وسع بعض علماء المسلمين في شأن نفقة الأقارب حتى تصل إلى ذوي الأرحام.

ومن صور التكافل الاجتماعي في الإسلام أيضاً؛ كفالة الصغار والأيتام، فإن الإسلام يهتم بالطفولة، ويلزم الآباء برعاية الأبناء، وتربيتهم، حتى بلوغ سن الرشد، فإذا فقد هؤلاء

1- الممتحنة: 8.

2- أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، أحاديث عبد الله بن عباس، 154/12، حديث رقم 12772، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حديث رقم 2562 صحيح لغيره.

الأبناء آباءهم، فإن المسؤولية تنتقل بشكل متدرج إلى الأقارب القادرين، فإذا انعدموا قامت على المجتمع بأسره.

وقد ورد في الحث على كفالة الأيتام، والعناية بهم، ما يبعث في نفس المؤمن دافعاً قوياً إلى ذلك، منها قوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ}[1]، {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}.[2]

وإذا تصفحنا تاريخ الإسلام؛ وجدنا أن كثيراً من عباقرة الإسلام والمبدعين على أكثر من صعيد، كانوا قد فقدوا آباءهم، وهم صغار، وما ذلك إلا نتاج ملموس للتوجيهات والسياسات الإسلامية في هذا الصدد، والتي أصبح المجتمع يقوم بها، بشكل طوعي وتلقائي حتى في الأوقات التي تتخلى فيها الدولة عن واجبها، فإن هذه العناية لم تغب إذ قام بها المجتمع، وأقام لها من المؤسسات الخيرية ما يلبي حاجتها.

ومن مظاهر العناية التي أولاها الإسلام للأيتام حفظ أموالهم، والسعي في تنميتها، والابتعاد عن كل تصرف ضار بها، فقال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً}[3]، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}.[4]

ومن صور التكافل أيضاً: كفالة الفقراء والمساكين؛ فالنصوص الإسلامية زاخرة بالحض على كفالة الفقراء والمساكين، ومشاركتهم آلامهم، وتنفيس الكرب عنهم، وبذل العون لهم،

1- الضحى: 9.

2- النساء: 36.

3- الإسراء: 34.

4- النساء: 10.

مادياً ومعنوياً، لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي قال فيه: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...).[1]

إن الإسلام في مواجهة المشكلات الاجتماعية يفرض الحد الأدنى لاستقامة الحياة، وجريانها على الصلاح، ثم يفتح المجال أمام التطوع والإحسان مع الترغيب فيه، والحث عليه، وبيان ما ينتظر صاحبه من جزاء في الدنيا والآخرة، وكما هو شأن الإسلام في مواجهة مشكلات الحياة، فإنك تجده يسلك السلوك نفسه في مشكلة الفقر، ففي الوقت الذي يفتح فرص العمل أمام الجميع، ويزيل العقبات والعراقيل أمام الفقراء ليعملوا، فإنه يفرض على المجتمع المسؤولية الكاملة عن فقرائه الذين لا يجدون عملاً، أو لا تتسع مواردهم للوفاء بحاجتهم، وذلك من خلال فريضة الزكاة، التي تتمثل في قيمة 2.5٪ من ثروة المجتمع، تجنيها الدولة كل سنة، لتردها على الفقراء والمساكين وغيرهم من مصارف الزكاة، الذين حددهم القرآن الكريم بقوله:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.[2]

كما يعلن مسؤولية الدولة عن توفير العمل لمن لا يجد عملاً، وإيجاد ميادين العمل، وفتح أبوابه أمام العاطلين عنه، بل إنه يجعل للإمام في الحالات التي يهدد فيها التوازن الاجتماعي، وتميل فيه الكفة نحو احتكار المال في أيد محدودة، يجعل له الحق في أن يعيد الأمور إلى نصابها، ويتخذ من الإجراءات ما يراه كفيلاً بإعادة التوازن إلى المجتمع، ثم يفتح بعد ذلك الطريق أمام التطوع والإحسان، ويحض عليه ابتغاء الدار الآخرة والثواب من الله تعالى، فيقول الله سبحانه

1- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وعلى الذكر.

2- التوبة: 60.

وتعالى: {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.(1)

ومن مظاهر التكافل في الإسلام أيضاً رعاية حقوق الجوار، فقد أكد الإسلام على البر بالجار وصلته، وكف الأذى عنه، وإيصال الخير إليه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ...).(2)

وقال أيضاً: (وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ).(3)

وصور التكافل في الإسلام أكثر من أن تعد وتحصى، ولا مجال لذكرها في هذه المقالة الصغيرة، فالتكافل في الإسلام - كما أشرت سابقاً - بأنه لا يقتصر على الجوانب المادية فحسب؛ بل يمتد إلى ما يعد تعاوناً شاملاً على البر، فالمسلمون متآلفون متعاونون، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

فحري بنا، نحن أهل هذه الديار، أن نتأسى بخلق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، الذي أرسى دعائم التكافل الاجتماعي ومبادئه بين أفراد المجتمع المسلم، وأن نتعاون فيما بيننا على البر والتقوى، وأن نساند بعضنا بعضاً.

والله أسأل أن يجعلنا ممن يتمسك بهدي المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وأن يقدرنا على فعل الخيرات والتعاون على البر والتقوى، إنه سميع قدير.

وصلى الله على رسولنا الأكرم، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وأزواجه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الروم: 38.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

3- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه.

ينهى عن السفور والتبرج

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا؛ قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ، عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ، مَائِلاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يذم في هذا الحديث الشريف صنفين من الناس، ويتوعدهما بعاقبة وخيمة، تتلخص في اعتبارهما من أهل النار المحجوبين عن نظره وشفاعته، وأحد هذين الصنفين، هم المتسلطون على رقاب الناس، يقمعونهم ويضطهدونهم بوسائل القهر وأساليبه، التي شبهها صلى الله عليه وسلم في صورة حامل سياط كأذناب البقر يضرب بها الناس، أما الصنف الثاني، فهن النساء السافرات المتبرجات، اللواتي يرتدين ملابس فاضحة، تبدي المفاتن، وتجسد العورات، أو تشف عنها، ويصففن شعر رؤوسهن على صورة سنام الإبل، وقد أكد صلى الله عليه وسلم ما بدأ به حديثه، من كون هذين الصنفين من أهل النار، فبين في ختامه، أن النساء الكاسيات العاريات، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، على الرغم من أن ريحها يمكن أن يجده من كان بعيداً عنها مسافات طويلة، في إشارة إلى أن بُعد الكاسيات العاريات عن الجنة، سيكون أطول من ذلك، وفي شرح النووي على صحيح مسلم: (قيل في معنى كاسيات: إنهن متجردات من نعمة الله، عاريات من شكرها، وقيل معناه تستر بعض بدنها، وتكشف

1- صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات.

بعضه، إظهاراً بحالها ونحوه، وقيل معناه: تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنها. وأما مائلات؛ فقيل معناه عن طاعة الله، وما يلزمهن حفظه. مميلات؛ أي يعلمن غيرهن فعلهن المذموم، وقيل مائلات؛ يمشين متبخترات، مميلات لأكتافهن، وقيل مائلات؛ يمشطن المشطة المائلة، وهي مشطة البغايا. مميلات؛ يمشطن غيرهن تلك المشطة. ومعنى رؤوسهن كأسنمة البخت؛ أن يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها). [1]

موسم الصيف مناسبة للتذكير بلزوم الحشمة

يأتي التذكير بهذا الوعيد النبوي للنساء الكاسيات العاريات، مع بداية موسم الصيف، الذي يشهد عادة ألواناً مختلفة من أشكال التعري، حيث الطقس الحار، والمناسبات الاجتماعية تزداد، فيذهب إليها الناس بالحلل والزينة، غير مبالين بحرامها من حلالها، إلا من رحم ربي. والأمر الذي لا بد من تأكيده في هذا المقام، يتمحور حول مبدأين، أولهما يتعلق بإباحة الاستمتاع بطيبات الحياة، والزينة المنضبطة بأحكام الشريعة وقيمها وضوابطها، فالله ينكر تحريم ما أباح لعباده، فيقول تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}. [2]

فالبحث عن اللبس الجميل والأنيق، والظهور بالمظهر الحسن، مما فُطر الناس على حبه، والرغبة فيه، وهو من المباح الذي يمكن للناس أن يستمتعوا به في إطار ضوابط الشريعة الخاصة بقواعد اللباس والزينة في الإسلام، التي تتطلب ستر العورات، والبعد عن التباهي والتعالي والكبر والإسراف والتبذير، وتجنب تشبه الرجال بالنساء، والنساء

1- صحيح مسلم بشرح النووي، ج14،ص110.

2- الأعراف: 32.

بالرجال، والبعد عن التشبه بما يخص سمات غير المسلمين، وما إلى ذلك من تلك الضوابط والأحكام.

أما المبدأ الثاني الذي يدور حوله الأمر المراد تأكيده في هذا المقام، فيتعلق بالتفلت من قيم الإسلام وضوابطه وأحكامه الخاصة باللباس والزينة، وذلك بالظهور في صور يبدو فيها التعدي على حدود الله عنواناً، فبحجة الحر يخفف الناس من ملابسهم إلى حد تظهر بعده أجزاء من عوراتهم التي أمرهم الله بسترها، وهذا يشمل جنسيهم؛ الذكر والأنثى، غير أنه يبدو من النساء والفتيات أكثر، لأن حدود ما أمرن بستره أكبر، ومن أشكال تعدي حدود الله في هذا المجال، أن تخرج المرأة بثياب غير محتشمة، بل إن بعضهن تكون مساحة المغطى من جسدها بالثياب والقماش تعادل المساحة المكشوفة منه أو أصغر منها، وبعضهن يرتدين البنطال الضيق، ويضعن على رؤوسهن أغطيةً، وتظن الواحدة منهن أنها تحسن صنعاً بالجمع بين هذا السفور الفاضح، وبين أمر الله بالستر والحشمة، أو أن ترتدي عباءة تغطي جسدها، لكنها تبرز بعضه، أو تجسده، أو تكون خفيفة رقيقة، فيشف عما تحتها، أو إذا تحركت ماشية أو منحنية بدت بعض أعضائها ومفاتنها مجسدة مفصلة، وتصبح الفتنة في بعضهن - وهن بهذا الحال - أشد من العاريات، اللواتي يظهرن دون زينة اللباس وفن التجسيد والتفصيل. ومن ملابس التبرج تلك المزركشة أو الفاقعة أو المبرقعة التي تشد الأنظار إليها شداً، تكون فحواه الفتنة بها، أو مدعاة إلى تكثيف النظر إلى مرتديتها، مما يتنافى مع مقاصد الشرع الحنيف في أمره بغض البصر، وتجنب السلوك والتحرك والصوت الذي يفسح المجال رحباً لطمع الذي في قلبه مرض، والله تعالى ينهى نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، وهن أمهات المؤمنين، وخير النساء، عن الخنوع في القول والخضوع فيه، وقاية من طمع الذي في قلبه مرض من نفاق أو متابعة مفرطة

للشهوات خارج نطاق الحدود التي شرعها الله، فيقول تعالى: {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً}.[1]

حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات

المتابع للظروف المحيطة بالسلوك الخاص باللباس والزينة، يجد تسويقاً رحب المجال، ومتعدد الصور والوسائل والأساليب، يقود نحو السفور والتفنن في أشكاله وموديلاته، وهو يتقاطع أصلاً مع ما جبل عليه الإنسان من رغبة في الشهوة، وحب للزينة، خصوصاً تلك التي تبدو من الجنس الآخر، ولا يمتنع عن هذا السبيل سوى من كانت لديه قيم يمتثلها، ويتحلى بأخلاقها، فيعاكس التيار الجارف نحو الانفلات من ضوابط الشهوات، والمؤمن يسلك درب الانضباط، والتقيد بحكم الله في كل شأنه، ويكون التزامه هنا ليس لأنه تجرد من غرائزه وشهواته، وإنما تأثراً بتوجيهات قرآنية ونبوية، تلقاها من شريعته ودينه، تعدّل سلوكه ودوافعه، فتخرجها مهذبة من فلتان السلوك، ومن خير شواهد تلك التوجيهات، ما جاء في الحديث الشريف من تحذير المفرط باتباع الشهوات، فيقول، صلى الله عليه وسلم: (حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ).[2]

يقول الإمام النووي: (هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه، التي أوتيها صلى الله عليه وسلم، من التمثيل الحسن، ومعناه لا يوصل الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتك الحجاب؛ وصل إلى المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات. فأما المكاره؛ فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم،

1- الأحزاب: 32

2- صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

والصدقة، والإحسان إلى المسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك، وأما الشهوات التي النار محفوفة بها؛ فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر، والزنى، والنظر إلى الأجنبية، والغيبة، واستعمال الملاهي، ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة؛ فلا تدخل في هذه، لكن يكره الإكثار منها، مخافة أن يجر إلى المحرمة، أو يقسى القلب، أو يشغل عن الطاعات، أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا). [1]

سخط الله بالسفور ورضاه بالوقار

فإذا كان هدف المؤمن والمؤمنة الفوز بالجنة، والنجاة من نار وقودها الناس والحجارة، فينبغي عليهما أن يجتهدا في البحث عن سبل ذلك، فالسفور والتبرج يجلبان بعض المتعة، لكنهما باب واسع لضنك الحياة، واضطراب السلوك، وقلق النفس، وفوق هذا وذاك؛ فهما مجلبة لغضب الرحمن، وسخط النبي العدنان، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وحين يقف المرء أمام الاختيار بين غضب الله، وبين متاع الحياة وزينتها، فسيحدد موقفه، ويعزم قراره بناءً على مستوى إيمانه، ودرجة حسبانه، فمن كانت الجنة مبتغاه، فلن يحيد عن اختيار السلوك الذي يوافق الشرع، وينسجم مع أحكام الدين وقيمه، ومن كان عن هذا غافلاً، فسيتخبط في البدائل والخيارات، وسيظهر متجرداً من قيم الدين التي أوحى الله بها، أو في أحسن الأحوال؛ سيظهر مذبذباً بين الانضباط والتفلت، فلا هو مع أهل الحشمة والوقار، ولا هو مع أهل السفور والتبرج الخالصين، ويظن نفسه يحسن صنعاً، وهو المسيء بعينه، الذي يحاول التظلل بشيء من مطالب الدين، كالتي تغطي رأسها، وترتدي ما ضاق وفصّل وجسّد من السراويل، أو تضع غطاء على بعض رأسها، وتبقي جوانب شعرها أو مقدمته مكشوفاً، وهي بهذا تسعى للتفنن بالزينة أكثر من سعيها

1- صحيح مسلم بشرح النووي، ج17، ص165.

لإرضاء الله، الذي فرض عليها إخفاء الزينة وتغطية الجسد بما يستر من الأردية والثياب المشروعة، حيث أمرها الله مع زمرة المؤمنات، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}.[1]

أبرز دوافع المؤمنة للاحتشام

حين يكون إيمان المؤمن أو المؤمنة سليماً من الشوائب والنواقص والنواقض، فإنه يقود صاحبه إلى اختيار سلوكه في ضوء معاييره ومتطلباته، التي يستوحي منها المرء دوافعه وبواعثه، لتحديد اختياره للسلوك الذي ينسجم معها من بين البدائل الأخرى التي تتاح له، فحين تقف المؤمنة أمام اختيار سلوك الحشمة واللباس الشرعي، وأمامها خيارات كثيرة بألوان الطيف، من أنواع اللباس والزينة، التي يمكن أن ترضي فيها أهواءها ومخالطيها، فإنها تجد ما يجذبها نحو الحشمة، ونبذ السفور، وهي تذكر حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصحيح: (الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ من شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذلك).[2]

وفي فتح الباري تعقيباً على هذا الحديث الشريف: (أن طاعة الله موصلة إلى الجنة، والمعصية مقربة إلى النار، وأن الطاعة والمعصية قد تكونان في أيسر الأشياء، فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها. وقال ابن الجوزي: معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد، وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى، وفعل المعصية).[3]

1- الأحزاب: 59.

2- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك.

3- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج11، ص321.

فإذا هدفت الفتاة أو المرأة أن تجد طريقها إلى جنة عرضها السماوات والأرض، مما أعد الله لعباده الذين يتقونه ويتبعون سبيله، فلا بد لها من أن تسلك المسالك التي توصلها إلى هدفها المنشود، ومن تلك المسالك أن تنظر فيما ترتدي من ثياب، فتظهر على الملأ بثوب يستر جسدها، ويخفي مفاتنها وزينتها، مبتعدة عن التبرج والسفور، مستجيبة بذلك لأمر ربها الذي جاء في القواعد من النساء، فقال تعالى: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.[1]

فإذا كانت عجائز النساء مطالبات بمراعاة العفة وتجنب التبرج، فإن الفتيات والصبايا والنساء صغيرات السن أولى بالاستعفاف، وتجنب التبرج بالزينة، سائلين الله العلي القدير أن يهدي أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا ونساءنا إلى رشدهن، وصراطهن المستقيم على درب الحشمة والوقار والعفة، ليكنّ مع من رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل الجنة مأواهم.

وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحابته وأزواجه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- النور: 60.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يوصي بالتسوية بين الأبناء في العطية

عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ عَامِرٍ قَالَ: (سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنتُ رَوَاحَةَ: لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا، قَالَ: لا، قَالَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ، قَالَ: فَرَجَعَ، فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ)(1)، وفي رواية قال: (فَارْجِعْهُ)(2)، وفي رواية أخرى: (لا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ)(3)، وفي رواية (فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي)(4).

تبين هذه الأحاديث الشريفة حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الآباء على العدل والمساواة بين الأبناء في الهبات والعطايا، كما تبين مشروعية الهبة، وجواز أخذها، وتملكها، والتصرف بها تصرف الإنسان في سائر أملاكه، حيث الهبة من وسائل الكسب المشروعة، قال تعالى بحق هبة النساء بعض مهورهن للأزواج أو لأولياء الأمور: {وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا}(5)، وقد وردت أحاديث كثيرة تبين مشروعية الهبة وجواز أخذها، من ذلك قوله، عليه الصلاة والسلام: (تَهَادَوْا تَحَابُّوا)(6)، وهل الهدية إلا الهبة؟ وفي حديث آخر، يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ؛ لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ)(7)، وقد قبل النبي،

1- صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة.

2- صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

3- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد.

4- صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

5- النساء: 4.

6- موطأ مالك، كتاب الجامع، باب ما جاء في المهاجرة، 908/2، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، حديث 1766.

7- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها، والفرسن هو الظلف.

صلى الله عليه وسلم، هدية المقوقس كما قبل هدية النجاشي وهداه أيضاً، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: (أَهْدَى النَّجَاشِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَلْقَةً فِيهَا خَاتَمُ ذَهَبٍ فِيهِ فَصٌّ حَبَشِيٌّ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِعُودٍ، وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ، أَوْ بِبَعْضِ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ دَعَا بِابْنَةِ ابْنَتِهِ أُمَامَةَ بِنْتِ أَبِي الْعَاصِ، فَقَالَ: تَحَلِّي بِهَذَا يَا بُنَيَّةُ)[1]، وعن حنظلة ابن الربيع قال: (أَهْدَى الْمُقَوْقَسُ- مَلِكُ الْقِبْطِ – إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، هَدِيَّةً وَبَغْلَةً شَهْبَاءَ، فَقَبِلَهَا صلى الله عليه وسلم)[2]، وقد انعقد الإجماع على جواز الهبة ومشروعيتها وعلى استحبابها لما فيها من التعاون على البر والتقوى وإشاعة المحبة والتواد بين الناس.

تعريف الهبة وبيان أركانها

الهبة في اللغة: إعطاء الشيء إلى الغير بلا عوض، سواء أكان مالاً أم غير مال، فيقال: وهب له مالاً وهباً وهبة. وفي الاصطلاح: تمليك المال بلا عوض في الحال. [3]

أما أركان الهبة فهي العاقدان؛ أي الواهب والموهوب له، والمعقود عليه؛ وهو الشيء الموهوب، والصيغة، وهو ما يعرف بالعقود بالإيجاب والقبول.

ويشترط في الواهب أن يكون من أهل التبرع، وذلك بأن يكون عاقلاً بالغاً رشيداً، وأن يكون مالكاً للشيء الموهوب.[4]

كما يشترط في الموهوب له: أن يكون أهلاً لملك ما يوهب له، فإن كان الموهوب له عاقلاً بالغاً؛ فإنه يقبض الهبة، أما إذا لم يكن من أهل القبض، فإن الهبة له صحيحة لكن يقبض عنه من يصح منه القبض من ولي وغيره.

ويشترط في الشيء الموهوب أن يكون مما يصح بيعه، والقاعدة في ذلك أن ما صح بيعه صحت هبته.[5]

1- سنن ابن ماجه، كتاب اللباس، باب النهي عن خاتم الذهب، وحسنه الألباني.

2- المعجم الكبير، الطبراني، 12/4.

3- حاشية ابن عابدين، 255/5.

4- بدائع الصنائع، الكاساني، 118/6، وشرح خليل، الخرشي، 102/7.

5- بدائع الصنائع، الكاساني، 119/6، ومغني المحتاج، الشربيني، 399/2.

عطية الأب لأولاده

إذا أعطى الأب لأولاده صحت عطاياه، ولكن هل تجب التسوية بين الأولاد في العطية؟ ذهب الحنفية والمالكية والشافعية إلى أن التسوية بينهم في العطايا مستحبة، وليست واجبة، لأن الصديق، رضي الله عنه، فضّل عائشة، رضي الله عنها، على غيرها من أولاده في هبة، وفضّل عمر، رضي الله عنه، ابنه عاصماً بشيء من العطية على غيره من أولاده، قال ابن حجر: عمل الخليفتين أبي بكر وعمر بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، على عدم التسوية، قرينة ظاهرة بأن الأمر للندب، فأما أبو بكر فرواه الموطأ بإسناد صحيح، عن عائشة أن أبا بكر قال لها في مرض موته: إني كنت نحلتك نحلاً؛ فلو كنت اخترتيه لكان لك، وإنما هو اليوم للوارث. وأما عمر؛ فذكر الطحاوي وغيره أنه نحل ابنه عاصماً دون سائر ولده، وقد أجاب عروة عن قصة عائشة بأن إخوتها كانوا راضين بذلك[1]، ولأن في قوله، صلى الله عليه وسلم، في بعض روايات حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنهما: (فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي)، ما يدل على الجواز.

قال النووي: واحتج الشافعي وموافقوه بقوله صلى الله عليه وسلم: (فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي) قالوا: ولو كان حراماً أو باطلاً لما قال هذا الكلام، فإن قيل: قاله تهديداً، قلنا: الأصل في كلام الشارع غير هذا، ويحتمل عند إطلاقه صيغة افعل على الوجوب أو الندب، فإن تعذر ذلك فعلى الإباحة، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ)، فليس فيه أنه حرام، لأن الجور هو: الميل عن الاستواء والاعتدال.

وكل ما خرج عن الاعتدال فهو جور، سواء أكان حراماً أم مكروهاً، وقد وضح بما قدمناه أن قوله، صلى الله عليه وسلم: أشهد على هذا غيري: يدل على أنه ليس بحرام، فيجب تأويل الجور على أنه مكروه كراهة تنزيه، وفي الحديث (أَنَّ هِبَةَ بَعْضِ الأَوْلادِ دُونَ بَعْضٍ

1- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 215/5.

صَحِيحَةٌ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَهَبِ الْبَاقِينَ مِثْلَ هَذَا اسْتُحِبَّ رَدُّ الأوَّلِ، قَالَ أَصْحَابُنَا: يُسْتَحَبُّ أَنْ يَهَبَ الْبَاقِينَ مِثْلَ الأَوَّلِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلِ اسْتُحِبَّ رَدُّ الأَوَّلِ، وَلا يَجِبُ)[1]، وذهب الحنابلة وأبو يوسف من الحنفية، وهو قول ابن المبارك وطاووس، وهو رواية عن الإمام مالك، رحمه الله، إلى وجوب التسوية بين الأولاد في الهبة، فإن خص بعضهم بعطية، أو فاضل بينهم فيها أثم ووجبت عليه التسوية بأحد أمرين: إما رد ما فضل به البعض، وإما إتمام نصيب الآخر، لخبر النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، قال: (أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنتُ رَوَاحَةَ: لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا، قَالَ: لا، قَالَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ، قَالَ: فَرَجَعَ، فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ)[2]، وفي رواية قال: (فَارْجِعْهُ)[3]، وفي رواية أخرى: (لا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ)[4]، وفي رواية (فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي)[5].

وروي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (سووا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلاً أحداً، لفضلت النساء)[6]، واشترى النبي، صلى الله عليه وسلم، من عمر بعيراً ثم أعطاه ابن عمر، وقال: (هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، تَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتَ)[7].

قال ابن حجر، قال ابن بطال: مناسبة حديث ابن عمر للترجمة أنه صلى الله عليه وسلم لو سأل عمر أن يهب البعير لابنه عبد الله، لبادر إلى ذلك، لكنه لو فعل لم يكن عدلاً بين

1- صحيح مسلم بشرح النووي، 66/11 وما بعدها.

2- صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة.

3- صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

4- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد.

5- صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

6- سنن البيهقي، كتاب الهبات، باب السنة في التسوية بين الأولاد في العطية.

7- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئاً فوهب من ساعته قبل أن يتفرقا.

ابني عمر، فلذلك اشتراه صلى الله عليه وسلم منه، ثم وهبه لعبد الله، قال المهلب: وفي ذلك دلالة على أنه لا تلزم المعدلة فيما يهبه غير الأب لولد غيره، وهو كما قال.[1]

وقد جاء في قرار مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين رقم 77/3 بتاريخ 2009/11/5م: "وللمالك أن يهب ماله لأبنائه في حياته، بحيث ينتقل ذلك المال إليهم، ولهم حرية التصرف فيه حال حياة والدهم الواهب، بشرط عدم الإضرار بأحدهم، أو محاباة بعضهم دون الآخرين، لأن ذلك ظلم محرم شرعاً، لقوله، صلى الله عليه وسلم، في قصة النعمان ابن بشير (فَإِنِّي لا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ).[2]

وللأب تقسيم ماله بين أبنائه، ولذلك صورتان:

الأولى: تقسيم بعض ماله بين أبنائه، وهذه عطية - هبة - يراعى فيها التساوي لا فرق بين ذكر وأنثى، فلا يقع الظلم، لما ورد عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: (إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلامًا كَانَ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟ فَقَالَ: لا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَارْجِعْهُ).[3]

الثانية: أن يقسم كل ما يملك، وللفقهاء رأيان:

الأول: أن يقسم المال على أساس الهبة/ العطية/ النحلة، ويجب عليه العدل بين جميع أبنائه ذكوراً وإناثاً، وأن يسوي بينهم في العطية، ولا يحابي الذكور على حساب الإناث، أو يعطي بعض الأبناء أكثر من الآخرين، أو يحرم بعضهم من ذلك، لقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم).[4]

1- فتح الباري، لابن حجر، 71/8.

2- صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

3- صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

4- صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب الإشهاد على الهبة.

الثاني: أن يقسم المال على أساس الميراث الشرعي، فيعطي كلاً منهم حسب نصيبه في الميراث، ومن مات منهم انتقل نصيبه إلى ورثته.

ويرى مجلس الإفتاء الأعلى جواز تقسيم الوالد حال حياته وتمام إدراكه جميع أمواله على أولاده - ورثته في حال موته - مراعياً كون ذلك التقسيم حسب الأنصبة الشرعية، وأن لا يكون فيه إضرار بالغير، كالدائنين، وأن يكون تصرفاً حقيقياً يتضمن نقل الحيازة من الوالد لأولئك الأولاد.

وكما يجوز للوالد أن يهب أمواله لأبنائه، فإنه يصح له أن يرجع عن عطيته، لقول الرسول، فيما رواه ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً، ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا، إلا الْوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ ... قَالَ الشَّافِعِيُّ: لا يَحِلُّ لِمَنْ وَهَبَ هِبَةً أَنْ يَرْجِعَ فِيها، إلا الْوَالِدَ، فَلَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِيمَا أَعْطَى وَلَدَهُ، وَاحْتَجَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ).[1]

أهلنا في ديار الإسراء والمعراج؛ ويا أبناء أمتنا المجيدة؛ هذا هدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوجهنا إلى التسوية والعدل في عطايانا وهباتنا لأولادنا، فلنحرص على اتباع سنته، وتطبيق هديه الشريف، فهو أسوتنا وقدوتنا، وطريق نجاتنا في الدنيا والآخرة، وصلى الله على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطيبين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1- سنن الترمذي، كتاب الولاء والهبة عن رسول الله، باب ما جاء في كراهية الرجوع في الهبة، وصححه الألباني.

الفصل الثامن

اقتصاديات

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
40.	ﷺ يضيء نوراً في نفق البطالة بالحث على العمل والاستثمار (الحلقة الأولى)	249
41.	ﷺ يضيء نوراً في نفق البطالة بالحث على العمل والاستثمار (الحلقة الثانية)	256
42.	ﷺوقوله في الأشعريين: هُمْ مِنِّي وأنا منهم	263
43.	ﷺ ينبه إلى دور التعاضد في معالجة الأزمات الاقتصادية	268

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يضيء نوراً في نفق البطالة بالحث على العمل والاستثمار (الحلقة الأولى)

عن الزُّبَيْرِ بن الْعَوَّامِ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لأَنْ يَأْخُذَ أحدكم حَبْلَهُ؛ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ على ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ الله بها وَجْهَهُ، خَيْرٌ له من أَنْ يَسْأَلَ الناس، أَعْطَوْهُ أو مَنَعُوهُ). [1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحث في هذا الحديث وغيره على طرق أبواب العمل، وولوج ميادين الاستثمار، وينفر من الاستسلام للاستكانة، ومن الرضوخ للبطالة، التي شكلت باعثاً رئيساً لكثير من الأحداث الجسام، التي اشتعل لهيبها في عدد من الدول العربية مؤخراً، وسبق لها أن كانت شرارة لكثير من الثورات الشعبية في عدد من المجتمعات والدول الأخرى، فالبطالة بركان يهدد استقرار المجتمعات وأمنها، فهي إذ تتفاقم، تشكل مشكلة تؤرق حياة الأفراد والمجتمعات؛ لأنها تعرض حياة الناس للبؤس والفاقة، وتحول دون تحصيل أبسط المتطلبات الحياتية والمعيشية، فلا غرابة أن يذهب بجريرتها الأخضر واليابس، وبخاصة حين تتفاقم، لتبلغ درجة ثوران البركان، الذي يكون من دعائمه وعناصره؛ الجياع، والعاطلون، والمحرومون من نيل فرص العمل التي تتاح لفئات أخرى في مجتمعاتهم بيسر وسهولة وامتيازات!.

والبطالة تعني العجز عن الكسب، في صورتها الصريحة والمقنعة، سواء أكان سببها ذاتياً أم غير ذلك، وهي مشكلة تحتاج إلى تشخيص وعلاج ناجع، ويلزمها إجراءات وقائية تحول دون وجودها، فإذا وجدت، فلا بد من العمل على الحد من حجمها، والعمل على

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة.

استئصالها بما يتاح من الأساليب والوسائل، التي تتنوع بين مادية ونفسية وغيرهما، فالاستثمار، وخلق فرص العمل، والمبادرة إليه، من الأمور التي تحد من مشكلة البطالة، وتقلل من آثارها السلبية على الفرد والمجتمع، وهذه الأمور تنطلق من قناعة واعتقاد بأهميتها من قبل أصحاب العلاقة، سواء العمال منهم أم أرباب العمل أم الجهات المسؤولة في المجتمع، والإنسان في الإسلام يدرك أهمية دوره الذي يؤديه خلال رحلة حياته على الأرض، حيث يشعر أنه مستخلف فيها ومستعمر لها، وبالتالي فهو إيجابي الدور والمهمة، فالله أعلم ملائكته باستخلاف آدم، عليه السلام، وذريته في الأرض، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.[1]

والله سبحانه وتعالى أناط بالإنسان عمارة الأرض، فقال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا }.[2]

ومما يطلب من الإنسان حتى يتمكن من أداء دور الخلافة، ومهمة عمارة الأرض، أن يتفاعل إيجابياً معهما، ببذل الجهد في أدائهما، والسعي للنجاح فيهما، على الوجه الذي يحقق الغايات المنشودة، ولن يكون ذلك بالرضا بالبطالة ذريعة للكف عن العمل، والقبول بالمسألة التي تأتي بدريهمات من هنا وهناك، من أصحاب اليد العليا، مع التنبيه إلى أن حث المؤمنين على العمل الوارد في قوله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[3]، يشمل مطلق العمل المفيد والطيب، الذي منه العمل الذي يقود إلى تأمين القوت، وسد الحاجة، والقدرة على الغنى عن الآخرين، والتمكن في مراحل

1- البقرة: 30.

2- هود: 61.

3- التوبة: 105.

متقدمة من أداء الزكاة، وتقديم الصدقات لله، وذلك قطعاً لا يتحصل عندما يجنح المرء إلى بذل الجهد وماء الوجه للمسألة، التي يبتغيها سائغة دون عمل وعناء، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أرشد من أتاه سائلاً الصدقة والعون المادي إلى العمل، واستثمار الإمكانات المتوافرة لديه، ما دامت لديه قدرة على القيام بذلك، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلاً من الأَنْصَارِ أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْأَلُهُ، فقال: (أَمَا في بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قال: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ، وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فيه من الْمَاءِ، قال: ائْتِنِي بِهِمَا، فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بيده، وقال: من يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قال رَجُلٌ: أنا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قال: من يَزِيدُ على دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أو ثَلاثًا؟ قال رَجُلٌ: أنا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ، وَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ، وقال: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَانْبِذْهُ إلى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فيه رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عُودًا بيده، ثُمَّ قال له: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ، وَبِعْ، ولا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ، وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وقد أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، هذا خَيْرٌ لك من أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً في وَجْهِكَ يوم الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَصْلُحُ إلا لِثَلاثَةٍ؛ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أو لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أو لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ).[1]

ويحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من استسهال المسألة لسد الحاجة، فعن حَكِيمِ ابن حِزَامٍ، رضي الله عنه، قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قال: يا حَكِيمُ، إِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ، بُورِكَ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ، لم يُبَارَكْ له فيه، كَالَّذِي يَأْكُلُ

1- سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، وقال الألباني: ضعيف.

ولا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى، قال حَكِيمٌ: فقلـت: يـا رَسُـولَ اللّـهِ، وَالّـذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ، لا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شيئاً حتى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أبو بَكْـرٍ، رضـي الله عنـه، يَدْعُو حَكِيمًا إلى الْعَطَاءِ، فيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ منه، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ، رضي الله عنه، دَعَاهُ لِيُعْطِيَه، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ منه شيئاً، فقال عُمَرُ: إني أُشْهِدُكُمْ يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ على حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْـرِضُ عليه حَقَّهُ من هذا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فلم يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مـن النـاس بَعْـدَ رسـول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حتى تُوُفِّيَ).[1]

وكان السلف الصالح يتعففون عن طلب المسألة، بل عن أخذها، وقد ترجم الـصحابة، رضي الله عنهم، الاستعفاف عن سؤال الصدقة إلى عمل وسلوك، فعن سَالِمٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (سمعت عُمَـرَ يقـول: كـان رسـول اللّـهِ، صـلى الله عليـه وسلم، يُعْطِينِي الْعَطَاءَ، فَأَقُولُ: أَعْطِهِ من هو أَفْقَرُ إليه مِنِّي، فقال: خُذْهُ إذا جَـاءَكَ مـن هـذا الْمَالِ شَيْءٌ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ، ولا سَائِلٍ، فَخُذْهُ وما لا، فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ).[2]

وجاء تأكيد التنفير من سؤال العون المادي من القادر على الكسب في أكثر من شـاهد، ففي صحيح البخاري، وتحت بَاب (من سَأَلَ الناس تَكَثُّرًا)، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن أبـي جَعْفَـرٍ قال: سمعت حَمْزَةَ بن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، قال: سمعت عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ، رضـي الله عنهمـا، قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: ما يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ الناس، حتى يَأْتِيَ يوم الْقِيَامَـةِ ليس في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ).[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة.

2- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئاً من غير مسألة ولا إشراف نفس.

3- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً.

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: من سَأَلَ الناس أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ، أو لِيَسْتَكْثِرْ).[1]

ويدل منهج الصحابة الذين تربوا في مدرسة النبوة، على عنايتهم بالعمل والاستثمار، ورفضهم الخنوع للبطالة الذاتية التي يختارها العامل بإرادته، وبدافع من كسله، أو فهمه الخاطئ للتوكل، فيروى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مرّ بقومٍ من أهل اليمن، جاءوا إلى الحج بلا زاد، فقال: "من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون. فقال: بل أنتم المتواكلون، إِنما المتوكل رجلٌ ألقى حبه في بطن الأرض، وتوكل على ربه عز وجل"[2]. وعنه رضي الله عنه، أنه قال: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة".[3]

وكان رضي الله عنه يرى الرجل، فيعجبه منظره، فيسأل: "أله حرفة تغنيه عن سؤال الناس؟ فإن تبين أنه لا حرفة له، سقط من نظره وازدراه" .

وروي عن نافع، قال: "دخل شاب قوي المسجد، وفي يده مشاقص- نصال- وهو يقول: من يعينني في سبيل الله؟ فدعا به عمر، فأتي به، فقال: من يستأجر مني هذا يعمل في أرضه؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا أمير المؤمنين، قال: بكم تأجره كل شهر؟ قال: بكذا وكذا، قال: خذه، فانطلق به، فعمل في أرض الرجل أشهراً، ثم قال عمر للرجل: ما فعل أجيرنا؟ قال: صالح يا أمير المؤمنين. قال: إئتني به، وبما اجتمع له من الأجر، فجاء به، وبصرة من دراهم، فقال: خذ هذه، فإن شئت فالآن فاغزُ، وإن شئت فاجلس".[4]

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس.
2- أنظر: المجالسة وجواهر العلم، الدينوري، ص510.
3- العقد الفريد، ابن عبد ربه، 325/2.
4- شعب الإيمان، البيهقي، 82/2.

وقال ابن مسعود: "إني لاحقت الرجل أراه فارغاً، لا في أمر دنياه، ولا في أمر آخرته".[1]

ويحدث الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عَوْفٍ، رضي الله عنه، عن الاستثمار الحسن للمال والعمل، فيقول: (لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، آخَى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بن الرَّبِيعِ، فقال سَعْدُ بن الرَّبِيعِ: إني أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالاً، فَأَقْسِمُ لك نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ، نَزَلْتُ لك عنها، فإذا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قال: فقال عبد الرحمن: لا حَاجَةَ لي في ذلك، هل من سُوقٍ فيه تِجَارَةٌ؟ قال: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ، قال: فَغَدَا إليه عبد الرحمن، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قال: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ، فما لَبِثَ أَنْ جاء عبد الرحمن عليه أَثَرُ صُفْرَةٍ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: تَزَوَّجْتَ؟ قال: نعم، قال: وَمَنْ؟ قال: امْرَأَةً من الأَنْصَارِ، قال: كَمْ سُقْتَ؟ قال: زِنَةَ نَوَاةٍ من ذَهَبٍ، أو نَوَاةً من ذَهَبٍ: فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم: أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ)[2]، فلم يستكن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، للعرض السهل الذي وضع في متناول يده، وطلب عنوان السوق؛ ليؤدي دوره في الاستثمار، فكان له ذلك، حتى إنه عاد بعد أيام متزوجاً ومتأهلاً، وهكذا يجب أن تكون أحوالنا، ومن المفروض أن يكون سلوكنا، في معاشنا وعملنا واستثمارنا.

ولما سئل الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن أطيب الكسب، جاء جوابه متضمناً الحث الصريح على العمل، والإشادة به، فقد (سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أي الكسب أطيب ؟ قال: عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ).[3]

1- الزهد، أبو داود، 186/1.

2- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض...}.

3- مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث رافع بن خديج، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

وفي سياق حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على العمل، يروى عن رافع بن خديج، رضي الله عنه، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا من أَنْ يَأْكُلَ من عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ، عليه السَّلام، كان يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ).[1]

والسعي في طلب العمل، أمر الله به في قرآنه الكريم، فقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[2]، ويكون الابتغاء هنا بعد الانصراف من أداء عبادة الجمعة، وذلك بالشروع بعبادة أخرى، تتمثل في طلب الرزق، إذ إن من بديهات المفهوم العام للعبادة في الإسلام؛ أنه يشمل كل ما يتقرب العبد به إلى الله، فالشعائر والمناسك عبادة، والعمل والاستثمار الذي يُبتغى به وجه الله، ويُؤدى في إطار ما شرع سبحانه عبادة، فإماطة الأذى عن الطريق عبادة، وملاطفة الزوج زوجه باللقمة التي يضعها في فيها عبادة، ويتعبد الزوجان إلى الله، وهما يأتيان شهوتهما في هذا النطاق. فالساعي إلى الرزق بجسمه، وجهده، واستثمار ماله، يتعبد إلى الله، وهو أفضل من الذي يختار البطالة طريقاً، وذريعة لطلب المسألة من أصحاب الثراء، فعن حَكِيمِ بن حِزَامٍ، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عن ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ، يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ، يُغْنِهِ الله).[3]

وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وإلى اللقاء في الحلقة الآتية إن شاء الله، حول مزيد من الإشعاعات المنبعثة من إضاءة نفق البطالة بالحث على العمل والاستثمار.

1- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

2- الجمعة: 10.

3- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى.

عن أَبي أُمَامَةَ، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: يـا ابـن آدَمَ، إِنَّـكَ أَنْ تَبْـذُلَ الْفَضلَ خَيْرٌ لك، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لك، ولا تُلامُ على كَفَـافٍ، وَابْـدَأْ بِمَـنْ تَعُـولُ، وَالْيَـدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى)[1]، يستشعر المسلم في ظلال الهدي النبوي، بدوره الإيجابي في ميادين العمل والإنتاج، فهو ينفق المال، في مجالات الخير، ومنها استثماره في خدمة نفسه وعياله ومجتمعه، متجنباً الحرص على الشح والبخل، ولا ينخدع بوهم تنامي الأرصدة عن طريق الادخار في المصارف الربوية، والذي يلجأ إلى هـذا الطريـق المعـوج؛ طمعاً في جني إضافات ربوية عليه، غير آبهٍ بمحق الله لبركة المال الربوي، يُحجب ماله عن منافع النـاس ومصالحهم، فلا يجدون منه نفقات، ولا استثمارات، وهذا سبيل من انحرف عن جادة الحـق والخير، والعياذ بالله.

فالمال مرغوب، ومحتاج إليه، والسعي في طلبه مشروع، لكن بالطرق المشروعة، وللغايـات النبيلة، فبشأنه يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (وَإِنَّ هـذا الْمَـالَ حُلْـوَةٌ، مـن أَخَـذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ في حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هو، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْـرِ حَقِّـهِ، كـان كَالَّـذِي يَأْكُـلُ ولا يَشْبَعُ)[2]، وطلب المال بالاستثمار المشروع؛ لسد الحاجات، وتنمية الاقتصاد، والقضاء علـى البطالة والفاقة والحاجة، مشروع دون ريب، بل قد يصبح واجباً من الواجبات، وحقـاً مـن الحقوق، حين تتعلق به مصلحة الجماعة، وقضاء مصالح أفرادها وحاجاتهم المشروعة، ويأتي في هذا السياق التحذير من إضاعة المال، فقد كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إلى الْمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ، أَنْ اكْتُبْ إليّ بِشَيْءٍ، سَمِعْتَهُ من النبي، صلى الله عليه وسلم، فَكَتَبَ إليه: (سمعت النبي، صـلى الله

1- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى...
2- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.

عليه وسلم، يقول: إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا؛ قِيلَ وقال، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ)[1]، مما يعني أن الله يكره هدر المال في غير الوجوه النافعة والمفيدة، وفي المقابل فإن استثمار المال في سبل الخير والنماء، هو من وجوه الخير المحمودة، التي تنفع البلاد والعباد.

والله تعالى يريد للمال أن يكون في متناول عموم الناس، دون أن يكون تملكه حكراً على بعض منهم دون بعض، ومن التوجيهات القرآنية التي تؤكد هذه الغاية، ما جاء في التعقيب على تعيين أصحاب الحظوظ في الفيء، الذين كانوا موزعين بين عدد من شرائح المجتمع، فقال تعالى: {...كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ...}[2]، فهذه الآية الكريمة، تعبر عن صورة من صور العدل الذي جاء به الإسلام، من خلال العمل على أن يكون عطاء المال متاح لمستحقيه، دون أن يتكدس لدى فئة ويحرم الآخرون منه، ويخدم هذا الغرض إفساح المجال للحصول على العمل، للمواطنين بصورة منصفة متكافئة، وعلى تساو في المستوى والمجال، دون محاباة، أو إيثار بعضٍ منهم، وحجب آخرين.

والناظر في استثمار المال يجده عملاً مطلوباً من العمال، وأصحاب رؤوس الأموال والمنشآت الاقتصادية، ومن المجتمع ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية، وعلى رأسها الوزارات الحكومية، فهو يقع في نطاق مسؤوليات عدة، ويكون في أحسن أحواله، حين تتضافر الجهود من أجل إنجاحه، وتحقيق الغايات المرجوة منه، ويأتي ذلك في نطاق المسؤولية التي يتحملها الراعي عن رعيته، فالسلطان مسؤول عن توفير فرص العمل المتكافئة للقادرين عليه من رعيته، ضمن مسؤوليته عن تأمين العيش الكريم وسبله لهم، وربّ الأسرة مطالب بالبحث عن العمل والسعي إليه، في إطار ما أنيط به من مسؤولية عن إعالة نفسه وعياله وذويه، والنهوض بالحياة الاقتصادية في مجتمعه، فعن سَالِمٌ، عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: كُلُّكُمْ

1- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً}.

2- الحشر: 7.

رَاعٍ، ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالإِمَامُ رَاعٍ، ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ، ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ في بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، ومسؤولة عن رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ في مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قد قال: وَالرَّجُلُ رَاعٍ في مَالِ أبيه).[1]

فآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، توجه المسلمين لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، وتتسم تلك التوجيهات في أحيان كثيرة بالعمومية والرمزية التي تتماشى مع مرونة الإسلام العظيم، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وبخاصة أنه خاتم الأديان الذي جاء البشرية منقذاً من الشر إلى الخير، ومن الانحطاط إلى الرقي، ومن الفساد إلى الصلاح، وذلك في ميادين الحياة ومجالاتها كلها، ولم يكن مطلوباً من الإسلام ونصوصه الشرعية أن تأتي بالتفاصيل والتعيينات كلها، ولكنها بإشاراتها، تفتح الآفاق لاستنتاج الدروس، واستنباط التوجيهات، واستخلاص العبر، ففي مجال البطالة؛ كان للإسلام الحنيف أحكام وتوجيهات ومواقف، توحي بأنه يرفض موقف التفرج على معاناة الناس بتخبطهم في اختيار المواقف والحلول لمشاكلهم، وإنما يدخل معتركها بقوة المؤثر الفاعل الذي يشخص الداء، ويصف الدواء الناجع، فلما شكا قوي الجسد الفاقة، وطلب المساعدة النقدية أو العينية، لقي توجيهاً واضحاً، يقود إلى اختراق جدار العمل، أياً كان شكله أو نوعه، ما دام يقع ضمن مقدور العامل، وفي حدود المباح شرعاً، فلم يرضَ عليه الصلاة والسلام، أن تكون المسألة سبيلاً لائقاً لتحصيل الأرزاق، واستعاض عنها بالحث على العمل، والبحث عنه، واستثمار أبسط الإمكانات، للخروج من أزمة الفقر، ومشكلة البطالة، عن طريق العمل المنتج، ولم يكن مطلوباً من الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يعمل في زمانه أو يحث على بناء مصانع، وإقامة منشآت اقتصادية ضخمة، تستوعب آلاف العمال، وتنقذ اقتصاد البلاد والعباد، في زمن لم تكن مستويات الاستثمار قد بلغت فيه

1- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}.

هذا النحو، وبخاصة في البيئة المحيطة، لكن هذا لا يمنع من التفكير ملياً في البحث عن حلول جذرية لمشكلة البطالة، من خلال توسيع نطاق الاستثمار الذي كان يومها بسيطاً، وصار اليوم ضخماً ومعقداً، والمتدبر في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، يجدها قد ركزت في هذا المجال على التوجه إلى العمل المشروع، ورفضت سؤال الصدقات كحل لأزمة الحاجة عند وجود البديل الأنسب، وهي ترفض كذلك حشد الأرصدة، وخزن الادخارات، على وجه الكنز، وتحث على استثمارها بما ينفع صاحب المال، والعامل، ومصالح المجتمع.

ومن مؤيدات الحث على الاستثمار، الذي يرجع بالنفع والخير على العامل، وصاحب المال والمجتمع، قوله تعالى: {...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[1]، فالتعاون بين العامل ورب العمل، يفيد الطرفين، وتتجاوزهما الفائدة؛ لتعم أطرافاً أخرى، من ذويهم، ومستحقي العون والصدقة، بالإضافة إلى دعم اقتصاد البلد، وتنمية موارده وثرواته، ودعم قوته الاقتصادية والاستثمارية.

ويتنوع الحث الإسلامي على العمل، ليشمل أنواعه المختلفة ومجالاته العديدة، في دلالة على الاهتمام بالاستثمار الشامل، الذي يعم أبسط الأعمال وأوسعها نطاقاً، ويتيح هذا الوسع والشمول المجال رحباً لمكافحة مشكلة البطالة وآثارها السلبية على الفرد والمجتمع، ففي العمل اليدوي يقول رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا من أَنْ يَأْكُلَ من عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ، عليه السَّلام، كان يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ)[2]، وقد (سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أي الكسب أطيب أو أفضل؟ قال: عَمَلُ

1- المائدة: 2.

2- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ)[1]، فجاء جواب الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن أطيب الكسب، متضمناً الحث الصريح على العمل اليدوي، والإشادة به. وفي أعمال الصناعة يقول تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ}[2]، وفي أعمال الزراعة، يقول رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما من مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ، أو إِنْسَانٌ، أو بَهِيمَةٌ، إلا كان له بِهِ صَدَقَةٌ)[3]، وفي تربية المواشي ورعايتها، يقول صلى الله عليه وسلم: (ما بَعَثَ الله نَبِيًّا إلا رَعَى الْغَنَمَ، فقال أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فقال: نعم، كنت أَرْعَاهَا على قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ)[4]، وفي استغلال الطاقات البشرية، وموجودات البيئة للاستثمار، يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (لأَنْ يَأْخُذَ أحدكم حَبْلَهُ؛ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ على ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ الله بها وَجْهَهُ، خَيْرٌ له من أَنْ يَسْأَلَ الناس، أَعْطَوْهُ أو مَنَعُوهُ)[5]، ويأتي في هذا السياق، الحث على الإنفاق، وأدوات الاستثمار ووسائله، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ؛ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ على عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ على دَابَّتِهِ في سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ على أَصْحَابِهِ في سَبِيلِ اللَّهِ، قال أبو قِلابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قال أبو قِلابَةَ: وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا من رَجُلٍ يُنْفِقُ على عِيَالٍ صِغَارٍ! يُعِفُّهُمْ، أو يَنْفَعُهُمْ الله بِهِ وَيُغْنِيهِمْ)[6]، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يبين فضل إنفاق المرء على دابته، والدابة تمثل وسيلة النقل والمواصلات، مما يعين في خدمة الاستثمار، ويحقق غاياته وأهدافه.

وفي مجال استثمار المال، وهو عصب الاقتصاد، تقع على عواتق أصحاب رؤوس الأموال مسؤوليات كبيرة تجاه مجتمعهم، فعن أبي ذَرٍّ، رضي الله عنه، قال: (خَرَجْتُ لَيْلَةً من اللَّيَالِي،

1- مسند أحمد، مسند الشاميين، مسند رافع بن خديج، وقال شعيب: حسن لغيره.

2- الأنبياء: 80.

3- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.

4- صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط.

5- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة.

6- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم.

فإذا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَمْشِي وَحْدَهُ، وَلَيْسَ معه إِنْسَانٌ، قال: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَمْشِيَ معه أَحَدٌ، قال: فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي ظِلِّ الْقَمَرِ، فَالْتَفَتَ، فَرَآنِي، فقال: مَن هذا؟ قلت: أبو ذَرٍّ، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، قال: يا أَبَا ذَرٍّ، تعال، قال: فَمَشَيْتُ معه سَاعَةً، فقال: إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمْ الْمُقِلُّونَ يوم الْقِيَامَةِ، إلا من أَعْطَاهُ الله خَيْرًا، فَنَفَحَ فيه يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ، وَعَمِلَ فيه خَيْرًا)[1]، وعبارة" وَعَمِلَ فيه خَيْرًا " عامة تشمل مطلق مجالات الخير التي يمكن أن تجنى من استثمار المال.

فلا يقبل الله من صاحب المال أن يؤثر الراحة ورغد العيش، والاطمئنان إلى ضخامة الأرصدة، بل عليه واجب نابع من ثرائه وكثرة ماله، ومن صور هذا الواجب؛ المساهمة الفاعلة في التصدي لظاهرة الفقر والفاقة في مجتمعه، بوسائل عدة، منها: الصدقات المباشرة، وغير المباشرة المتمثلة في استثمار المال في مشاريع التنمية، التي تفتح أبواب الرزق الكريم للأيدي العاملة، وتُحدث في المجتمع حركة اقتصادية مثمرة، يفيد منها الجميع، بما فيهم صاحب المال. فلا تحصر مسؤولية المكثرين في مجال الزكاة والصدقات المعلومة، بل تتعدى ذلك لتشمل الصدقة بالاستثمار، وفتح آفاق العمل لطالبيه؛ ليعيشوا بكرامة، ويؤمّنوا قوت عيالهم وحاجاتهم بأمن وطمأنينة، وبالاستثمار يستفيد المجتمع بالانتعاش الاقتصادي، وبالأمن الاجتماعي الذي يسوده، ويستفيد صاحب المال بنماء ماله، ويستفيد المقلون بالحصول على أرزاقهم بالعمل الكريم، وبذل الجهد، والخروج من كابوس البطالة، وقهر الفقر والفاقة، هذا عدا عن البركة التي يسرها الله للمال، والعمل، والعامل، إضافة إلى نيل رضا الله، وحسن ثوابه.

ويمكن أن يفهم الحث على الاستثمار، والسعي إلى العمل، وبذل الجهد للقضاء على البطالة، في أكثر من موضع وتوجيه مما ورد في القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة،

1- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلون.

فالله تعالى يتوعد الذين يكنزون المال، ولا ينفقونه في مصالح العباد، ولا يستثمرونه في سبل الخير والنماء، فيقول تعالى: {...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[1]، ويؤكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، التحذير من كنز المال، وتوعد المكنز، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: من آتَاهُ الله مَالاً، فلم يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ له يوم الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، له زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يوم الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بلهزميه، يَعْنِي شدقيه، ثُمَّ يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلا: {ولا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ...الآيَةَ}[2]).[3]

فليس من قبيل المصادفة أن يكون الوعيد العظيم والفظيع لمن يكنز المال، دون أن يؤدي حق الآخرين فيه، الذين من حقهم أن يأخذوا نصيبهم من زكاته، ومن حقهم أن تفتح لهم آفاق العمل به؛ لينتفعوا وينفعوا غيرهم من عيال وأهل ومجتمع، فهذه بعض التوجيهات القرآنية والنبوية، التي يمكن أن يستنبط منها الحث على استثمار المال في مجالات التنمية الاقتصادية، ومحاربة الفاقة والفقر والبطالة السافرة والمقنعة.

هدانا الله للتدبر في هذه التوجيهات، وبخاصة الأغنياء والأثرياء منا؛ حتى يكونوا ممن قال فيهم الرسول، صلى الله عليه وسلم: (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ).[4]

وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- التوبة: 34.

2- آل عمران: 180.

3- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.

4- مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث عمرو بن العاص عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم.

وقوله في الأشعريين: همْ مِنِّي وأنا منهم

عن أبي مُوسَى قال: (قال النبي، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إذا أَرْمَلُوا في الْغَزْوِ، أو قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا ما كان عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ في إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وأنا منهم).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يثني على الأشعريين في هذا الحديث الشريف ثناء بلغ درجة نسبتهم إليه، وانتسابه إليهم، في دلالة رمزية على مدى اعتزازه بهم، وحبه لهم، وذلك من خلال قوله: "فهم مني" أي متصلون بي، وكلمة "من" هنا تسمى بمن الاتصالية، نحو أنا من كذا، وكذا مني؛ أي هم متصلون بي فيما ذكر.

وقال النووي: معناه المبالغة في اتحاد طريقهما، واتفاقهما في طاعة الله تعالى. وقيل المراد فعلوا فعلي في المواساة. ويرى العيني أن هذا القول يعبر عن إرادة المبالغة في اتصالهم في الطريق، واتفاقهم على الطاعة.[2]

الأشعريون ونسبة مسماهم

ورد في عمدة القاري أن الأَشْعَرِيِّينَ جمع أشعري، نسبة إلى الأشعر، وهو نبت بن أدد ابن زيد بن يشحب بن عريب بن زيد بن كهلان، وإنما قيل له الأشعر؛ لأنه ولدته أمه أشعراً، والشعر على كل شيء منه.

وفي العمدة كذلك، أن الأشعريين جمع أشعري بتشديد الياء، نسبة إلى الأشعر قبيلة من اليمن، ويروى أن الأشعرين بدون ياء النسبة، وتقول العرب جاءك الأشعريون بحذف الياء.[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض.

2- عمدة القاري، العيني ج13،ص44، وج18، ص29.

3- عمدة القاري، العيني ج13، ص44، و ج18، ص29.

كيف كان الأشعريون يواجهون أزماتهم الاقتصادية؟

امتاز الأشعريون بحسن الصنيع في مواجهة الأزمات الاقتصادية التي كانت تنتابهم، فكانوا عند القحط وقلة ذات اليد يتضافرون بطريقة تعبر عن الشعور بالمسؤولية الجماعية، والتجرد عن الأنانية والاستحواذ، مما جعلهم ينالون حظوة متقدمة لدى الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث وصف الحديث النبوي الصحيح المذكور أعلاه موقفهم من الأزمات الاقتصادية، فكان الأشعريون إذا أرملوا: أي إذا فني زادهم، من الإِرمال بكسر الهمزة، وهو فناء الزاد، وإعواز الطعام، وأصله من الرمل؛ كأنهم لصقوا بالرمل من القلة، كما في قوله تعالى: {ذا متربة}[1][2]، فكانوا رضي الله عنهم إذا حلت بهم الأزمات الاقتصادية، جَمَعُوا ما كان عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ في إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، ويعني هذا ألا يأكل بعضهم، ويجوع الآخرون، أو يتخم بعضهم بالأرصدة والملذات، ويحرم الآخرون من أبسط المتطلبات، وإنما هم إخوة في السراء والضراء، يقتسمون بموجبها الموجود عند وقوع الأزمات بالسوية، وبهذا ينتصرون على الأحقاد والأنانيات، ويقهرون الفقر والفاقة، ويرضون الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ويعيشون متكافلين متضامنين، حيث كانوا يخلطون الأزواد في السفر، ويجمعونها في شيء عند قلتها في الحضر، ثم يقسمونها، وليس المراد بهذا القسمة المعروفة في كتب الفقه بشروطها، ومنعها في الربويات واشتراط المساواة وغيرها، وإنما المراد هنا إباحة بعضهم بعضاً ومواساتهم بالموجود.[3]

1- البلد:16.

2- عمدة القاري، العيني، ج13، ص44.

3- صحيح مسلم بشرح النووي، ج16، ص62.

فضيلة الأشعريين وحسن نهجهم

يشير هذا الحديث إلى فضيلة الأشعريين وفضيلة الإيثار والمواساة، ويبين العيني في العمدة أن هذا الحديث الشريف فيه منقبة عظيمة للأشعريين من إيثارهم ومواساتهم بشهادة سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأعظم ما شرفوا به كونه أضافهم إليه. [1]

من فضائل الأشعريين الأخرى

أفرد مسلم في صحيحه باباً لبعض فَضَائِلِ الأَشْعَرِيِّينَ، رضي الله عَنْهُمْ، أورد فيه بالإضافة للحديث المذكور أعلاه حديثاً آخر يدل على فضلهم، فعن أبي مُوسَى قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إني لأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ، حين يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وأعرف مَنَازِلَهُمْ من أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وإن كنت لم أَرَ مَنَازِلَهُمْ حين نَزَلُوا بِالنَّهَارِ، وَمِنْهُمْ حَكِيمٌ إذا لَقِيَ الْخَيْلَ، أو قال: الْعَدُوَّ، قال لهم: إِنَّ أَصْحَابِي يَأْمُرُونَكُمْ أن تَنْظُرُوهُمْ). [2]

فالأشعريون من أهل القرآن، الذين تنبعث من منازلهم أصواتهم الندية في تلاوة القرآن، حيث كانت منازلهم متميزة بانبعاث أصواتهم منها بالقرآن بالليل، فكان صلى الله عليه وسلم يعرف أنها منازلهم حين يمر بها في ظلمة الليل، دون أن يكون لديه علم سابق عن أنها لهم، وحتى لو لم يكن قد رأى مواضعها في النهار، ومعلوم أن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، الذين يرتقون أرفع المنازل والدرجات بقراءتهم القرآن وعملهم بما جاء فيه.

ومما ورد في فضائل بعض رجال الأشعريين، ما قاله صلى الله عليه وسلم بشأن الصحابيين الجليلين أبي موسى وأبي عامر الأشعريين، رضي الله عنهما، حيث ورد في صحيح مسلم حديث نبوي خاص ببعض فَضَائِلِ أبي مُوسَى وَأَبِي عَامِرٍ الأَشْعَرِيَّيْنِ،

1- عمدة القاري، ج13، ص44.

2- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

رضي الله عنهما، فعن أبي مُوسَى قال: (كنت عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو نَازِلٌ بِالْجِعْرَانَةِ بين مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ بِلالٌ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، رَجُلٌ أَعْرَابِيٌّ، فقال: ألا تُنْجِزُ لي يا محمد ما وَعَدْتَنِي؟ فقال له رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَبْشِرْ، فقال له الأَعْرَابِيُّ: أَكْثَرْتَ عَلَيَّ من أَبْشِرْ، فاقبل رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، على أبي مُوسَى وَبِلال كَهَيْئَةِ الْغَضْبَانِ، فقال: إن هذا قد رَدَّ الْبُشْرَى، فَاقْبَلا أَنْتُمَا، فَقَالا: قَبِلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ دَعَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِقَدَحٍ فيه مَاءٌ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ فيه، وَمَجَّ فيه، ثُمَّ قال: اشْرَبَا منه، وافرغا على وُجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا، وَأَبْشِرَا، فَأَخَذَا الْقَدَحَ، فَفَعَلا ما أَمَرَهُمَا بِهِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَنَادَتْهُمَا أُمُّ سَلَمَةَ من وَرَاءِ السِّتْرِ، أَفْضِلا لأُمِّكُمَا مِمَّا في إِنَائِكُمَا، فَأَفْضَلا لها منه طَائِفَةً).[1]

فهنيئاً لكما أبا موسى وأبا عامر الأشعريان، ما نلتما من حظوة ومنزلة لدى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحزتما البركة والبشرى، والشفاعة، حيث دعا لكما رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واستغفر لكما، فعن عبد اللَّهِ بن بَرَّادٍ أبو عَامِرٍ الأَشْعَرِيُّ وأبو كُرَيْبٍ محمد بن الْعَلاءِ، واللفظ لأَبِي عَامِرٍ، قالا: (حدثنا أبو أُسَامَةَ عن بُرَيْدٍ، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبيه، قال: لَمَّا فَرَغَ النبي، صلى الله عليه وسلم، من حُنَيْنٍ، بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ على جَيْشٍ إلى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بن الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ، وَهَزَمَ الله أصحابه، فقال أبو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مع أبي عَامِرٍ، قال: فَرُمِيَ أبو عَامِرٍ في رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ رَجُلٌ من بَنِي جُشَمٍ بِسَهْمٍ، فَأَثْبَتَهُ في رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إليه، فقلت: يا عَمِّ؛ من رَمَاكَ، فَأَشَارَ أبو عَامِرٍ إلى أبي مُوسَى، فقال: إن ذَاكَ قَاتِلِي، تَرَاهُ ذلك الذي رَمَانِي، قال أبو مُوسَى: فَقَصَدْتُ له، فَاعْتَمَدْتُهُ، فَلَحِقْتُهُ، فلما رَآنِي وَلَّى عَنِّي ذَاهِبًا، فَاتَّبَعْتُهُ، وَجَعَلْتُ أَقُولُ له: ألا تستحيي؟! أَلَسْتَ عَرَبِيًّا؟! ألا تَثْبُتُ؟! فَكَفَّ، فَالْتَقَيْتُ أنا وهو، فَاخْتَلَفْنَا أنا وهو ضَرْبَتَيْنِ، فَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ، فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ

1- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين.

إلى أبي عَامِرٍ، فقلت: إن اللَّهَ قد قَتَلَ صَاحِبَكَ، قال: فَانْزِعْ هذا السَّهْمَ، فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا منه الْمَاءُ فقال: يا ابن أَخِي؛ انْطَلِقْ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فأقرئه مِنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ له: يقول لك أبو عَامِرٍ: اسْتَغْفِرْ لي، قال: وَاسْتَعْمَلَنِي أبو عَامِرٍ على الناس، وَمَكَثَ يَسِيرًا، ثُمَّ إنه مَاتَ، فلما رَجَعْتُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، دَخَلْتُ عليه وهو في بَيْتٍ على سَرِيرٍ مُرْمَلٍ، وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ، وقد أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أبي عَامِرٍ، وَقُلْتُ له: قال: قُلْ له يَسْتَغْفِرْ لي، فَدَعَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِمَاءٍ، فَتَوَضَّأَ منه، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قال: اللهم اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أبي عَامِرٍ، حتى رأيت بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قال: اللهم اجْعَلْهُ يوم الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ من خَلْقِكَ، أو من الناس، فقلت: وَلِي يا رَسُولَ اللَّهِ، فَاسْتَغْفِرْ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: اللهم اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بن قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وادخله يوم الْقِيَامَةِ مُدْخَلاً كَرِيمًا، قال أبو بُرْدَةَ: إِحْدَاهُمَا لِأَبِي عَامِرٍ، وَالْأُخْرَى لِأَبِي مُوسَى).[1]

فهذا بعض ما جاء في الحديث النبوي الشريف الصحيح عن الأشعريين وفضلهم، وحسن سلوكهم ونهجهم، وبخاصة في قراءتهم الليلية للقرآن في منازلهم، ومواجهتهم الأزمات الاقتصادية التي تحل بهم، بتعاضد وتعاون وتكافل عزّ نظيره، مما نرجو أن نوفق في التعرض إلى فحوى ذاك النهج السوي في ضوء الحديث النبوي الشريف، وذلك في حلقة قادمة من حلقات هذه الزاوية، رسولنا الأسوة، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين، رضي الله عنهما.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ينبه إلى دور التعاضد في معالجة الأزمات الاقتصادية

عن سَلَمَةَ، رضي الله عنه، قال: (خَفَّتْ أَزْوَادُ الْقَوْمِ وَأَمْلَقُوا، فَأَتَوْا النبي، صلى الله عليه وسلم، فِي نَحْرِ إِبِلِهِمْ، فَأَذِنَ لهم، فَلَقِيَهُمْ عُمَرُ، فَأَخْبَرُوه، فقال: ما بَقَاؤُكُمْ بَعْدَ إِبِلِكُمْ؟ فَدَخَلَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ ما بَقَاؤُهُمْ بَعْدَ إِبِلِهِمْ؟ فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: نَادِ في الناس، فَيَأْتُونَ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، فَبُسِطَ لِذَلِكَ نِطَعٌ، وَجَعَلُوهُ على النِّطَعِ، فَقَامَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَدَعَا، وَبَرَّكَ عليه، ثُمَّ دَعَاهُمْ بِأَوْعِيَتِهِمْ، فَاحْتَثَى الناس حتى فَرَغُوا، ثُمَّ قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنِّي رسول اللَّهِ).[1]

وفي صحيح مسلم تحت بَاب (اسْتِحْبَابِ خَلْطِ الْأَزْوَادِ إذا قَلَّتْ وَالْمُؤَاسَاةِ فيها)، ورد عن إِيَاس بن سَلَمَةَ عن أبيه، قال: (خَرَجْنَا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، في غَزْوَةٍ، فَأَصَابَنَا جَهْدٌ، حتى هَمَمْنَا أَنْ نَنْحَرَ بَعْضَ ظَهْرِنَا، فَأَمَرَ نَبِيُّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَجَمَعْنَا مَزَاوِدَنَا، فَبَسَطْنَا له نِطَعًا، فَاجْتَمَعَ زَادُ الْقَوْمِ على النِّطَعِ، قال: فَتَطَاوَلْتُ لِأَحْزِرَهُ كَمْ هو؟ فَحَزَرْتُهُ كَرَبْضَةِ الْعَنْزِ).[2]

تشير هاتان الروايتان إلى أهمية التعاضد في معالجة المشاكل التي تنجم عن قلة ذات اليد، فالناس يتعرضون - في بعض الظروف والأحوال- إلى أزمات اقتصادية مختلفة المستوى والتأثير، والمسلمون فئة من الناس قد ينتابهم ما يصيب الناس من مشاكل ومعاناة في حياتهم الاقتصادية، ومضمون روايتي الحديث الذي بين أيدينا يشير إلى حادثة تعرض لها المسلمون، والرسول، صلى الله عليه وسلم، بين ظهرانيهم، حيث طرأ انخفاض على كمية زادهم الذي يحتاجونه، وأصابهم الفقر والجوع، فذهبوا إلى النبي، صلى الله عليه

1- صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض...

2- صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت والمؤاساة فيها.

وسلم، طالبين السماح لهم بنحر إبلهم، فسمح لهم بذلك في بداية الأمر، ثم راجعه عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، في ذلك، حرصاً على مصالحهم التي ستتضرر جراء النقص الذي سيطرأ على عدد إبلهم التي تلزمهم في حركتهم وسفرهم وجهادهم والقيام بأعمالهم، فطرح الرسول، صلى الله عليه وسلم، عليهم حلاً آخر يتمثل في دعوتهم إلى جمع ما لديهم من طعام ثم اقتسامه، في دلالة واضحة على أهمية اللجوء إلى التعاضد في مواجهة الأزمة الاقتصادية التي تنتاب المجتمعات.

وفي عمدة القاري: أن قوله :"خفت أزواد القوم": أي قلَّت، وفي رواية "أزودة القوم". وقوله: "وأملقوا": أي افتقروا، يقال: أملق إذا افتقر. وقوله: "وبرَّك": بتشديد الراء أي دعا بالبركة عليه. وقوله: "بأوعيتهم": جمع وعاء. وقوله: "فاحتثى الناس": من الاحتثاء، من حثا يحثو حثواً، وحثى يحثي حثياً؛ إذا حفن حفنة [1]، والنِّطَعِ في اللغة: بساط من الجلد.[2]

الصلة بالحلقة السابقة

يأتي التعرض لهذا الحديث النبوي الشريف في هذه الحلقة من حلقات زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وذلك تواصلاً مع الحلقة السابقة التي تناولت فضل الأشعريين ومقامهم عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسبب نهجهم السوي في مواجهة الأزمات الاقتصادية، حيث كانوا عند القحط وقلة ذات اليد يتضافرون بطريقة تعبر عن الشعور بالمسؤولية الجماعية، والتجرد عن الأنانية والاستحواذ، فكانوا رضي الله عنهم إذا حلت بهم الأزمات الاقتصادية، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، مما جعلهم ينالون حظوة متقدمة لدى الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث نسبهم إليه، وانتسب إليهم، فقال: (فَهُمْ مِنِّي، وأنا منهم).[3]

1- عمدة القاري، العيني ج13، ص43.

2- المعجم الوسيط، إبراهيم وغيره، ص970، مادة نطع.

3- صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض....

أهمية التعاضد والتكافل في معالجة الأزمات الاقتصادية الخاصة بالطعام وغيره

إن التعاضد والتكافل بين أبناء المجتمع، أسلوب مهم من أساليب مواجهة الأزمات الاقتصادية ومعالجتها ذاتياً، بالاعتماد على الموارد المتيسرة لدى المجتمع، وفي فضل التعاضد، يورد البخاري في صحيحه تحت (كِتَاب الشَّرِكَةِ، بَاب الشَّرِكَةِ في الطَّعَامِ وَالنَّهْدِ وَالْعُرُوضِ، وَكَيْفَ قِسْمَةُ ما يُكَالُ وَيُوزَنُ مُجَازَفَةً أو قَبْضَةً...)، وتحت هذا الباب يورد عن جَابِرِ بن عبد اللَّهِ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ قال: (بَعَثَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَّرَ عليهم أَبَا عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ، وَهُمْ ثلاثمائة، وأنا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حتى إذا كنا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَ الزَّادُ، فَأَمَرَ أبو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذلك الْجَيْشِ، فَجُمِعَ ذلك كُلُّهُ، فَكَانَ مِزْوَدَيْ تَمْرٍ، فَكَانَ يُقَوِّتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلاً حتى فَنِيَ، فلم يَكُنْ يُصِيبُنَا إلا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فقلت: وما تُغْنِي تَمْرَةٌ، فقال: لقد وَجَدْنَا فَقْدَهَا حين فَنِيَتْ، قال: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إلى الْبَحْرِ، فإذا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرِبِ، فَأَكَلَ منه ذلك الْجَيْشُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أبو عُبَيْدَةَ بِضِلَعَيْنِ من أَضْلاعِهِ فَنُصِبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرُحِلَتْ، ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا، فلم تُصِبْهُمَا).[1]

ولا يقتصر دور التعاضد والتكافل في حل مشكلات الفقر والحاجة على نطاق الغذاء والزاد، بل شمل مرافق الحياة الأخرى، فبالإضافة إلى حثه صلى الله عليه وسلم على التعاضد في مواجهة أزمة الزاد، فإنه عليه الصلاة والسلام حث على التعاضد في حل المشاكل الخاصة بتوفير وسائل المواصلات للناس، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ في سَفَرٍ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، إِذْ جاء رَجُلٌ على رَاحِلَةٍ له، قال: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: من كان معه فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ على من لا ظَهْرَ له، وَمَنْ كان له فَضْلٌ من زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ على من لا زَادَ له، قال: فذكر من أَصْنَافِ الْمَالِ ما ذَكَرَ، حتى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ).[2]

1- صحيح البخاري كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض...

2- صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال.

التعاضد المتمثل بأداء الأدوار التنشيطية للاستثمار

يرشد الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى أهمية التعاضد في أداء الأعمال التي تصب في صالح التنمية الاقتصادية، واستثمار الموارد، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ما من مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ، أو إِنْسَانٌ، أو بَهِيمَةٌ، إلا كان له بِهِ صَدَقَةٌ)[1]. ويتماشى الحث على أداء العمل الاقتصادي، مع الهدي القرآني الذي يشير إلى دور الإنسان في عمارة الكون، فالله تعالى يقول: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}.[2]

فزراعة الأرض تعود بالنفع على المزارع جراء المردود الاقتصادي الذي يحصله، وينتفع منها آخرون من البشر والكائنات الأخرى، وينطبق هذا على مختلف الأعمال والصنائع والنشاطات الاقتصادية التي يقوم بأدائها الناس في مختلف حرفهم ومهنهم، فالكل في خدمة الكل، وتتكامل الخدمات لتحقيق مصالح الخلق وقضاء حاجاتهم.

التعاضد في نظام النفقات

يمارس المكلف بالإنفاق - حين يقوم بالدور المنوط به - مهمة تبادل الأدوار في النفقات، فالوالد ينفق على أبنائه وهم صغار، ويتحمل الأبناء واجب الإنفاق على والديهم حين يكون الآباء بحاجة إلى مساعدة الأبناء، وقد كلف الله كل إنسان قادر على الإنفاق حسب قدرته واستطاعته، فالله تعالى يقول: {لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً}.[3]

1- صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.

2- هود: 61.

3- الطلاق: 7.

ويبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، أهمية الإنفاق وفضله مهما صغر حجمه ومقداره، فعن سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ أَنَّهُ أخبره أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها وَجْهَ اللَّهِ، إلا أُجِرْتَ عليها، حتى ما تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ).[1]

توعد المحتكرين والمتخلفين عن أداء واجب التعاضد مع المعوزين

يأخذ الحث على التعاضد لمواجهة الأزمات الاقتصادية منحى آخر، حين يتوعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذين يحتكرون قوت الناس، إذ إن سلوك المحتكر يتنافى مع قيم التعاضد والتكافل والتعاون، من هنا جاء توعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، المحتكرين إلى جانب توعده المتخلفين عن أداء واجبهم نحو إخوانهم وأهل أحيائهم ومجتمعاتهم المعوزين، فعَنِ ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، عَنِ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَنِ احْتَكَرَ طَعَاماً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وبرىء الله تَعَالَى منه، وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ منهم ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى).[2]

فهذه بعض الجوانب والمجالات التي تظهر أهمية دور التعاضد في معالجة المشكلات الاقتصادية، وذلك في ضوء حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرىء ما نوى...

2- مسند أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

الفصل التاسع

نظام حكم

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
44.	ﷺ وإقامة الدولة (الحلقة الأولى)	274
45.	ﷺ وإقامة الدولة (الحلقة الثانية)	279
46.	ﷺ وإقامة الدولة (الحلقة الثالثة)	284
47.	ﷺ يتحدث عن مراحل الحكم في الإسلام	291
48.	ﷺ يوصي الراعي بالرعية	295
49.	ﷺ يوجه إلى الزهد في شغف المناصب	301
50.	ﷺ يحذر من بطانة السوء	308

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وإقامة الدولة (الحلقة الأولى)

التمهيد لبناء الدولة والتوسع في نشر الدعوة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ، كُلَّمَا ذَهَبَ نَبِيٌّ، خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَائِنٌ بَعْدِي نَبِيٌّ فِيكُمْ، قَالُوا: فَمَا يَكُونُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُوا، قَالُوا: فَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ، أَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ، فَسَيَسْأَلُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ الَّذِي عَلَيْهِمْ).[1]

فمنذ أن بُعِثَ النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، برسالة السماء عن ربه؛ ليبلغها للعالمين، وهو يعرف أهدافه وطريقه ومنهجه، فبذل الجهد تلو الجهد؛ ليحقق للإسلام الوجود في قلوب الخلق وواقعهم، مستجيباً لما تضمنته أوامر التكليف الرباني التي نزل بها الوحي، في سور وآيات قرآنية، كان منها ما ورد في سورتي المزمل والمدثر، اللتين حملتا للرسول، صلى الله عليه وسلم، عبء التكليف، فطلبتا منه أن يشمر عن سواعد الجد، وأن يهجر فراش الدعة والراحة، وأن يتهيأ لحمل الأمانة العظيمة التي ستلقى على كاهله، وحثته الآيات الكريمة على تحمل مشاق الدعوة التي سيعترض طريقها الجاحدون والمكذبون والمغرضون، ومما جاء في هاتين السورتين، قوله تعالى في فاتحة سورة المزمل: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً* نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً* إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً* إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً* إِنَّ لَكَ

1- سنن ابن ماجة، كتاب الجهاد، باب الوفاء بالبيعة، وصححه الألباني.

فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً* وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً* رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً* وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}.[1]

وقوله سبحانه في فاتحة سورة المدثر: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ* وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ* وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}.[2]

فالله سبحانه وتعالى كلف النبي، صلى الله عليه وسلم، بأعباء حمل الرسالة، وبتحمل ما يترتب على ذلك من تداعيات، فنومه سيصبح قليلاً، وصبره سيكون كثيراً، في دلالة على بناء الذات للمتطلبات القادمة، ومواجهة الواقع بما يحدث فيه الآثار المنشودة، فنهض الرسول، صلى الله عليه وسلم، حاملاً الرسالة وعبئها، فبلّغ الأقربين والمقربين، ثم توسع في التبليغ، حتى التف حوله ثلة من الأتباع والأصحاب، الذين غرس فيهم جذور المبادئ التي جاء بها عن ربه جل وعلا، وصقل شخصياتهم بالقيم والأحكام التي حددت لون سلوكهم، وطريقة تعاملهم، وشكل أخلاقهم، فلما أُشربوا في قلوبهم حب ربهم وإسلامهم ورسولهم، صبروا على البلاء، وخاضوا الصعاب، وثبتوا على دينهم، وساروا على درب نبيهم، صلى الله عليه وسلم، في فهم دورهم، والقيام بواجبهم نحو دينهم، فبلَّغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الخلق بها، فالتهبت الأرض ناراً تحت أقدامهم، ولحقهم صنوف الأذى، فانطلقوا إلى خارج مكة، ينشرون الدعوة، ويتلّمسون مأوى آمناً لها، وهم على بصيرة من أمرهم، ويعرفون أهدافهم بدقة متناهية، حتى هيأ الله لنبيهم، صلى الله عليه وسلم، عقد بيعة العقبة الأولى مع نفر من أهل يثرب، بعد أن أطلعهم على حقيقة دعوته ومبادئها وخطوطها العريضة، فبايعوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، على حمل الدعوة والدفاع عنها، وعن المبعوث بها.

1- المزمل: 1- 10.

2- المدثر: 1- 7.

مختصر وصف مرحلة ما قبل الهجرة إلى المدينة المنورة

يذكر الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، (أَنَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ، وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، أَوْ مِنْ مُضَرَ كَذَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا، فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ، فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا، حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ، فَبَايَعْنَاهُ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ؛ فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنَّ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ؛ فَوَاللَّهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا، وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ).[1]

1- مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، مسند جابر بن عبد الله، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

فهذا ملخص مفيد يصف حالة النهوض التي صاحبت البعثة، والبدء بالدعوة إلى الإسلام، وصولاً إلى بيعة العقبة، التي مهدت للهجرة إلى المدينة المنورة، حتى هيأ الله للثلة التي حملت الراية أن تخطو بتسلسل منطقي، وإجراءات سلسة إلى تأسيس أول دولة في تاريخ الإسلام العظيم.

التمهيد للدولة بترسيخ مبادئ الإسلام وقيمه

لقد تخلل حال البناء النهضوي للإنسان المسلم، وكيانه المجتمعي، اهتمام منقطع النظير في ترسيخ مبادئ الإسلام والمجادلة عنها بحكمة وقوة، ودارت حلقات هذا الاهتمام حول مبادئ مفصلية ورئيسة، تمركزت حول قضية الإيمان بالله ووحدانيته سبحانه، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، ولما رسخت العقيدة في قلوب الثلة الأولى، وكان التمثل للقيم والأحكام العملية المنبثقة عنها، حانت المواجهة مع معسكر الظلم والكفر والقمع الجاهلي، وانجذب لمعسكر الإيمان الأنصار، وتهيأت الظروف الأخيرة قبيل الإعلان عن الشروع في نشاط دولة الإسلام، دولة الحق والحرية والعدالة والطهر والنقاء، فعقدت بيعتا العقبة الأولى ثم الثانية، بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفريق الأوس والخزرج، وتمخض عن هاتين البيعتين الهجرة إلى المدينة المنورة، موطن قبيلتي الأوس والخزرج، وتوج التوجه إلى المدينة بهجرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصاحبه أبي بكر الصديق، هنا كانت البداية العملية، وحصل الشروع الفعلي ببناء الدولة، وممارسة أعمالها على أرض الواقع، وهذا ما ستحاول الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، الوقوف عندها، وتلمس بعض العظات والعبر والدلالات منها، بإذن الله تعالى وتوفيقه.

الشعوب المنتفضة تريد دولة الحق والعدل والحرية

لقد آثرنا التطرق إلى موضوع بناء دولة الإسلام الأولى التي أنشأها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو قدوة المسلمين في كل زمان ومكان، حتى نشارك في النقاش الدائر، وما

يقدم من طرح فكري، وآراء حول المجاهدة في بناء دولة العدالة والقوة والحرية والاستقلال، في ظلال الحديث المثار عما يريده المسلمون في شكل دولتهم ونظامها، مع تصاعد وتيرة التغيير المتواصل في أنظمة الحكم في عدد من الدول العربية والإسلامية، والانتفاضات التي تشهدها، إضافة إلى سعي شعبنا الفلسطيني وقيادته وقواه إلى إقامة دولتهم على أرضهم، التي يعملون جاهدين على تحرير كامل ترابها من يد المحتل الذي اغتصبها منذ بضعة عقود من السنين العجاف.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بناء الدولة يلزمه وضوح في الرؤية والهدف والدرب، إذ إن دولة الحرية التي تقوم على مبادئ سامية، وقيم نبيلة، ينبغي أن تهتدي بالهدي الرباني؛ لتنال التوفيق والسداد، وينبغي أن يتسلح الساعون إليها بالإيمان والصبر، فالخطب صعب، والطريق طويل وشاق، والمخاصمون ألداء، فلا ينفع التردد، ولا الإحباط، بل لا بد من العزيمة والإصرار، وهذا ما نراهن عليه في سعينا الدؤوب لانتزاع حريتنا وتحررنا، وسيتحقق لنا ذلك بإذن الله، طال الزمان أم قصر، شاء من شاء، وأبى من أبى.

سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا فيما نصبو إليه، من نيل الاستقلال لدولتنا، والحرية لأرضنا وشعبنا وأسرانا، وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وصحبه الكرام، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وإقامة الدولة (الحلقة الثانية)

عن أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، زَوْجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فقال: إنما أنا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ من بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِي له بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ له بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ من النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أو فَلْيَتْرُكْهَا).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، تولى القيام بأعمال رئيس الدولة، وقاضي محاكمها بنفسه، وعيَّن القضاة والولاة على الأمصار المختلفة، إضافة إلى كونه نبياً يوحى إليه وحي السماء، فاجتمعت في شخصه وظائف متعددة في آن واحد، فهو النبي، وهو القائد السياسي والعسكري، ومتولي أمر القضاء، والشؤون المالية للدولة، وبدأ الرسول، صلى الله عليه وسلم، بممارسة أعماله رئيساً للدولة منذ الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، حيث حدثت انطلاقة جوهرية نحو بناء دولة الإسلام، على ترابها الطاهر، وذلك بقيادته صلى الله عليه وسلم، ومساندة أصحابه ودعمهم، وبالاستناد إلى الخلفية الإيمانية التي تم توطيدها في مرحلة ما قبل الهجرة، وقام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بإرساء دعائم دولة الإسلام، بما ينسجم مع روح المبادئ والقيم، والأحكام الشرعية التي بُعِثَ بها للعالمين، هادياً ومبشراً ونذيراً.

1- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه.

بناء المسجد وممارسة إدارة الدولة فيه

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (قَدِمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، الْمَدِينَةَ، فَنَزَلَ أَعْلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ لهم بَنُو عَمْرِو بن عَوْفٍ، فَأَقَامَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَرْسَلَ إلى بَنِي النَّجَّارِ، فجاءوا مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، على رَاحِلَتِهِ، وأبو بَكْرٍ رِدْفُهُ، وَمَلَأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ، حتى أَلْقَى بِفِنَاءِ أبي أَيُّوبَ، وكان يُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ، وَيُصَلِّي في مَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَأَنَّه أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إلى ملأ من بَنِي النَّجَّارِ، فقال: يا بَنِي النَّجَّارِ؛ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هذا، قالوا: لا والله، لا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إلا إلى اللَّهِ، فقال أَنَسٌ: فَكَانَ فيه ما أَقُولُ لَكُمْ قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَفِيهِ خَرِبٌ، وَفِيهِ نَخْلٌ، فَأَمَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ، وَالنَّبِيُّ، صلى الله عليه وسلم، مَعَهُمْ، وهو يقول: اللهم لا خَيْرَ إلا خَيْرُ الآخرة، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمهاجرة).[1]

فهذه إحدى الروايات الصحيحة التي تتحدث عن بناء المسجد النبوي، وتشير إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بدأ منذ وصوله إلى المدينة المنورة بالعمل الفوري على إرساء دعائم بناء الدولة، وكان على رأس تلك الدعائم بناء المسجد النبوي، الذي اتخذ مكاناً لعبادة الله كما أمر سبحانه، فأديت فيه شعائر الصلاة والخطب والمواعظ، ولم يقتصر دوره على هذا المجال، بل تعداه ليشكل محطة مكانية للقاءات العامة والتشاورية في شؤون

1- صحيح البخاري، كتاب المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد؟

المسلمين ودولتهم ودينهم، وتوثيق عرى العلاقات بينهم، والانطلاق منه إلى نشر الدعوة في الداخل والخارج، وأدى المسجد دوراً مهماً على صعيد تأسيس المجتمع الإسلامي ورعايته، وإمداده بالعون والمساندة، وفيه كان يتلقى المسلمون علمهم وثقافتهم وتربيتهم، وفيه كانت تعقد رايات المعارك، وتنطلق جحافل الجيوش إلى ساحات الوغى.

فشكل المسجد بالإضافة إلى كونه مكاناً لأداء الشعائر التعبدية، مقراً للحكومة وبيت المال ومجلسي الشورى والحل والعقد، وديواناً للقضاء وفض الخصومات، ومنطلقاً للجيش ومركزاً للقيادة العسكرية، وفيه كان يستقبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الضيوف والسفراء، ومنه كان يرسل السفراء والرسل، ويوجه الخطابات المسموعة والمكتوبة، وفيه كانت تعقد مجالس التربية والتعليم، ومتابعة الشؤون الاجتماعية لأبناء المجتمع.

توطيد العلاقات الداخلية بين أبناء الدولة بالمؤاخاة بينهم

حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على توثيق عرى العلاقات بين أبناء الدولة الإسلامية الفتية، فشرع في عقد مواثيق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، في إشارة إلى اهتمامه صلى الله عليه وسلم بمسألة التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع الواحد، وشرع الرسول، صلى الله عليه وسلم، في وضع اللبنات الأولى لهذه الأخوة ضمن إيحاءات بيعة العقبة ومضامينها، التي عقدها مع ممثلي الأوس والخزرج-الأنصار- فلما بدأ تنفيذ تداعيات تلك البيعة، ظهرت الحاجة إلى هذه المؤاخاة؛ حتى يشارك الأنصار إخوانهم المهاجرين في تحمل تبعات حمل الدعوة، حيث ترك المهاجر أرضه وأهله وبيته، والتحق بأهل المدينة نصرة للدين، فكان حقاً على أهل المدينة أن يقوموا بواجب معاضدة

المهاجرين، وتسهيل حياتهم ومعيشتهم، ولما تحقق أداء الواجب من المهاجرين والأنصار على الوجه المناسب والمرضي، نزل الثناء على الفريقين من الله في آيات قرآنية، فقال تعالى في سورة الحشر: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.[1]

وبهذا المجتمع المتضامن المتكافل، واجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، أعداء الدين والإيمان، ونشر الإسلام في ربوع العالمين.

معاهدة الفئات غير المسلمة

يروى عن ابن إسحق في كتاب السيرة النبوية لابن هشام، قوله: وكتب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، ويقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي، صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها،

1- الحشر: 8-9.

والقسط بين المؤمنين..."[1]، وشمل هذا العهد بني ساعدة، وبني جشم، وبني عمرو، وبني النبيت، وبني الأوس.

وعقد الرسول، صلى الله عليه وسلم، معاهدات أخرى مع عدد من القبائل العربية الأخرى، فعاهد بني ضمرة، وبني مدلج، وقبيلة جهينة، سعياً منه صلى الله عليه وسلم لتأمين المدينة المنورة من الاعتداءات، وحتى يخلق بيئة مناسبة للتعايش السلمي بين أبناء دولته، والدول المجاورة.

مما يشير بجلاء ووضوح إلى أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يمارس العمل السياسي لرئيس الدولة خلال قيادته المسلمين في المدينة المنورة، وكان هذا العمل ينطلق من فيحاء مبادئ الإسلام الحنيف وقيمه وتشريعه، مستهدفاً إيجاد الأنموذج الأمثل للدولة، التي تحقق السعادة والخير لأبنائها وجيرانها، وتعمل جاهدة على نشر خيرها في ربوع العالمين.

وعلى أمل متابعة الحديث عن الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وإقامة الدولة، نستودعكم الله، وصلى الله على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وصحبه الكرام، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- السيرة النبوية، ابن هشام، ج3، ص31- 33.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وإقامة الدولة (الحلقة الثالثة)

عن أَنَس، رضي الله عنه، قال: (خَرَجَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى الخَنْدَقِ، فإذا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ في غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فلم يَكُنْ لهم عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذلك لهم، فلما رَأَى ما بِهِمْ من النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قال: اللهم إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخرة، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمهاجرة، فَقَالُوا مُجِيبِينَ له: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا على الْجِهَادِ ما بَقِينَا أَبَدًا).[1]

متابعة للحديث عن الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وإقامة الدولة، فقد تَكوّن المجتمع الإسلامي الأول، الذي شَكّل نواة دولة الإسلام الأولى من المهاجرين الذين أسلموا في مكة قبل الهجرة، ثم ارتحلوا بدينهم وأنفسهم مهاجرين إلى المدينة، بعد أن تهيأت الظروف لإقامة صرح الدولة الإسلامية فيها، فتعاضدوا مع أهلها من قبيلتي الأوس والخزرج الذين صاروا يُعرفون بالأنصار؛ لنصرتهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، ودينه وأصحابه المهاجرين، والحديث أعلاه يظهر اهتمام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بشريحتي المهاجرين والأنصار، فيدعو الله لهم بالمغفرة، لوفائهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم أن يطيعوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، ويحموه ودينه، في السراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، فيخوضوا معه الصعاب، ويؤازروه في ساحات الوغى، مبتغين ثواب الله سبحانه ورضاه.

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب التحريض على القتال.

القيادة العسكرية والسياسية للدولة

لقد شَكّل الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الثلة التي آمنت به وصدقته وتعاهدت على حمايته، اللبنة العسكرية المباركة لدولته، فقادها بحنكة ودراية، وانتصر لدينه في مواقع عديدة، مما يشير إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد كَوّن بهذه الثلة نواة جيش الدولة وقوتها العسكرية، التي خاض بها المعارك ضد الجهات المعادية، حتى توّج عمله العسكري بالفتح الأعظم، الذي دخل الناس على إثره في دين الله أفواجاً.

ومارس الرسول، صلى الله عليه وسلم، الدور السياسي لرئيس الدولة، فخاطب الزعماء ورؤساء الدول، وفاوض مبعوثي الدول، وعقد المعاهدات والمواثيق، التي منها صلح الحديبية المشهور، والذي أبرم بعد مفاوضات مع الطرف الآخر، ووثق بالكتابة والشهود.

رعاية الشؤون الداخلية والاجتماعية للدولة

في جانب التنظيم الداخلي للدولة، قام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بتنظيم العلاقات بين أبناء المجتمع، وحفظ لهم أجواء الأمن والسلامة الصحية والأخلاقية والتعاونية، ومنع بواعث الفساد، واهتم عليه الصلاة والسلام بالمحافظة على متانة النسيج الاجتماعي، وسلامة الشؤون الاجتماعية في دولته، فكلف الأغنياء والأقوياء بمد يد العون إلى الفقراء والضعفاء، فحرص على جباية الزكاة من أصحاب الأموال، وتوزيعها على مستحقيها، وضمن العيش الكريم لكل مواطن، من منطلق مسؤوليته العامة عنهم، بصفته الذي يرعى شؤونهم، وقد أصدر مرسوماً رسمياً، حدد فيه مجالات هذه المسؤولية، ففي مسند الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جُبَيْرٍ، أنه كان في مَجْلِسٍ فيه الْمُسْتَوْرِدُ ابن

شَدَّادٍ وَعَمْرُو بن غَيْلاَنَ بن سَلَمَةَ، فَسَمِعَ الْمُسْتَوْرِدَ يقول: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: من ولي لنا عَمَلاً، فلم يَكُنْ له زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أو خَادِماً فَلْيَتَّخِذْ خَادِماً، أو مَسْكَنًا فَلْيَتَّخِذْ مَسْكَنًا، أو دَابَّةً فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، فَمَنْ أَصَابَ شَيْئاً سِوَى ذلك، فَهُوَ غَالٌّ أو سَارِقٌ).[1]

وعني الرسول، صلى الله عليه وسلم، بتنظيم العلاقات الأسرية، ففصل أحكام الزواج والطلاق والميراث، ونظام النفقات، وصلة الأرحام، وكان القدوة في تطبيق الأحكام الربانية في بيته، وأسرته، وقرابته، ومع أزواجه، وأصهاره.

وعالج الرسول، صلى الله عليه وسلم، حالات النزاع الداخلي في مهدها قبل أن تستشري، مثلما حدث في المشكلة التي وقعت بين بعض المهاجرين وبعض الأنصار، فعن جابر، رضي الله عنه، قال: (غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فَكَسَعَ أَنْصَارِياً، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَباً شَدِيداً، حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟ ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنُ سَلُولَ، أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الْخَبِيثَ لِعَبْدِ اللهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا؛ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ).[2]

1- مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث المستورد بن شداد، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

2- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية.

تولي القضاء والعدل في الدولة

لقد تولى الرسول، صلى الله عليه وسلم، القضاء في المنازعات والخصومات، فعن أُمِّ سَلَمَةَ، قالت: (سمع النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَلَبَةَ خِصَامٍ عِنْدَ بَابِهِ، فَخَرَجَ عليهم، فقال: إنما أنا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضًا أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ من بَعْضٍ، أَقْضِي له بِذَلِك، وَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَمَنْ قَضَيْتُ له بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ من النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أو لِيَدَعْهَا).[1]

وحدد صلى الله عليه وسلم وصف الإجراءات القضائية، وشروط القاضي، وضوابط عمله، وأقام في الناس الحدود، ولم يفرق بين فئاتهم أو شخوصهم أمام قضائه العادل، وساوى بينهم أمام القانون، وعبر عن ذلك بقوله وفعله، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فيها رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ بن زَيْدٍ، حِبُّ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قام فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قال: إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ، وأيم اللَّهِ؛ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا).[2]

رعاية التربية والتعليم في الدولة

اهتم الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالتربية والتعليم، فحث على التعلم، وقام بمهمة التربية والتعليم بنفسه، فعلّم أصحابه وأرشدهم، وبيّنَ فضل التعليم وأهميته، وقبل

1- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب القضاء في كثير المال وقليله.

2- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم}.

الفداء من بعض أسرى بدر، مقابل أن يعلم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين، وشجع على تعليم الوليدة، فقال صلى الله عليه وسلم: (أَيُّما رَجُلٍ كانت عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ، فَعلَّمَهَا فَأَحسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ).[1]

رعاية الشؤون الصحية في الدولة

لقد أولى الرسول، صلى الله عليه وسلم، الرعاية الصحية لرعيته اهتمامه وعنايته، فحثهم على فعل أمور، ونهاهم عن أخرى؛ تحقيقاً لهذه الرعاية، فسبق عالمه في الاهتمام بالعلاج الوقائي من الأمراض الوبائية، حيث أمر بالحجر الصحي على المناطق المصابة بالأوبئة الفتّاكة، وقد روي في الحديث الصحيح بشأن الطاعون عن عبد الرحمن ابن عَوْفٍ، (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ؛ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بها؛ فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه).[2]

وفي حثه صلى الله عليه وسلم على الاتزان في تناول الطعام والشراب، ما يشير بجلاء إلى رعايته المباركة لصحة أبدان رعاياه، فيقول صلى الله عليه وسلم: (مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ).[3]

وعني صلى الله عليه وسلم بالتدخل المباشر في متابعة العلاج الصحي لرعايا دولته، فوصف لهم بعض الأدوية وطرق العلاج، فعن جَابِرَ بن عبد اللَّهِ، رضي الله عنهما، قال: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ من أَدْوِيَتِكُمْ، أو يَكُونُ في شَيْءٍ

1- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها.

2- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

3- سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب كراهية كثرة الأكل، وصححه الألباني.

من أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أو لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ).[1]

العناية بشؤون الاقتصاد والاستثمار والزراعة والبيئة في الدولة

عني الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالزراعة وحماية البيئة، فحث على الزراعة، فعن أنس بن مالك قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ).[2]

وعمل على تنظيم أمور المزارعة، وتقديم النصح الخاص بها، موجهاً إلى الاستفادة من خبرة الحاذقين فيها، فعن عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عن أَنَسٍ، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فقال: لو لم تَفْعَلُوا لَصَلُحَ، قال: فَخَرَجَ شِيصاً، فَمَرَّ بِهِمْ، فقال: ما لِنَخْلِكُمْ؟ قالوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قال: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ).[3]

وأرشد الناس إلى أمور تخدم الحماية البيئية في مناحيها المختلفة، ومن ذلك ما ورد في رواية جَابِرَ بن عبد اللَّهِ، رضي الله عنهما، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخلُّوهُمْ، وَأَغْلِقُوا الأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَفْتَحُ بَاباً مُغْلَقاً ...).[4]

وأشرف صلى الله عليه وسلم على تنظيم الحياة الاقتصادية لدولته، فأباح البيع، وحرم الربا، والميسر، والغش، والخداع في البيع والشراء، وحث على الاستثمار، ومنع الاحتكار،

1- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل.

2- مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، رضي الله عنه، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

3- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره من معايش الدنيا.

4- صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب تغطية الإناء.

فعن سعيد بن المسيب، عن معمر بن عبد الله، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يَحْتَكِرُ إِلا خَاطِئٌ).[1]

فهذه قطرات من ملامح الرعاية الشاملة لشؤون الدولة في عهد الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، فهو إلى جانب تبليغه رسالة ربه، والقيام بما أنيط به من مهمة النبوة والرسالة، قام كذلك بدور القائد الأعلى، والرئيس الأول لدولة الإسلام، التي شمل عملها ورعايتها مجالات الحياة المختلفة، ولم يكن التقسيم الإداري للدولة على غرار ما يتعارف عليه الناس اليوم، من وزارات ودوائر مختصة، ومع ذلك؛ فقد وُجِدَ في دولة الإسلام اهتمام بمجالات العديد من الوزارات الرئيسة في هذا الزمان، كوزارة العسكرية والجيش، والمالية، والتربية والتعليم، والشؤون الاجتماعية، والاقتصاد والاستثمار، والقضاء...إلخ. مما يؤكد حقيقة وجود الدولة في الإسلام، ويدعو إلى العمل على غرار منهجها، ووفق تطلعاتها التي تربط بين متطلبات الحياة الدنيا والآخرة، بصورة فريدة منقطعة النظير.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله وأزواجه وصحبه الكرام، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يتحدث عن مراحل الحكم في الإسلام

ككل شأن من شؤون المسلمين، يخبرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن مراحل الحكم الإسلامي، ويصف لنا شكل دولة المسلمين، وفق المرحلة السياسية التي تمر بها هذه الدولة، حيث المطلع على هذا الوصف يدرك تماماً الحالة السياسية التي يمر بها الحكم الإسلامي، وأين تقع هذه الحالة من المبادئ التي لا بدَّ من مراعاتها في تطبيق أحكام هذا الحكم من العدالة والشورى والعدل بين رعايا الدولة الإسلامية، فقد روى حذيفة، رضي الله عنه، قال: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ سَكَتَ...).[1]

والرُّشْد والرَّشَد والرَّشاد: نقيض الغيّ. رَشَد الإِنسان، بالفتح، يَرْشُد رُشْداً، بالضم، ورَشِد، بالكسر، يَرْشَد رَشَداً ورَشاداً، فهو راشِد ورَشيد، وهو نقيض الضلال، إِذا أَصاب وجه الأَمر والطريق.[2]

وفي الحديث الشريف: (...فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ).[3]

1- مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال شعيب: إسناده حسن.

2- لسان العرب، ج6، ص157.

3- سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، وصححه الألباني.

فقد قرن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده بسنته، وهذا دليل واضح، ووصف بيّن بأن مرحلة الخلافة الراشدة بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، مرحلة خير ورشد وهداية، وطريق سليم وصحيح في الحكم، لذا قرنها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسنته، وأشار إلى صوابها، والثناء عليها، كثنائه على مرحلة النبوة المسددة بالوحي، والمحفوفة بالهداية والخير والصلاح.

فالخلافة التي على منهاج النبوة هي التي تحقق للبشرية معنى العبودية لله وحده، كما قال جل شأنه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}[1]، وفي ظل هذه الخلافة، تنعم البشرية بالأمن والأمان العام على أموالها ونفوسها وحرياتها، لأن هذه المرحلة من مراحل الحكم، تهتدي بوحي الله تعالى في كتابه العزيز وبسنة رسوله، عليه الصلاة والسلام، فقد أرسى كتاب الله وسنة رسوله أسس العدل والعدالة والشورى التي يقوم عليها الحكم الراشد، من ذلك قول الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}[2].

وقال تعالى مخاطباً نبيه داود، عليه السلام: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[3].

وقد طلب الله من عباده أن يحققوا العدل في الحكم حتى مع الأعداء، فقال تعالى: {... وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[4].

1- الذاريات: 56.

2- النساء: 58.

3- ص: 26.

4- المائدة: 8.

ومن العدل أن يحقق الإنسان حقوق نفسه وأهله، فيعدل بين الزوجات، وبين الأولاد، ويعدل الحاكم بين أفراد رعيته، وهو يستعشر ثقل الأمانة، ومقتضيات المسؤولية، عملاً بقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالإِمَامُ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ...).[1]

وتظهر ثمرات العدل جلية في الدنيا، كما أنها تعود على صاحبها بالنجاة في الآخرة، ولا أدل على هذه الثمرات في الدنيا مما قاله المرزبان لعمر، رضي الله عنه: (حكمت، فعدلت، فأمنت، فنمت يا عمر)، خليفة ينام بلا حراسة، ولا يقوم الحجاب من حوله، يحقق حقيقة الحكم الراشد في الدنيا، وفي الآخرة يكون ممن يحبهم الله تعالى، ويظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، يقول تعالى: {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[2]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يذكر الإمام العادل بأنه في ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله، ضمن السبعة الذين يظلهم الله تعالى.

كما أن العادلين ينالون أعلى المنازل، كما أخبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُوا).[3]

وبعد مرحلة الخلافة الراشدة؛ كان الحكم كما أخبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ملكاً عاضاً أو عضوضاً، وهو نظام توريث الحكم الذي سار عليه حكام الأمة الإسلامية منذ الدولة الأموية إلى آخر عهد الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية.

وبعد ذلك كانت مرحلة الملك الجبري؛ وهي التي تعبر عن مرحلة الدكتاتوريات، والاستيلاء على الحكم بالقوة والانقلابات العسكرية، كما هي أحوال دول الأمة

1- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: {من بعد وصية يوصي بها أو دين}.

2- المائدة: 42.

3- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق.

الإسلامية والعربية، بعد رحيل الاستعمار عن بلاد المسلمين، هذا الاستعمار الذي ترك رواسبه الثقافية والاقتصادية، وعاد يطل من جديد على بلاد المسلمين وشعوبها، ولعل المرحلة التي يمر بها المسلمون في هذه الأيام، هي مرحلة الجبرية في الحكم التي أشار إليها النبي، صلى الله عليه وسلم، في حديثه، إذ يحبس المسلمون أنفاسهم، ويتطلعون إلى مرحلة الخلافة الراشدة، لتعود من جديد، طاوية حالة الجبرية، ومحققة نبوءة النبي، صلى الله عليه وسلم، وقول الله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.[1]

نسأل الله تعالى أن يوفق شعوب الأمة - وهم يتطلعون إلى مزيد من الحريات، وإرساء قواعد العدالة والحق والشورى، ويعملون على التغيير في نظام الحكم بالوسائل السلمية والحضارية - وأن يكلل أعمالهم بالفوز والنجاح، للوصول إلى خلافة راشدة على منهاج النبوة، كما أخبر رسولنا الأسوة، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم، واتبع سنتهم إلى يوم الدين.

1- النور: 55.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يوصي الراعي بالرعية

عن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ أنه سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ وهو مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا ومسؤولة عن رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ، ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قد قال: وَالرَّجُلُ رَاعٍ في مَالِ أبيه ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ).[1]

يظن بعض الناس أن المسؤولية شرف جدير بالحرص، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يبين بشكل واضح تبعات المسؤولية، فصاحبها على خطر عظيم، إلا إذا أخذها بحقها، وأدى حق الله فيها، فلم يسلب، ولم يختلس، ولم يبدد طاقات رعيته وثرواتها، ولم يظلم، ولم يقصر في أداء واجبه تجاهها.

وفي المقابل؛ فإن الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يحذر الراعي من خداع الرعية وغشها، فعن الْحَسَنِ، قال: (عَادَ عُبَيْدُ اللَّهِ بن زِيَادٍ مَعْقِلَ بن يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ في مَرَضِهِ الذي مَاتَ فيه، قال مَعْقِلٌ: إني مُحَدِّثُكَ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لو عَلِمْتُ أَنَّ لي حَيَاةً ما حَدَّثْتُكَ، إني سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: ما من عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً، يَمُوتُ يوم يَمُوتُ؛ وهو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلا حَرَّمَ الله عليه الْجَنَّةَ).[2]

وفي رواية عن أبي الْمَلِيحِ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بن زِيَادٍ، عَادَ مَعْقِلَ بن يَسَارٍ في مَرَضِهِ، فقال له مَعْقِلٌ: (إني مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلا أَنِّي في الْمَوْتِ لم أُحَدِّثْكَ بِهِ، سمعت

1- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن.

2- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

رَسُولَ اللَّـهِ، صـلى الله عليـه وسـلم، يقـول: مـا مـن أَمِـيرٍ يَلِـي أَمْـرَ الْمُـسْلِمِينَ، ثُـمَّ لا يَجْهَدُ لهم، وَيَنْصَحُ، إلا لم يَدْخُلْ مَعَهُمْ الْجَنَّةَ).[1]

يـورد النـووي في شـرحه علـى صـحيح مـسلم في فقـه الحـديث، أن في قولـه: "مَـا مِـنْ وَالٍ يَلِـي رَعِيَّـةً مِـنْ الْمُـسْلِمِينَ، فَيَمُـوتُ، وَهُـوَ غَـاشٌّ لَهُـمْ، إلا حَـرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْـهِ الْجَنَّةَ" تأويلين؛ أحدهما: أنـه محمـول علـى المـستحل، والثـاني: حـرم عليـه دخولها مـع الفائزين السابقين. ومعنـى التحـريم هنـا المنـع، قـال القاضـي عيـاض، رحمـه الله: معنـاه بيّن في التحذير مـن غـش المـسلمين، لمـن قلـده الله تعـالى شـيئاً مـن أمـرهم، واسـترعاه علـيهم، ونـصبه لمـصلحتهم في ديـنهم أو دنيـاهم، فـإذا خـان فيمـا اؤتمـن عليـه، فلـم ينصح فيمـا قلـده، إمـا بتـضييعه تعـريفهم مـا يلـزمهم مـن ديـنهم، وأخـذهم بـه، وإمـا بالقيـام بمـا يـتعين عليـه مـن حفـظ شـرائعهم، والـذب عنهـا لكـل متـصد، ويحفـظ حـدودهم، ولا يـضيع حقـوقهم، ولا يـترك حمايـة حـوزتهم، ومجاهـدة عـدوهم، ولا يترك سيرة العدل فيهم، فإن فعل ذلك قد غشهم.

قـال القاضـي: وقـد نبـه صـلى الله عليـه وسـلم علـى أن ذلـك مـن الكبـائر الموبقـة المبعدة عن الجنة، والله أعلم.[2]

والراعـي هـو كـل مـن يتـولى المـسؤولية عـن آخـرين، بأشخاصـهم أو موجـوداتهم وحقـوقهم ومـصالحهم، وعلـى رأس واجبـات المـسؤول أن يعمـل جهـده علـى حمايـة رعيتـه مـن عـذاب النـار، فـالله تعـالى يحمـل الراعـي هـذا الواجـب العظـيم، فيقـول سبحانه: {يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا قُـوا أَنفُـسَكُمْ وَأَهْلِـيكُمْ نَـاراً وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.[3]

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، ج2/ص166-167.

3- التحريم: 6.

ومن مقتضيات هذا الواجب أن يعمل المسؤول على ترويض رعيته وتربيتها على طاعة الله، وابتغاء مرضاته، فيهيء لها سبل كسب السلوك الذي ينسجم مع هذه الغاية، ويصرف عنها مناقضاته، مثلما يهيئ لها سبل الكسب المشروع والعمل الطيب.

ومن واجبات الراعي أن يحفظ أمانات رعيته، وأن يعدل بينها، فالله تعالى يأمر بأداء هذا الواجب العظيم، فيقول سبحانه: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}.[1]

فالمسؤولية جزء من الأمانات التي يأمر الله بأدائها إلى أهلها، والرعية هم أهل الراعي، لهم عليه حق حفظهم، وبذل الجهد في حسن رعايتهم، وهذا لا يتعارض مع سبب نزول هذه الآية الكريمة، إذ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ومن واجبات الراعي أن يعدل بين أبناء رعيته، فيفسح لهم سبل الخير والكسب المشروع، لينهلوا منه، على قدم المساواة، دون محاباة ولا تحيز، فالوزير مواطن، والغفير مواطن، ولكل منهما حق في العيش الكريم، والحصول على مستلزمات الحياة، فلا يقبل أن يتخم المسؤول وحاشيته بالثروة، وتوافر كماليات المرافق، وبقية الرعية تلهث وراء أبسط متطلبات العيش.

ومن واجبات الراعي أن يشاور رعيته، وأن يرفق برعيته ويرحمها، عملاً بقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.[2]

1- النساء: 58.

2- آل عمران: 159.

فالخطاب في هذه الآية موجه للرسول، صلى الله عليه وسلم، بصفته الراعي لأمته ومصالحها، وقد استجاب صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر، فكان يطرح الأمور للشورى، وحصل هذا منه صلى الله عليه وسلم في جهاده وسلمه، وحتى في قضاياه الخاصة، التي تتأثر رعيته بمؤثراتها وتداعياتها في نهاية المطاف، فالآية الكريمة تثني على منهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسلوكه في رعاية الرعية، فهو اللطيف اللين الرفيق بها، وتطلب منه الآية أن يعفو عنهم، وأن يشاورهم في الأمر، وهذا لعمري من أبرز مقومات العلاقة السوية بين الراعي والرعية وأهمها، التي تكفل الصلاح بينهما، والخير لكليهما، فهما يتبادلان الود والنصح والتسامح، ولن يجد راعي نفسه في الصف المعادي لرعيته، وهو ينهج هذا السبيل القويم، ولن تنقلب رعية سوية على راعيها وهو يسوسها على هذا النحو.

أما إذا اختار الراعي أن يشدد على رعيته تجبراً، أو إهمالاً، أو لأي سبب أو دافع، فإنه يكون ممن توعدهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، بسوء الحساب، حين سيسأل عن رعيته وأمانته حفظهما أو ضيعهما، عن عبد الرحمن بن شِمَاسَةَ، قال: (أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عن شَيْءٍ، فقالت: مِمَّنْ أنت؟ فقلت: رَجُلٌ من أَهْلِ مِصْرَ، فقالت: كَيْفَ كان صَاحِبُكُمْ لَكُمْ في غَزَاتِكُمْ هذه؟ فقال: ما نَقَمْنَا منه شيئاً، إن كان لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ؛ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إلى النَّفَقَةِ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ، فقالت: أَمَا إنه لا يَمْنَعُنِي الذي فَعَلَ في مُحَمَّدِ بن أبي بَكْرٍ أَخِي، أَنْ أُخْبِرَكَ ما سمعت من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول في بَيْتِي هذا: اللهم من وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَشَقَّ عليهم؛ فَاشْقُقْ عليه، وَمَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً؛ فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ).[1]

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية.

ومن واجبات الراعي أن يقود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوساط رعيته، استجابة لتوجيهات الرسول، صلى الله عليه وسلم، المتضمنة في قوله: (مَن رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ، فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ، فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ).[1]

ومعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثم إنه قد يتعين؛ كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وقطعاً أن بعض المنكرات لا يستطيع منعها إلا الراعي، وبعض المعروف لا يستطيع المحافظة عليه إلا الراعي، فهو بذلك ملزم، من منطلق مسؤوليته في رعيته، وحقها عليه، مع التأكيد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يختصان بأصحاب الولايات، بل ذلك مطلوب من آحاد المسلمين.[2]

ومن آثار وصايا الرسول، صلى الله عليه وسلم، للراعي بالرعية، ما نطقت به خطبة الخليفة الأول بعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث مثلت نبراساً لأولياء أمور المسلمين في كل زمان ومكان، فأبو بكر الصديق، رضي الله عنه، نطق في تلك الخطبة دُرراً حازها من تلمذته في مدرسة النبوة، فخاطب الرعية قائلاً: (يا أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن ضعفت فقوموني، وإن أحسنت فأعينوني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر، ولا ظهرت -أو قال شاعت- الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء،

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان...

2- صحيح مسلم بشرح النووي، ج2/ص23-24، بتصرف.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).[1]

فكثيرة هي الآثار التي تنطق بما كان عليه صحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم، من حرص على مصالح الرعية وحقوقها، والنزاهة في حكمها وتسيير أمورها، ومنها ما جاء في سيرة الراعي الثاني من خلفاء الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إذ يقول رضي الله عنه: "لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة؛ لظننت أن الله تعالى سائلي عنها يوم القيامة".[2]

وقال في حق اليهودي: وقد ورد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: "ما أنصفناك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك، قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه، وفرض له من بيت المال".[3]

فهذه بعض وصايا الرسول، صلى الله عليه وسلم، للراعي بالرعية، والتي تمثلها أولياء أمور المسلمين، فعاشوا بها ورعيتهم أمن الحياة، وكان الراعي ينام تحت ظل شجرة، لا يخاف حقد رعيته، لأنه حكم فعدل، فأمن، فنام دون وجل.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

1- مصنف عبد الرزاق، باب لا طاعة في معصية، 336/11.

2- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، ج1، ص53.

3- الأموال لأبي عبيد، باب اجتباء الجزية والخراج، ص57.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يوجه إلى الزهد في شغف المناصب

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ على الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يوم الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتْ الْفَاطِمَةُ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحذر من الحرص على تولي مناصب المسؤولية، والحرص الجشع، والجشع أشد الحرص، والإِمارة- بكسر الهمزة- تشمل الإمارة العظمى؛ وهي الخلافة وأعلى مستويات المسؤولية، والصغرى؛ وهي الولاية على البلدة، وأي نوع أو مستوى من المسؤولية، والإمارة تكون ندامة إذا لم يعمل الأمير فيها بما ينبغي من الرعاية والعدل والأمانة، والحرص على تولي الإمارة يكون مذموماً حين يكون الدافع إلى ذلك الطمع بالخيرات المادية، والمكاسب الشخصية.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، وصف الإمارة، وهي زاهية، بقوله: "نعم المرضعة"، وقيل المراد بذلك نعم أولها. ووصفها حين تنقطع خيراتها عن صاحبها، بقوله: "بئست الفاطمة"، وقيل المراد بئس آخرها؛ وذلك لأن معها - وهي قائمة - المال والجاه واللذات الحسية والوهمية أولاً، فهي محاطة بالتزلف والهدايا والرشاوي، وتفتح لصاحبها الآفاق على سعتها، فإذا تكلم الأمير أو المسؤول سُمع له، وإذا خطب زُوِّج، وإن شفع يُشفع، ويُقال فيه شعر المدح

1- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة.

والثناء، وإذا حصلت له مناسبة تقاطرت عليه الجماهير من كل حدب وصوب، وإذا مرض اصطف الناس لعيادته ... إلخ.

لكنها لن تدوم في زهوها، فآخرها قتل، أو سجن ومحاكمة، أو عزل وإطاحة، أو إقصاء ورحيل عن صدر المرضعة وحضنها بالتقاعد أو الموت، إلى ما هنالك من صور الانفصال عن المسؤولية في الدنيا، إضافة إلى شدة الحساب وهوله في الآخرة، لمن أجحف وظلم وتجاوز الحق خلال توليه المسؤولية، وتقلده زمام الأمور في المناصب كبيرها وصغيرها.

وقال الداودي: نعمت المرضعة: في الدنيا، وبئست الفاطمة: أي بعد الموت؛ لأنه يصير إلى المحاسبة على ذلك، فيصير كالذي يفطم قبل أن يستغني، فيكون ذلك هلاكه.

وإنما أتى بالتاء في الفاطمة والمرضعة؛ إشارة إلى تصوير تينك الحالتين المتجددتين في الإرضاع والفطام.[1]

وجاء الحديث الذي بين أيدينا في صحيح البخاري، تحت بَاب (ما يُكْرَهُ من الْحِرْصِ على الإِمَارَةِ)، وفيه باب (من سَأَلَ الإِمَارَةَ وُكِلَ إِلَيْهَا)، وبَاب (من لم يَسْأَلْ الإِمَارَةَ أَعَانَهُ الله عليها). وفيه عن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ، قال: (قال لي رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: يا عَبْدَ الرحمن، لا تَسْأَلْ الإِمَارَةَ، فَإِنك إن أُعْطِيتَهَا عن مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عن غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عليها...).[2]

1- عمدة القاري، العيني، ج24،ص227.

2- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها.

ومن الأحاديث النبوية التي وردت بهذا الخصوص، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذَرٍّ، قال: (قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، ألا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قال: فَضَرَبَ بيده على مَنْكِبِي، ثُمَّ قال: يا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يوم الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلا من أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الذي عليه فيها)[1]. وفي رواية، قال: (يا أَبَا ذَرٍّ، إني أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لك ما أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثْنَيْنِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ).[2]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (...وَتَجِدُونَ خَيْرَ الناس في هذا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ له كَرَاهِيَةً ...)[3]. وفي رواية، قال: (... تَجِدُونَ من خَيْرِ الناس أَشَدَّ الناس كَرَاهِيَةً لِهَذَا الشَّأْنِ حتى يَقَعَ فيه).[4]

والمراد بقوله "في هذا الشأن" أي في الخلافة، أو في الإمارة، فأكثر الناس بغضاً للإمارة يكونون من خيارهم، فهم يكرهون تولي الإمارة لعلمهم بصعوبة العدل فيها، والمطالبة بها في الآخرة، وهذا في الذي ينال الخلافة أو الإمارة من غير مسألة، فإذا نالها بمسألة فأمره أعظم؛ لأنه لا يعان عليها، وهذا القسم أكثر في هذا الزمان.[5] وإذا ذكر الإمام العيني هذا عن حال تولي المسؤولية في زمانه، فماذا نقول عن زماننا بهذا الخصوص؟؟!!

1- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

2- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

3- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...}.

4- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...}.

5- عمدة القاري، العيني، ج16، ص69.

يأتي التذكير بهذا التوجيه النبوي، في ظل التغيرات المفاجئة التي تحدث في بقاع عديدة من هذا العالم، والتي تنقلب فيها الموازين فجأة، فيصبح الطارد طريداً، والمالك مملوكاً، والسجان سجيناً، ومعاذ الله أن يدفعنا لهذا التذكير الشماتة بالخلق، فذلك ليس من شيم الكرام، ولا من تعاليم الإسلام وقيمه، وإنما نسوق هذه الطائفة من التوجيهات النبوية مؤكدة الصحة، ووثيقة الصلة بالنبي، صلى الله عليه وسلم، لتعزيز الإيمان بمنهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، والثقة بتوجيهاته الكريمة، التي تهدف إلى إخراج الناس من شقاء الدنيا وخسران الآخرة، إلى سعادة الدارين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ فإن الإنسان بغض النظر عن موقعه بحاجة دائمة إلى التذكير بالحق ليسلك دربه، وبالخير ليقتفي أثره، فالنفس بطبيعتها تتوق إلى حب التملك والحيازة والتسلط والأثرة، فإن لم تجد ما يهذبها فستفعل العجب العجاب ما تمكنت لذلك سبيلاً، وأما إن تهذبت بالقيم والمبادئ والتشريعات، فستحسب حساب الإياب قبل الشروع بالذهاب، فتؤتي الله حقه فيما استرعى، وإن أغشيت الأبصار والعيون، وختم على القلوب والآذان، فسيفعل أصحابها ما لا يليق بالمكارم، وستتوحش بالسفه والبطش والزيغ، وتصبح الحيوانات أرق وآنس وأهذب منها.

فرسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، حذر من الجشع في السعي لتولي المسؤولية، وتبوء المناصب، ووضع لمن يبتلى بتوليها ضوابط؛ عنوانها تقوى الله فيما استرعى، والرفق بالرعية، فمن استراعاه الله رعية، وجب لهم عليه الحفظ

والرعاية وتحسس الأحوال، لما يحقق لهم حاجات الدنيا، ومتطلبات الفوز بنعيم الآخرة، ففي صحيح مسلم، وتحت بَاب (اسْتِحْقَاقِ الْوَالِي الْغَاشِّ لِرَعِيَّتِهِ النَّارَ) ورد عن مَعْقِلَ بن يَسَارٍ، (أنه سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: ما من عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً، يَمُوتُ يوم يَمُوتُ وهو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلا حَرَّمَ الله عليه الْجَنَّةَ).[1]

ومن تطبيقات الصحابة، رضي الله عنهم، لمبدأ الزهد في الإمارة وتولي المناصب، ما حصل من الصحابي الجليل ثابت بن أقرم يوم مؤتة، فبعد أن استشهد القادة الثلاثة الذين عينهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، لهذه الغزوة، حمل الراية ثابت بن أقرم، غير أنه نادى في المسلمين ليصطلحوا على واحد منهم يتولى أمرهم فيها.[2]

فثابت بن أقرم، رضي الله عنه، لم ينتهز فرصة توليه القيادة في ذلك الظرف العصيب ليستأثر بها، وإنما طلب من المسلمين أن يصطلحوا على واحد منهم، وكرر موقفه حين ردوا عليه بأن يكون قائدهم، ولم يكن رفضه الاستجابة لتولي القيادة جبناً منه، أو ضعفاً في شخصيته وإرادته، بدليل شجاعته حين تلقف الراية بعد استشهاد آخر القادة المعينين، لكنه لم يقبل لنفسه أن يتبوأ منصب المسؤولية عن القوم وفيهم من هو أكفأ منه له.

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

2- كتاب الثقات، ابن حبان، ج2، ص32-34.

ومن المفيد هنا التذكير بالقول المشهور بشأن تولي المناصب، ونصه: "لو دامت لغيرك ما آلت – أتت أو وصلت- إليك" وهذا القول جدير بأن لا يبرز في مكاتب المسؤولين فحسب، بل يستحق أن يحفظ في أذهانهم وعقولهم وقلوبهم، حتى لا يغيب عن بالهم في حال من الأحوال أنهم سيرحلون عن مناصبهم، طال بهم الزمان أم قصر، وبغض النظر عن حال الرحيل وطريقته وأسلوبه ووسائله.

ويروى أن هذا القول ورد على لسان بعض الحكماء حين عزى بعض الملوك عن مملكة خرجت عنه، فقال: لو بقيت لغيرك لما وصلت إليك، وقيل غير ذلك.

وروي أن بُهلولاً وعظ هارون الرشيد يوماً ... فقال: يا أمير المؤمنين !! أين آباؤك وأجدادك من لدن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى أبيك؟ قال هارون: ماتوا... قال: فأين قصورهم ...؟ قال: تلك قصورهم ... قال: وأين قبورهم؟ قال: هذه قبورهم ... فقال بُهلول: تلك قصورهم ... وهذه قبورهم ... فما نفعتهم، قصورهم في قبورهم؟ قال: صدقت ... زدني يا بهلول ... قال:

أما قصورك في الدنيا فواسعة *** فليت قبرك بعد الموت يتسع

فبكى هارون، وقال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين؛ هب أنك ملكت كنوز كسرى، وعُمرت السنين، فكان ماذا؟ أليس القبر غاية كل حيٍ، وتُسأل بعده عن كل هذا؟ قال: بلى. ولما حضرت هارون الرشيد الوفاة قال: يا من لا يزول ملكه... ارحم من قد زال ملكه ...

ولما مات ... أخذ هذا الخليفة ... الذي ملك الدنيا وأودع حفرة ضيقة ... لم يصاحبه فيها وزراؤه ولا أحبابه ... ولم يدفنوا معه طعاماً ولا شراباً، ولم يفرشوا له حريراً ولا سجاداً، وحاله يقول: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ}.[1][2]

وروي عن إسماعيل بن قطري القراطيسي قوله: (ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع).[3]

سائلين الله تعالى أن يلطف بنا، وأن يطهر قلوبنا من الشغف بتولي المناصب، وإذا أسندت إلينا دون استشراف نسأله تعالى أن يعيننا على حملها، وأداء حق الله فيها.

وصلى الله على رسولنا الأسوة الذي وجهنا إلى خير القول والعمل، وصلى الله وسلم على آله وصحبه وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الحاقة: 28-29.

2- بتصرف/ عن كتاب حدائق الموت، للشيخ د . محمد عبد الرحمن العريفي، عن موقع (http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=19cd13e67571144c)

3- المستطرف في كل فن مستظرف، أبو الفتح الأبهيشي، 164/1.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحذر من بطانة السوء

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما بَعَثَ الله من نَبِيٍّ، ولا اسْتَخْلَفَ من خَلِيفَةٍ، إلا كانت له بِطَانَتَان؛ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَحُضُّهُ عليه، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ، وَتَحُضُّهُ عليه، فَالْمَعْصُومُ من عَصَمَ الله تَعَالَى).[1]

ورد هذا الحديث الشريف في صحيح البخاري، تحت بَاب (بِطَانَةِ الإِمَامِ وَأَهْلِ مَشُورَتِهِ)؛ الْبِطَانَةُ الدُّخَلاءُ. وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري، أن البطانة هم الدُخلاء، بضم ثم فتح، جمع دخيل؛ وهو الذي يدخل على الرئيس في مكان خلوته، ويفضي إليه بسره، ويصدقه فيما يخبره به، مما يخفى عليه من أمر رعيته، ويعمل بمقتضاه.

والبِطانةُ في اللغة: من البَطْن، وهو من كل شيء: جَوْفُه، وما بطَنَ من الثوب، وكان من شأْن الناس إخْفاؤه، وبِطانةُ الرجل: صاحبُ سِرِّه، وداخِلةُ أَمره، الذي يُشاوِرُه في أَحواله، وبِطانةُ الرجل: خاصَّتُه، وفي الصحاح: بِطانةُ الرجل وَليجتُه. وأَبْطَنَه: اتَّخَذَه بِطانةً. وأَبْطَنْتُ الرجلَ: إذا جَعَلْتَه من خَواصِّك.[2]

ومسمى البطانة يشمل المستشارين والمساعدين والخواص المحيطين بالشخص، مهما كان موقعه؛ فبطانة الرجل في بيته امرأته وأبناؤه وأحفاده، والمرأة بطانتها زوجها وأبناؤها، والمسؤول في مؤسسة بطانته الموظفون لديه، والحاكم الأعلى بطانته المستشارون والوزراء والمقربون منه، وأصحاب الحظوة لديه.

ولا تقتصر البطانة على الناس، بل تشمل غيرهم من الخلق، فيقوم الشيطان بدور صاحب البطانة للشخص، فيعده ويمنيه، وفي الحديث الصحيح عن عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ قال:

1- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته البِطانة الدخلاء.

2- لسان العرب، ابن منظور، ج2، ص104-107.

قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا وقد وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ من الْجِنِّ، قالوا: وَإِيَّاكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: وَإِيَّايَ، إلا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عليه فَأَسْلَمَ، فلا يَأْمُرُنِي إلا بِخَيْرٍ).[1]

وقد قيل أن المراد بالبطانتين في حق النبي؛ المَلك والشيطان، وإليه الإشارة، بقوله صلى الله عليه وسلم: (ولكن الله أعانني عليه، فأسلم).

ولما طلب موسى، عليه السلام، من الله الوزارة لأخيه، أراد بذلك الحصول على المرافق الناصح، والصادق الأمين، حتى يذكره إذا نسي، ويعينه إذا ذكر، فقال تعالى: {وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً}.[2]

وفي سنن النسائي، باب (وزير الإمام)، وتحته عن عائشة مرفوعاً: (مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلا، فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ).[3]

وعن أشهب: أنه ينبغي للحاكم أن يتخذ من يستكشف له أحوال الناس في السر، وليكن ثقةً مأموناً فطناً عاقلاً؛ لأن المصيبة إنما تدخل على الحاكم المأمون، من قبوله قول من لا يوثق به، إذا كان هو حسن الظن به، فيجب عليه أن يتثبت في مثل ذلك.

ومن سمات بطانة الخير أنها تأمر الأمير والمسؤول بالمعروف، وترغبه فيه، وتنهاه عن المنكر والشر، ومن عمل بطانة السوء في إفساد أمر صاحبها، أنها تحجب الناس عن الوصول إليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى تستفرد به دونهم، وحتى تضمن سلاسة بث سمومها إليه، دون معيقات أو تشويش.

وقوله: (فالمعصوم من عصم الله) وفي رواية (من عصمه الله) بزيادة الضمير (وهو مقدر) في الرواية الأخرى، والمراد به إثبات الأمور كلها لله تعالى، فهو الذي يعصم من شاء منهم،

1- صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه في سراياه لفتنة الناس...

2- طه: 29- 34.

3- سنن النسائي، كتاب البيعة، باب وزير الإمام، وصححه الألباني.

فالمعصوم من عصمه الله، لا من عصمته نفسه، إذ لا يوجد من تعصمه نفسه حقيقة، إلا إن كان الله عصمه.[1]

ويذكر ابن حجر في فتح الباري احتمال أن يكون المراد بالبطانتين الوزيرين، ويحتمل أن يكون الملك والشيطان، ويحتمل أن يكون المراد بالبطانتين النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة المحرضة على الخير؛ إذ لكل منهما قوة ملكية، وقوة حيوانية، ويرى ابن حجر أن الحمل على الجميع أولى، إلا أنه جائز أن لا يكون لبعضهم إلا بعضاً منها.[2]

وعمل البطانة يندرج تحت مبدأ النصيحة، التي جعلها الرسول، صلى الله عليه وسلم، حقاً للمسلم على أخيه المسلم، وذكر بعض من تجب لهم النصيحة، ففي صحيح البخاري وتحت باب: (قَوْلِ النبي، صلى الله عليه وسلم، الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ولأئمة الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ})، ورد عن جَرِيرِ بن عبد اللَّهِ، قال: (بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، على إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[3]، وفيه عن جَرِيرِ بن عبد اللَّهِ، قال: (يوم مَاتَ الْمُغِيرَةُ بن شُعْبَةَ، قام فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عليه، وقال: عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللَّهِ وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ له، وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، حتى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ، فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمْ الآنَ، ثُمَّ قال: اسْتَعْفُوا لأَمِيرِكُمْ، فإنه كان يُحِبُّ الْعَفْوَ. ثُمَّ قال: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، قلت: أُبَايِعُكَ على الإِسْلامِ. فَشَرَطَ عَلَيَّ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، فَبَايَعْتُهُ على هذا، وَرَبِّ هذا الْمَسْجِدِ إني لَنَاصِحٌ لَكُمْ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ).[4]

وفي صحيح مسلم، وتحت بَاب (بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ)، عن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قال: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، ولأئمة الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ).[5]

1- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ج13، ص190.

2- فتح الباري، ج13، ص191.

3- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى اللّه عليه وسلم، الدين النصيحة.

4- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم، الدين النصيحة .

5- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

ولا تبعد الصحبة والصداقة عن مفهوم البطانة وأنواعها، فالصحبة الصالحة غير صحبة السوء، ووضح الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفرق بين نوعي الصحبة في حديثه الشريف، حيث قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ، وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لا يَعْدَمُكَ من صَاحِبِ الْمِسْكِ؛ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أو تَجِدُ رِيحَهُ. وَكِيرُ الْحَدَّادِ؛ يُحرِقُ بَدَنَكَ أو ثَوْبَكَ، أو تَجِدُ منه رِيحًا خَبِيثَةً).[1]

وأصحاب البطانة يقومون بمهمة الشورى، والمستشار في ديننا مؤتمن، ففي الأحاديث المختارة عن ابن الزبير، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ).[2]

ويحذر الله تعالى من بطانة الشر، فيقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ}.[3]

فالله ينهى المؤمنين ويحذرهم من اتخاذ دخلاء أصفياء يطلعونهم على سرهم، من غير المؤمنين الصادقين الصالحين، لأن بطانة السوء لا يؤمن جانبها، فهي تدس السم في الدسم، وتجتهد في إفساد حال الناس، وتبتهج لوقوع الضرر فيهم، ومن صلب عملها إحداث الوقيعة بين الناس، وبخاصة الأصفياء وذوي العلاقات الحميمة مع بعضهم، حتى تحدث الفرقة في الكلمة والموقف، وتعم الضغينة، وتسود الأحقاد والنزاعات بينهم.

فإذا خنع المرء - مسؤولاً كان أو غير مسؤول- لبطانة السوء، وسايرهم في غيهم وضلالهم، فقد رتع في الإثم معهم، وستكون عاقبته الندم والخسران، ومن الأمثلة التي ضربها الله تعالى لذلك في القرآن الكريم، ما جاء في قوله سبحانه: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

1- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك.
2- سنن الترمذي، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، وقال الألباني: صحيح لغيره.
3- آل عمران: 118.

الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً}.[1]

ويبين الله تعالى أن المتبوع سيتبرأ من التابع يوم تنجلي الحقائق، وتفضح الأسرار الخفية، فيقول تعالى: {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}.[2]

ويقول سبحانه: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}.[3]

وبناء عليه؛ فإن المرء يحتاج إلى من يسدي له النصح، ويقدم له المشورة، حتى إن كان ذلك على غير رغبته، أو لا يتوافق مع أهوائه، فمعيار الرشاد والنجاة التزام الحق، قولاً وعملاً، وليس المجاملة التي تفضي إلى أن تحيد به عن جادة الصواب إلى ويلات الظلام والانحراف، وهذا يعني ضرورة الفطنة والكياسة عند اختيار البطانة، وتلزم بعد اختيارها يقظة، عنوانها فحص الأخبار والمعلومات والاستشارات التي ترد منها، ولا يعني ذلك الدعوة إلى إعمال سوء الظن والوسوسة والشك، وإنما يعني التثبت من الحقائق والأخبار، واختبار المعلومات، حتى لا نفاجأ بصدمة الخيانة، ومشكلة التوريط، وعاقبة الظلم.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة محمد، وعلى آله الكرام، وصحابته البررة، وأزواجه الطاهرات، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الفرقان: 27-29.

2- القصص: 63.

3- البقرة: 166-167.

فهرس الكتاب

الرقم	الرسول الأسوة ﷺ	الصفحة
	الفصل الأول **عقيدة**	
1.	ﷺ يوصي بكتاب الله تعالى	5
2.	ﷺ يربط بين العلم والإيمان	10
3.	ﷺ ختم الله به النبيين وبرسالته الأديان السماوية	14
	الفصل الثاني **ذكرى مولد الرسول ﷺ وهجرته**	
4.	ﷺ يذكر يوم ولادته وغاية بعثته	20
5.	ﷺ يشيد بمقام المهاجرين والأنصار ودورهم الريادي في الإسلام	26
	الفصل الثالث **عبادات**	
6.	ﷺ يشترط إخلاص النية لله للقبول والمثوبة	32
7.	ﷺ يبين أن أحب الأعمال إلى الله أدومها ولو كان قليلاً	36
8.	ﷺ يبين فضل الصيام ومستلزماته	41
9.	ﷺ يؤدي نوافل العبادات في رمضان ويبين فضلها	49
10.	ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ في رمضان من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ	56
11.	ﷺ هديه في العشر الأواخر وليلة القدر وصدقة الفطر وعيده	63
12.	ﷺ يوصي بأمور تساعد في تحقيق الحج المبرور	70

13.	ﷺ ييسر للحج	75
14.	ﷺ يحثنا على اغتنام مواسم الخير	81
15.	ﷺ في يوم عيد الأضحى	85
الفصل الرابع **مساجد**		
16.	ﷺ ينبه إلى فضل العناية بالمساجد	92
17.	ﷺ يوثق العلاقة بين المسلمين ومساجدهم	97
18.	ﷺ يحث على اعمار المساجد ويحذر من السعي في خرابها	102
19.	ﷺ يبين مسؤولية المسلمين تجاه القدس والمسجد الأقصى	110
20.	ﷺ يحث على شد الرحال إلى مسراه	116
الفصل الخامس **جهاد وأسرى**		
21.	ﷺ يستحضر الاهتمام باستحقاقات الأسرى في صلاته ودعائه ووصاياه	125
22.	ﷺ يحفز الأمة على القيام بواجبها نحو أسراها	132
23.	ﷺ بماذا كان ينهض من صعاب الخطوب والنكبات؟	136
الفصل السادس **مناهج وقيم**		
24.	ﷺ يحرّم الانتحار	144
25.	ﷺ يذم ذا الْوَجْهَيْنِ وَيحرم فِعْله	151
26.	ﷺ يبشر الصادق بالنجاة... ولو بعد ابتلاء وحين	157
27.	ﷺ يؤكد لزوم الحرص على حفظ مال اليتيم	165

.28	ﷺ يتوعد قتلة الأبرياء	171
.29	ﷺ يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرَها(الحلقة الأولى)	180
.30	ﷺ يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرَها(الحلقة الثانية)	189
.31	ﷺ يحفظ للعقول مكانتها، ويحرِّم كل ما يخامِرَها(الحلقة الثالثة)	195
.32	ﷺ يرسم للمسلم نهج الاعتدال ويبعده عن المغالاة والتنطع	200
.33	ﷺ يشجع على الاستنقاء من الغل والحقد	207
	الفصل السابع **اجتماعيات**	
.34	ﷺ عنايته بالشباب	212
.35	ﷺ يشيد بمكانة المرأة وينتصر لحقوقها	216
.36	ﷺ يوصي بالوالدين ويؤثر الأم بأولوية الصحبة	224
.37	ﷺ يقرر مبدأ التكافل الاجتماعي	229
.38	ﷺ ينهى عن السفور والتبرج	235
.39	ﷺ يوصي بالتسوية بين الأبناء في العطية	242
	الفصل الثامن **اقتصاديات**	
.40	ﷺ يضيء نوراً في نفق البطالة بالحث على العمل والاستثمار (الحلقة الأولى)	249
.41	ﷺ يضيء نوراً في نفق البطالة بالحث على العمل والاستثمار (الحلقة الثانية)	256
.42	ﷺ وقوله في الأشعريين: هُمْ مِنِّي وأنا منهم	263
.43	ﷺ ينبه إلى دور التعاضد في معالجة الأزمات الاقتصادية	268

الفصل التاسع
نظام حكم

.44	ﷺ وإقامة الدولة (الحلقة الأولى)	274
.45	ﷺ وإقامة الدولة (الحلقة الثانية)	279
.46	ﷺ وإقامة الدولة (الحلقة الثالثة)	284
.47	ﷺ يتحدث عن مراحل الحكم في الإسلام	291
.48	ﷺ يوصي الراعي بالرعية	295
.49	ﷺ يوجه إلى الزهد في شغف المناصب	301
.50	ﷺ يحذر من بطانة السوء	308

****
****
****
****
****
***

وصلى اللّه على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين